
النور المبين
رسالة في بيان إعجاز القرآن الكريم
الدكتور
بهاء الأمير
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

هــذا الكتــاب

● القرآن هو المعجزة الكبرى التى أمتن الله بها على عباده حتى يكون - **الصلة الدائمة** - بين الأرض والسماء والتى جعل فيها من الآيات البينات الواضحة الساطعة التى لا يمارى فيها إلا جاحد أو مشرك..

● وفي نفس الوقت أنزل منه ﴿**آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾.

● ثم يجعله - جل شأنه - الحجة الأبدية.. والتحدى الدائم على مدى العصور والأزمان.. ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً..**﴾.

● ثم تستمر الآيات المعجزة حتى يقيض الله - **علماء أفذاذا** - متخصصين فى بيان « **الإعجاز** ».. هل هو لغة.. أم علوم بحتة.. كيمياء.. وطبيعة.. أم هو نبأ بأخبار الأولين والآخرين.. ثم تترى الآيات المعجزة.. وكلما نبغ عالم في فن ظهر عالم آخر فى علم آخر أكثر منه براعة.. **وهكذا لا تنتهى عجائبه.. ولا يخلق على كثرة الرد.**

● وهذا الكتاب: «**النور المبين..**» هو رسالة فى بيان «إعجاز القرآن» اختار المؤلف.. ثمانية موضوعات لتكون موضع حوار ومناقشة.. فيبين «**توثيق القرآن**».. بالأدلة والبراهين الساطعة.. ثم يوضح ما هو «**الوحى**» وهل هو شيء حسى أم شيء معنوى.. ثم ما كان من لقاء «**العرب والقرآن**».. ثم التأمل والنظر فى «**مادة القرآن**».. و«**حروف القرآن**».. و «**كلمات القرآن**».. ثم «**آيات القرآن**».. ثم.. «**نظم القرآن..**»..

● ومؤلف الكتاب: دكتور - طبيب بشرى - حصل على ثقافة إسلامية واسعة واطلاع كبير فى محيط العلوم الإسلامية - عامة - وفى محيط العلوم القرآنية.. والقراءات القرآنية - خاصة..

● **ويسر مكتبة وهبة**: أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليكون مشعلا ينير الطريق أمام الذين يبحثون عن الاستزادة من العلوم القرآنية: وهو «**النور المبين..**» وبالله التوفيق.

مكتبة وهبة

النُّورُ المُبِين

رسالة في بيان إعجاز القرآن الكريم

الدكتور
بهاء الأمير

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولى - القاهرة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

إهـــداء

إلى أمى

الحاجة/ عطيات بنت الحاج شحات رضوان

إلى أبى

الأستاذ/ أحمد الأمير بن الشيخ محمود عبيد

وفاء لهما ببعض ما جاء منهما

د. بهاء الأمير

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحــوث الإسـلامية
الادارة العــامة
للبحــوث والتأليف والترجمــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation



الســـيد / د. / بدر الدين أحمد الزمي محمود

الســلام عليــكم ورحمـــة اللــه وبركاته ــ وبعــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : النور المبين
تأليف ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعــه ونشره على نفقتــكم الخــاصة .

مع التــأكيد على ضرورة العنــاية التامة بكتــابة الآيات القــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبــع .

واللــــه المـــوفق ،،،

والســلام عليــكم ورحمـــة اللــه وبركاته ،،،

مــدير عــام
ادارة البحوث والتــأليف والترجمــة

تحريرا في ٢ / ٤ / ١٤٢٠ هـ
الموافق ٢٤ / ٦ / ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى هذه الرسالة

لقد سعدت سعادة غامرة بهذه الرسالة القيمة التى خطها طبيب قلب شاب، تحدث فيها عن معجزة القرآن العظيم حديث عالم فذ متخصص فى علوم العربية والدين، وقدَّم للقارئ نفحات ولمحات رائعة انبثقت من نفس مؤمنة صادقة الإيمان. وقدم المادة العلمية التى حوتها هذه الرسالة فى أسلوب بديع جذاب يعتمد على الحوار المكثف بين طرفين بدآ على حالتى نقيض: إن نفى أحدهما أمرًا أثبته الآخر، وإن أثبت أحدهما أمراً نفاه الآخر.

ومن يقرأ هذه الرسالة بوعى وأناة يدرك أن المثبت فيها هو الحق، وأن المنفى فيها هو الباطل.

حقًا لقد أثبت الدكتور بهاء الأمير أنه يطب القلوب من جهتين:

يبرؤها من عللها العضوية، وأمراضها المادية، التى غايتها القصوى أن تميت «الجسد».

ويبرؤها من عللها غير العضوية كالشك والريبة والزيغ والضلال، وهذه علل غايتها القصوى أن تميت «الروح». وموت الروح هو الموت الحقيقى، لاموت الجسد. حفظ الله كاتب هذه الرسالة، وزاده علما وتوفيقا. فهو - بحق - حسنة من حسنات الإسلام.

القاهرة فى ٢٩/ ٦/ ١٤٢١هـ

٢٧/ ٩/ ٢٠٠٠ م

أ. د/ عبد العظيم المطعنى

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى انزل كتابه ليكون للعالمين نذيراً، وجعله رسالة ومعجزة رسول، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، واشهد أن لا إله إلا الله وحده وأشهد أن محمدا عبده ونبيه، لا نبى بعده.

وبعد

فهذا كتاب رقيق عميق حول وارف إعجاز القرآن الكريم يذكرنا بكتب أخرى ألقى الله عليها القبول، ونفع الناس بها من كل سن، ومن كل مستوى علمي، ومن كل جيل، يذكرنا بتلك الكتب التى يعيش فيها قارئها فلا يمل قراءتها ولا ينتهى من معينها، ويحب أن يتمها فى وقت واحد فتمضى الساعات وهو لا يشعر بها ولا يريد أن يفارق كتابه هذا. يذكرنا بقصة الإيمان لنديم الجسر حيث يدافع فيه عن قضية الإيمان بالله ورسوله بأسلوبه السهل الممتع الأخاذ الساحر.

وكتابنا اليوم يدافع عن قضية (إعجاز القرآن) كلمة الله الأخيرة إلى البشر التى تخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن ظلم العباد بعضهم لبعض إلى عدل رب العباد ورحمته بهم. الكلمة التى جاءت مصدقة لما بين يديها من الكتب وجاءت مهيمنة عليها، تصحح ما انحرف منها وترد ما شرد أثناء نقلها، الكلمة التي تكفل الله بحفظها عندما أراد أن يجعلها الأخيرة للبشرية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وقد قال فى نبيه : ﴿ رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ويعرض الكتاب إعجاز القرآن فى صورة رحلة فى عقل الإنسان الذى يريد الهداية ويسأل عن كنه ذلك الإعجاز وعن كيفية الوصول إلى الاطمئنان التام والقناعة المستقرة بقضية إعجاز القرآن.

وكثيراً ما يكون الإيمان بتلك الحقيقة مستقراً فى قلوب المؤمنين لا يحسنون التعبير عنه أو استحضار أدلته وترتيب عناصره وحسن عرضه على الآخرين، وكثيراً ما يكون الشعور النفسى بتميز القرآن واضحاً جلياً عند المسلمين يعرفون به قداسته ويلتذون بطلاوته وحلاوته ويعرفون مخالفته لكلام البشر دون القدرة على نقل ذلك لأبنائهم أو الحائرين التائهين من البشر الذين يبحثون عن الحق ويطلبون الهداية.

وكتابنا هذا قد شمر عن الساعد لإظهار حقيقة إعجاز القرآن بحيث يخرج بعده قارئه وقد ازداد إيمانا ويقينا على يقينه واتضح له به كيف يظهر تلك القضية وكيف يبحث فيها، صاغه الكاتب النابه فى صورة حوار ليكون أكثر تشويقاً وأدق فى الإجابة على خطرات المعالج لهذه المسألة.

أرجو من الله أن ينفع به وأن يلقى عليه القبول وأن يكون ذخيرة فى المكتبة الإسلامية بجوار ما كتب عن مسألة إعجاز القرآن الذى هو إعجاز رسالة مستمرة إلى يوم الدين يخاطب به كل الأشخاص فى كل زمان ومكان وحال، معجزة باقية عبر الأيام لا كسائر المعجزات التى رآها من عاصرها فآمنوا على مثلها، بل معجزة قائمة بالتحدى لتكون دليلاً وبرهاناً على صدق الرسالة وصدق الرسول وبيانا لمراد الله من خلقه سبحانه حيث أراد منهم توحيده وعبادته وعمارة الدنيا والالتزام بشرعه.

فعسى أن يكون هذا الكتاب لبنة فى بناء الدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى حب نبيه ﷺ.

القاهرة: ١٥ جمادى الأولى ١٤١٩ هـ

٦/ ٩/ ١٩٩٨م

د. على جمعة

أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن فرقاناً، وجعله لكل شئ تبياناً، ونسبه لذاته، وأورثه من اصطفاه من عباده، وأبقاه أبد الدهر نوراً ومناراً وينبوعاً فياضاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده؛ شهادة نتزلف بها إلى مرضاته وندخرها عنده ليوم لقائه. والصلاة والسلام على الرسول النبى الأمى الأمين، رحمة الله للعالمين الذى لا ينطق عن الهوى، والنور الذى بعثه ربه بالنور وخلَّقه به فكان نوراً على نور.

وبعـــد ...

فإن القرآن هو خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض ومعجزته الباقية الخالدة فيهم وحجته عليهم. وقد أودع الله فيه من الأسرار ما لا ينفد إلى يوم القيامة، وجعله نبعا مدراراً لا يزيده الزمان إلا تدفقاً ولا عكوف الخلق عليه إلا إفاضة وإدراراً. فهو كما وصفه المبعوث عليه الصلاة والسلام به:

« كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم.

وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتي قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ». رواه الترمذى.

ولأن القرآن هو خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض فقد أودع فيه – عز

وجل – من وجوه الإعجاز ما يعجز كل عصر وأهله وما يكون إدلالاً في كل زمان بصدقه، ومن التحدي ما لو اجتمع الخلق إلى يوم القيامة وكان بعضهم لبعض ظهيراً لم يبلغوا منه إلا كما يبلغ التراب يرنو إلى السحاب.

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعلى كثرة ينابيع الإعجاز الفياضة فى القرآن فإن البيان والبلاغة وفصاحة اللغة هى وجه الإعجاز والتحدى القرآنى الأولُ الذى كان دليل صدق الرسالة فى الأمة التى أنزلت عليها؛ بهت الله به العرب، وامتلك أفئدتهم، وأخضع ألسنتهم، وفتح به العالم أمامهم.

وهو الوجه من الإعجاز الباقى الخالد الذى لا يطويه عصر ولا يذهب بذهابه، وكل وجه من الإعجاز سواه فمنه ينهل وهو له نبع وأصل. وهو الوجه الملازم للقرآن الذى يكون به القرآن قرآناً ولا يكون قرآناً إلا به. فكل إعجاز سوى هذا الإعجاز هو فى القرآن، وأما هذا الإعجاز فهو القرآن نفسه.

ولا تثريب على أهل عصر أو زمان إذا فاتهم وجه من إعجاز القرآن سواه يستدركه أهل عصر وزمان يلحقه، ولا معذرة لهم إن فاتهم إدراك هذا الوجه الذى لا يكون القرآن معجزة – بإطلاق – إلا به ولا سبيل لإدراك وجوه الإعجاز الأخرى إلا من بابه.

وقد يختلف المختلفون حول وجوه إعجاز القرآن الأخرى بين مؤيد لاعتبارها ومشفق من تبعاتها، ولكن المعجزة البيانية اللغوية هى ما لا يمارى فيه أحد ولا يستطيع، فهى الوجه من المعجزة القرآنية الذى خص الله – عز وجل – به قرآنه نصاً، وتحدى به العرب والعجم والإنس والجن تعييناً، ولن يفهم أحد القرآن ولن يقدره حق قدره ويعرف له شرفه إلا إذا عرف كيف هو معجزة فى وجهه البيانى اللغوى.

نعم! قد يبجل آلاف وملايين من المسلمين القرآن ويقدسونه ويقرون

بإعجازه، ولكنه تبجيل وتقديس وإقرار الوارث لما ورثه عن آبائه لا إجلال وتعظيم وسجود العارف المستنير. وشتان بين هذا وذاك! وليس من علم كمن جهل!.

وزاد الطين بلة أنه حتى هذا القدر الموروث المتناقل فى ناسلاتنا من جيل إلى جيل من الإعظام والتقديس والتبجيل أصبح عرضة للاهتزاز والقلقلة فى نفوس بعض المسلمين؛ تنتابهم الوساوس وتتلجلج فى رؤوسهم الهواجس؛ يستفهم عنها قليل، ويخفيها - حرجاً - كثير، ويستعلن بها - تشكيكاً - فى وقاحة بعض من ينتسبون للإسلام وليسوا منه فى شئ. ولم تعد ناسلات الأبناء والأحفاد فى نقاء وصفاء ناسلات الآباء والأجداد، وإنما أصابتها الهُجنة النفسية والعقلية واللسانية.

فقد نُحى القرآن من المجتمع ووضع على الرفوف وصدور النساء العَارية!، وتوالت أجيال وأنسال ما ترى فى شئون الحياة ولا القوانين ولا السلوك والأخلاق ولا المجتمع والناس من القرآن شيئًا. ففقد القرآن سلطانه على القلوب والنفوس وأصبح غريبًا بين أهل ما وجدوا ولا كانوا ليكونوا إلا به. وليس سلطان الآمر النافذ فى النفوس كسلطان المعزول المنحى، إلا عند من عصم الله به وهدى منه، وقليل ما هم. والعربية التى لا سبيل لأن يقدر القرآن حق قدره إلا بها قد تكالب عليها أعداؤها والسفلة - وإن علوا - من أهلها وما هم بأهلها. فضرب عليها الحصار وأقيمت حولها الأسوار، وحيل - بكل السبل - بين الألسنة وبينها، وربيت أجيال من أهلها على الإيقان بقصورها ودناءتها حتى نعت على ألسنة الشعراء نفسها:

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى   عقُمت فلم أجزع لقول عُداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى   رجالاً وأكْفاء وأدت بناتى

وثالثة الأثافى: القرآن نفسه ووجه الإعجاز الذى لا يكون القرآن معجزة إلا به استأمن أعداءه بغربته بين أهله فسددوا له السهام وتكالبوا عليه والأوشاب تلميحًا وتصريحًا، مقالاً وكتابًا حتى جردوا موضعا على شبكة الاتصال الدولية

(الإنترنت) ترصد الجوائز لتقليد آياته، يشحذ همهم جهل فشا وعلم خبا. وما على القرآن يخشى وقد تكفل به العزيز الحكيم ولم يكل إلى أحد حفظه وصونه ولا المدافعة والمنافحة عنه.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وإنما يخشى على مسلمين تُركوا فى العراء تتنازع مقام القرآن فى نفوسهم عواصف هوج من كل رجو، ولم يعد ما ورثوه عن آبائهم من التقديس والتعظيم يثبت فى قلوبهم ما كان يثبت فى قلوب آبائهم.

إذاً! إذاً فلابد أن يعرف المسلمون القرآن نفسه ويفهموا لماذا هو معجزة وكيف هو معجزة. ولكن كيف يعرفون؟ وكيف يفهمون؟.

الا ما أكثر ما كتب عن إعجاز القرآن فى بيانه وبلاغته وفصاحته، وما يخلو عصر من كتاب وكتب فى الإعجاز القرآنى.

هنا المعضلة!

فإن علماءنا - رحمهم الله تعالى - لم يروا فى إعجاز القرآن إلا علماً للخاصة كما نص على ذلك غير واحد منهم. فهم يأخذون منهم ويردون عليهم، والمسلمون - عامة المسلمين - عن ذلك بمنأى؛ يرضيهم ما يجدون فى ألسنتهم من حلاوة القرآن وما يحسونه فى نفوسهم من إعجازه ومفارقته لكلام البشر. ولأن علماءنا - رحمة الله تعالى عليهم - رأوا الإعجاز علم الخاصة الذى ليس من شأن العامة معرفته ولا فهمه، فقد كثرت فى كلامهم عنه المصطلحات والتقعيد والتنظير للبلاغة والبيان القرآنى، فلا يقرأ أحد من غير الخاصة صفحة إلا وهو يتعثر فيها وتثقل عليه، ويحار فى نسبة الضمائر لما تعود عليه، ويتوه بين أول الكلام وآخره، ويكاد لا يجد القرآن نفسه، وإذا وجد منه شيئاً كان فى آخر الاصطلاح والتقعيد والتنظير استشهاداً لا يعرف ولا يستطيع فهم العلاقة بينه وبين ما استشهد به له. وأنكى من ذلك لا يحس به رونق القرآن وبهاءه ورواءه وأثره فى النفس وطلاوته فى اللسان الذى ربما أحسه حين يخلى بينه وبين القرآن

نفسه. وبهذه الطريقة في بيان الإعجاز القرآني يستغلق على المسلمين - عامة المسلمين - بل على الناس جميعاً - والله عز وجل إنما أنزل القرآن يخاطب البشر كل البشر - يستغلق عليهم معرفة كيف يكون هذا القرآن معجزة في بيانه، ويصير حالهم معه كالأعرابي الذي مر يوماً على جماعة من النحاة يتجادلون في النحو بالمصطلحات والقواعد وليس في كلامهم شئ من العربية التي يضعون النحو ويتجادلون فيه من أجلها! فما كان من الأعرابي - صاحب اللغة - إلا أن نظر إليهم شذراً مستنكراً وقال: ما بال هؤلاء يتكلمون في كلامنا بما ليس من كلامنا!!

وما نعيب على علمائنا - رحمهم الله تعالى - وجزاهم الجزاء الأوفى قدر ما وضعوا العلوم ومهدوا الطريق وذللوا الصعاب بهذا الاصطلاح والتنظير والتقعيد. ونحن ما نرد إلا إليهم ولا نصدر إلا عنهم.

لذلك!

ليس من المبتغى - عندي - أن أضيف كتاباً في إعجاز القرآن إلى ما سبق أن كتب ولا أن أخاطب الخاصة فقط. وإنما مبتغاي ومرادي كتاب يتوجه إلى المسلمين - عامة المسلمين - قبل خاصتهم. بل وأزيد فأقول من بين المسلمين - عامة المسلمين - صنفان كتبت من أجلهما وأرجو من الله أن يصل ما كتبت إليهما.

الأول: مستفهم يريد أن يفهم.

والثاني: شاك يريد أن يتثبت.

ولا أنكر صنفاً ثالثاً توجهت إليه بما أكتب عسى أن يقع منه حيث أبغي وأرجو. وهو غير مسلم يسمع وبه فضول لأن يعرف.

ماذا؟

يفهم ويتثبت ويعرف: كيف يكون الكلام - وكل الناس تتكلم - وكيف يكون الكتاب - وكل من خط بقلم على ورقة يُدَّعى كاتباً - معجزة في نفسه؟

كيف يكون رصف وسبك الحروف والكلمات والجمل - وهي مادة مبذولة لكل من له لسان - فوق طاقة البشر كل البشر.

فإذا بلغت ممن أخاطب ما أصبوا وأبغي رمت منه شيئًا آخر: أن أصل به إلى

أن يقف أمام آيات القرآن ويعرف كيف يتأمل فيها هو نفسه؛ فإذا وجد آية تشبه آية أو تخالفها تمهل عندها متفكرًا باحثًا عن الإعجاز فى الائتلاف وفى الاختلاف.

فإن لم يكن، أيقن بالدقة الهائلة والتناسق فوق الطاقة وإن قصر عقله عن إدراكهما.

وإذا سمع أو قرأ لعى دعى يعيب فى القرآن آية أو لفظًا أو ادعى - من جهله - القدرة على تقليده وقف وعلم أن فى الكلمات والحروف أسرارًا إن لم يكن من أهلها وأراد الفهم والتثبت فليبحث عنها عند أهلها.

ولأن هذا الكتاب يخاطب المسلمين - والناس - عامة وهذه الأصناف خاصة، ولأن هذا ما أبتغيه منه فقد آثرت أن أخلى بين القارئ والقرآن ليكون الحديث عنه منه وليكون بيان إعجازه به.

فلا سبيل لبيان معجزة القرآن إلا القرآن نفسه.

ولربما فاتنى ما قصدته من أن تكون قضية الإعجاز القرآنى مبسوطة مفهومة لكل من خاطبهم القرآن - وما جاء القرآن إلا خطابا للناس جميعًا - لولا وجود صديقى العزيز الذى رافقنى وبارزنى.

صديقى العزيز المشاغب بأفكاره ومشاغبته متعة، الحاد فى مواقفه وحدته إثارة، المشاكس فى حواره ومشاكسته جذابة شائقة.

صديقى العزيز الذى أرهقنى وأجهدنى ولكنه أمتعنى بما ارتاد بى من الخبايا بتساؤلاته، وبشكه وتثبته طلبا للرضا، وإقراره بالحق إذا تجلى. والذى أشجانى قرب فراقه فأبت على نفسى إلا أن أتوحد به بدلاً من أن أفترق عنه.

ويبقى رد الجميل لأهله.

فأما الفضل فى هذا الكتاب - بعد الله عز وجل وما أفاض به وأسبغ - فللأستاذ الدكتور على جمعة الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف.

فضل هو رحابة صدر، وطلاقة وجه، وإفساح وقت، وفيض علم، وتمحيص نصح. ولا جزاء عندى يكافئ سعة هذا الفضل إلا أن أرجو له أحسن الجزاء من واسع فيض رب السماء.

وأما الفضل فيما وراء هذا الكتاب فلما نهلت منه وأنهل، ونعمت به وأنعم، من اللُّقيا والتلقي عن البصير قلبه بنور ربه، الغنى بالعلم ومقصد طلابه، الشريف بالقرآن وموئل قُصَّاده شيخي ومولاى وسيدى: عبد الحميد بن يوسف منصور مد الله فى عمره ونفعنا بعلمه، ومتعنا برفقته وعمنا ببركته.

وأما من لا يوفيه حقه قلم ولا لسان فوريث الأنبياء وتقى العلماء، القوال الفعال الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف.

عرضت عليه الكتاب لنقده فما كان منه بعد أن قرأه إلا أن قال: كتابك روعة يا دكتور!

فلما أطرقت وغضضت الطرف خجلاً من إطرائه هتف بى: هذه ليست مجاملة يا دكتور؟ فلو كتب هذا الكتاب أحد من أهل الأزهر وعلمائه لانحنينا له، فكيف وأنت لست من أهل الأزهر ولا من علمائه.

ثم لم يكفه ما أسبغ من ثناء وأجزل حتى أخذ الكتاب ليسعى به هو نفسه على علو مكانه وجلال مكانته عند الناشر، فيعرضه عليه ويحببه إليه، ولا يزال يواليه ذهاباً ومهاتفة حتى «حنت نياقه»!

أبقاه الله عز وجل فى الأزهر عَلَماً وللإسلام عِلماً وعملاً، وادخره للعلم نبعاً ولأهله عوناً ودعماً.

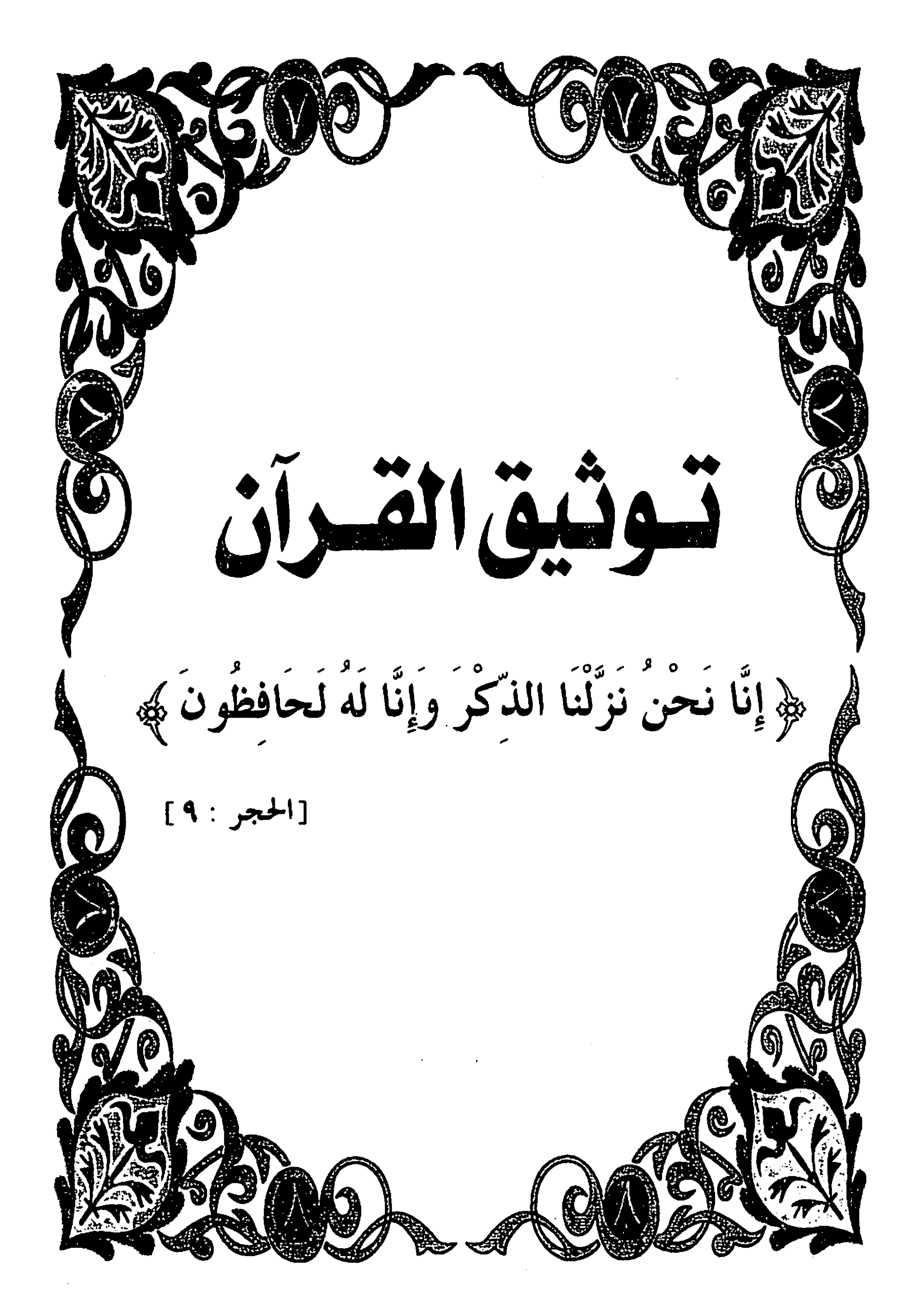
وجاء أوان أن أترك القارئ الكريم يرتحل مع توأم نفسى وقسيم عقلى: صديقى العزيز.

ولله الحمد أولاً وآخراً.

د. بهاء أحمد الأمير
ربيع الثانى ١٤١٩ هـ
أغسطس ١٩٩٨ م

(*) لا يفوتنى أن أتوجه بالشكر وعميق الامتنان للصديق العزيز د. **مدحت أبو الفتوح**، والذى كان أول من قرأ هذا الكتاب مخطوطاً وقت كتابته، قرأه فصلاً فصلاً، وبعض موضوعاته كان من اقتراحه.

كذا أتوجه بالشكر للصديق العزيز **د. حسن عبد المتعال**، الذى بذل مجهوداً مضنياً فى نسخ مخطوطة هذا الكتاب على الحاسوب (الكومبيوتر).



توثيق القرآن

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر : ٩]

قال وقد أقبل عليّ وفى وجهه سيماء الجد والتحفز: ها قد أتيت وإنى لمتأهب وإنى لعند وعدى ألا أتخلف ولا أفر من النزال.

قلت مبتسماً: تعرف! رغم اختلافى معك كثيراً يعجبني منك جدك ويشدنى إليك إخلاصك لما تقتنع به واعتبارك أفكارك وآراءك حصوناً تدافع عنها وتقاتل فى سبيلها.

قال وقد لاحت ابتسامة صغيرة على شفتيه: ويعجبنى فيك هدوءك، على أنى أنبهك أننى لست ممن تستهويهم المجاملات فتميل بهم عن آرائهم إلى آراء من يجاملونهم.

قلت: فلندع حديث المجاملات جانباً. ما رأيك أن نبدأ من أكثر مسألة يثار الغبار حول القرآن بها ويتشكك...

قاطعنى قائلاً: وما هى؟

قلت: نقل القرآن وصحته وكونه وثيقة لا تقبل الشك ولم تمتد لها يد التحريف بل ظلت محفوظة لا تبديل ولا تغيير تصديقاً للقرآن نفسه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

قال: ما أظنك ستأتى بجديد! فإنى أرى أصحاب كل دين يتكلمون ما يتكلمون ويدافعون ما يدافعون ثم ينتهون إلى خطب عصماء يدعى فيها كل منهم أن كتابه هو الصحيح الذى لم يتبدل ولم يتغير وما سواه فمحرف أو منحول. وما يملك أحد منهم حجة إلا صوته وضجيجه وسط أتباعه.

قلت: ربما كان معك بعض الحق فيما تقول. ولكن! ألا ترى أن معرفة الصدق من الكذب فى هذه المسألة سهل وميسور؟ يكفى أن تقارن بين توثيق وكيفية نقل كل كتاب لتعرف أين هى الحقيقة وتميز الصادق من المخادع.

قال: ربما!

قلت: إذاً فلنؤجل حديث المقارنة قليلاً حتى لا يتشعب بنا الحديث فيسير فى مسالك متعددة ولا نصل إلى نتيجة. وليكن حديثنا عن توثيق القرآن أولاً.

وما إن أنهيت عبارتي حتى لمعت عيناه ببريق التحدى ومال بوجهه إلىَّ وقال: أظنك ستعطينى محاضرة فى توثيق القرآن وصحته وعدم تحريفه وأنه الكتاب السماوى الوحيد الذى لم يتغير، ثم تنهى محاضرتك وتطلب منى أن أهز رأسى بالموافقة.

وبعد اندفاعة كلماته كالعاصفة هدأ ومال إلى الخلف مسترخياً ثم قال بصوت حاسم: لا ... وألف لا.

قلت محاولاً تهدئته: هون عليك ودع لى فرصة الكلام؛ فلم أطلب ذلك منك ولست أفرضه عليك. إنى لأعلمك أديبًا أريبًا واسع الإطلاع ولا يصل إلى نفسك وقلبك إلا ما تُنخِّله بعقلك، فلن يجدينى إذًا شيئًا أن أسرد لك محاضرة ثم تهز رأسك - إن فعلت - مجاملة ونكون قد انتهينا كما ابتدينا.

قال: فماذا تريد إذن؟

قلت: قد اتفقنا أنى لا ألزمك بقبول شئ إلا من جهة عقلك وبالحجة الثابتة، شرط أن لا تكابر ولا تعاند فيما يظهر أنه لا مراء ولا شك فيه.

قال: نعم! قد اتفقنا. فلك على هذا. لكن ماذا عما لى عليك؟

قلت: لك على أن لا أعطيك قوالب جامدة فأطلب منك قبولها كما هى، بل لك ألا تدع فى نفسك نقداً إلا قلته ولا شبهة إلا أثرتها، فإما سلمت لى وإما أقررت أنا بعجزى عن إقناعك.

قال وهو ينظر إلىَّ بعيون ملؤها الحذر: قد وافقت. على أنك يجب أن تعرف أننى لن أكون رفيقًا ولن أداور فيما يساورنى، ولن ألتزم الحيطة فى كلماتى ولا التحسس حتى لا تصيب منك موضعا تكرهه.

قلت: بل أقول لك: إنى ليعجبنى ذلك فيك. فلا تلزم الحذر ولا تنتقى من الكلمات أرقها. وغاية ما أرجوه منك ألا يخرج كلامك عن النقد والاستقصاء إلى السباب مما لا يليق بمثلى ومثلك وما لا يليق فى شأن من نتحدث عنه وعنهم، إن لم يكن بميزان العقائد فبميزان التاريخ والاجتماع.

قال فى هدوء: ذلك لك، ولا أماريك فيه.

قلت: تعلم أن القرآن نزل على النبى عليه الصلاة والسلام منجمًا مفرقًا فى بضع وعشرين سنة؛ فكل نجم منه آية واحدة أو بضع آيات.

قال: أعرف ذلك. وإنى لأعجب كيف يقال: إن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة آية آية أو بضع آيات بضع آيات ثم يقال بعد ذلك: إنه قد جمع كاملاً ولم يُفقد منه شئ! أو لست ترى أن ذلك فوق الممكن ومما لا يقبله عقل سديد؟

أرأيت لو أن امرأ - كائنًا من كان - جمعت عباراته البليغة وتعليقاته الصائبة الباهرة والتى قالها فى عشرين سنة، أيصدق عقل أنه لا يُفقد من كلامه ولو عبارة أو جملة؟ أشك فى ذلك!

قلت: أراك تخطئ خطأً بالغًا لا يليق بمن كان فى عقلك وسداد رأيك! أما ترى أنك ما زدت على أن جعلت القرآن فى رتبة كلام البشر؟ أتظن أن المسلمين الأوائل كانوا ينظرون إلى القرآن نظرة عامة الناس أو خاصتهم إلى كلام الخطباء أو الساسة ومن دونهم.

خبرنى ! هذا كلام أعجزهم ثم آمنوا به وسلموا له تسليماً مطلقاً وأيقنوا أنه كلام الله عز وجل وخطابه إلى البشر، ثم هو قد مس شغاف قلوبهم حتى ليضحون فى سبيله بأهلهم وعشيرتهم ، بل ومهجهم وأرواحهم، أفتراهم يتركون كلاماً يوقنون أنه من الله وتتعلق به قلوبهم تعلق الوليد بأمه ليضيع بعضه أو كله؟

قال: أظن.....

قاطعته قائلاً: مهلاً! فإنى لا أريدك أن تجيب بلسانك وعقلك، بل أريدك أن تضع نفسك مكان أحدهم وتفكر بعقله وتحس بقلبه وتنطق بلسانه. ألو كنت مكان أحدهم وهذا مقام القرآن عندك فماذا أنت منه؟

قال: لا ريب كنت أهفو إليه وأتلهف عليه وأتتبعه تتبع الأم الرؤوم وليدها.

قلت : أشكر لك إنصافك وعدم مكابرتك. فما كان من صحابة النبى عليه الصلاة والسلام إلا ما تقول وأكثر منه. إن أحدهم كان يزاول مهنته وحرفته ويكتسب الرزق وإن قلبه لمعلق بالقرآن يخشى أن تنزل منه آية فتفوته حتى ليتناوب مع صاحب له على أن يأتى كل منهم النبى ﷺ يوماً حتى لا تفوته آية.

قال : إن هذا لعجيب حقاً! وما أظن أن لذلك مثيلاً فى تاريخ البشر.

قلت : وهو على ذلك حقيقة لا مراء فيها. فعمر بن الخطاب يقول هو عن نفسه إنه كان يتناوب مع الأنصارى الذى آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بينه وبينه على إتيان النبى عليه الصلاة والسلام؛ كلٌ منهما يأتيه يوماً يستطلع أخبار الوحى حتى لا يفوتهما شئ من القرآن ينزل، ثم يعود به إلى صاحبه ويخبره به ويحفظانه معاً.

قال : قد أقررت لك، قد شغفوا بالقرآن وانقادوا له حتى ليتلهفون على نزوله ويتعقبون آياته من بعضهم ومن فى النبى، لكن يظل فى نفسى شئ!

قلت ما هو؟

قال : إنك لا تحدثنى عن مجتمع مستقر رخى البال كلٌ يغدو فيه إلى عمله ولا يكون بعد ذلك من همه إلا تتبع القرآن وحفظه. ولم يكن المسلمون الأوائل فى دولة متينة الأركان ولا حياة رتيبة هنية. وما أظنك بحاجة إلى أن أذكرك أن ذلك كان بداية عصر جديد والمخاض لميلاد مجتمع وتأسيس دولة. ثم حروب ومعاهدات، ووفود وجموع، ورسل وبعوث، ومجموعات تخرج هجرة إلى الحبشة من مكة، وأخرى تخرج للغزو فى المدينة. وإنى أسلم لك بتتبعهم للقرآن واستقصائهم له وحفظه فى حياة النبى. ولكن! أما ترى أن طبيعة الحياة نفسها وصخبها وزحامها وتقلباتها التى لا تعرف الأناة ما كانت تسمح لهم – وإن أرادوا – بهذا الحصر الدقيق لآيات القرآن والاستيعاب الكامل له.

قلت : إن الأمر لكما تقول وما أجادلك فى ذلك.

قال : ها أنت أيضاً قد أقررت بصعوبة جمع آيات القرآن كلها فى حياة النبى.

قلت : أراك دائماً تبادرني ولا تمهلني!

قال : قد سكت! فقل إني مصغ!

قلت : إني وإياك قد تكلمنا في شأن الصحابة وتعلقهم بالقرآن وتتبعهم لآياته، ولكن أنسيت صاحب الرسالة المنزل عليه القرآن نفسه عليه الصلاة والسلام. فإني سائلك فأجبني : كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام يرى القرآن؟

قال : كان يراه معجزته ووحى الله إليه والشريعة التي أنزلها عليه.

قلت : وأزيدك أنا : وإنه ليراه دليل نبوته وبرهان رسالته وحجته على العرب ورفع ذكره. وأفضل من ذلك كله رضا ربه عليه وحبله الذي يصله به.

قال : فليكن! فهذا شأن القرآن لديه ومقامه عند نفسه.

قلت : فتأمل معي وقل لي : أتراه ﷺ يتشوق لحفظ القرآن ويتلهف له أم يترك معجزته ورسالته ودليل نبوته وصدقه وصلة ربه به ليتبدد أو يُفقد منه شئ؟ ألست ترى أن ذلك لا يسوغ في عقل ولا تقبله نفس؟

قال : إني موافقك. وما أراك إلا تشرح لي قول القرآن نفسه في قوله : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة : ١٦، ١٩].

قلت : هو ذاك.

قال : حسناً! كان النبي متلهفاً لحفظ القرآن حريصاً عليه يخاف أن يتفلت منه شئ. لكنه – بعدُ – أمي لا يكتب ولا يسجل. أليست هذه شهادة القرآن نفسه في قوله : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨]؟

قلت : بلى! إنها شهادة القرآن وإنها لشهادة صادقة.

قال : فانظر معي! الصحابة كانوا يسجلون القرآن ويكتبونه، ولكنهم كانوا

يفعلون ذلك لأنفسهم ولربما فات أحدهم - لشغله أو غيابه - آية أو آيات، فلا يكون القرآن قد اكتمل عنده. والنبى نفسه يحفظ كل الآيات لكنه لا يكتب ولا يسجل. فها أنت ترى بعد كل ما وصلنا إليه ان الأمر لم يستقم لك. ولا أسلم لك إلا بحجة.

قلت: أراك قد وضعت المسألة فى معادلة رياضية؛ فالنبى يحفظ ولا يكتب. والصحابة يكتبون ولا يحفظون كل القرآن. إنى لأشكرك. فقد سهلت حل المعضلة، بل حلت من تلقاء نفسها بمعادلتك هذه.

نظر إلى مستغرباً وقال: كيف؟

قلت: فلنحلها طرفاً طرفاً.

أما أن الصحابة كانوا مشغولين لا يستقر بهم حال، وهم يحملون عبء نشر الرسالة وتوطيد أركانها فذلك ما أسلمه لك. ولكن ليس تسليماً مطلقاً!

قال: لا تحيرنى بألغازك هذه!

قلت: صبراً! نعم كان الصحابة مشغولين بجلائل الأمور. ومع ذلك فقد كان شأن القرآن عندهم أكبر من أن يشغلهم عنه شاغل، بل فرغ بعضهم نفسه له يدونه ويحفظه. وإن بعضاً منهم ليحفظ القرآن كاملاً.

قال: كاملاً؟! ربما أصدقك فى ذلك بعد وفاة النبى بأزمان.

قلت: بل فى حياته ﷺ. الا ترى أن القرآن قد حثهم على ذلك وجعل لمن فرغ نفسه له مكانة خاصة ترغيباً وتحبيباً: ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ثم هذا صحيح البخارى. اقرأ هاهنا، فإنى أحب أن أسمعك تقرأ.

قال: عن قتادة: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. قلت: ومن أبو زيد؟

قال: أحد عمومتى[1].

قلت: ها أنت ترى أن من الصحابة من كان يحفظ القرآن كله على عهد النبى ﷺ.

قال: فهؤلاء أربعة فقط وبشهادة أنس بن مالك. أتظن أربعة يكفون لإثبات تسجيل القرآن وكتابته وحفظه؟

قلت: ليسوا أربعة، بل كثير كثير.

قال: والله إنى لأعجب منك! راوى الحديث الصحابى يقول: إن جامعى القرآن أربعة على عهد النبى وبصيغة الحصر ثم تقول لى أنت: كثير. هل تريد منى أن أصدقك وأكذب من شاهد وعاصر؟!

قلت: لا. وأستغفر الله من ذلك. أفترانى أزل وأسفل حتى أصم من أراهم أطهر الناس بالكذب؟

قال: قد حرت والله معك. فماذا تعنى إذن؟

قلت: المسألة بسيطة. إن أنساً رضى الله عنه قال هذا الكلام – كما روى ابن جرير الطبرى – فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج.

قال: مفاخرة! ألا يقول القرآن إنه قد ألف بينهم، ويقول النبى إنه نزع عنهم نخوة الجاهلية.

قلت: صبراً! إنها مفاخرة بالإسلام لا بالعصبيات. قالت الأوس: منا أربعة: من اهتز له عرش الرحمن: سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته رجلين: خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة: حنظلة بن أبى عامر، ومن حملته الدبر: عاصم بن أبى ثابت. فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم. وذكرهم. فأنس – رضى الله عنه – حين ذكر من جمعوا القرآن فى حياة النبى عليه الصلاة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «مناقب الأنصار» باب «مناقب زيد بن ثابت رضى الله عنه» حديث رقم (٣٨١٠).

والسلام إنما كان يتحدث عمن جمعه من قومه الخزرج خاصة لا من المسلمين عامة.

قال: إنك لتناورني بحذق ومهارة. ورغم ذلك لا أسلم لك، فإنك قد نفيت دون أن تثبت. قد نفيت لي أن يكون قد جمع القرآن أربعة فقط، ولكنك لم تثبت لي أنه قد جمعه غيرهم.

قلت: ذلك سهل ميسور. وساجعلك تصل إليه بنفسك. هناك أمر معلوم كالبديهة. قل لي: من أحق الناس بإمامة المسلمين في الصلاة؟

قال: أقرؤهم للقرآن.

قلت: وما أقرؤهم؟

قال: أحفظهم.

قلت: فقل لي: كيف كان أبو بكر يصلي بالناس في حياة النبي ومنهم هؤلاء الأربعة وهو لا يحفظ القرآن كاملاً؟

قال: فهؤلاء خمسة! وهم أيضا قليل!

قلت: إذا فكيف بعثمان بن عفان وقد رُوى أنه كان يصلي في الليل ركعتين يقرأ فيهما القرآن كله؟

قال: فهؤلاء ستة!

قلت: فماذا عن عبد الله بن عمر وقد روى ابن ماجة أنه قال عن نفسه: جمعت القرآن فقرأته كله في ليلة فقال النبي ﷺ: إني أخشى أن يطول عليك الزمن وأن تمل فاقرأه في شهر[١].

قال: فسبعة؟

قلت: فكم يقنعك؟

---

(١) رواه ابن ماجة في كتاب «إقامة الصلاة» باب «في كم يستحب يختم القرآن» حديث رقم (١٣٤٦).

قال : لا أقل من عشرات .

قلت : هذه أيضا ميسورة، فقد قتل فى غزوة بئر معونة سبعون من الصحابة وكانوا يسمون بالقراء لحفظهم القرآن كاملاً .

قلت : قد لمحت أمارات القبول فى عينيك ثم أراها الآن تتحول فتصير سؤالا .

قال : وكأنك تقرأ ما فى نفسى . قد رضيت عن طرف المعادلة الأول . فماذا عن طرفها الثانى؟

قلت : النبى عليه الصلاة والسلام؟

قال : نعم النبى يحفظ القرآن . وما أظنك ستبرهن لى أنه كان يكتب أيضاً . وأرى أن طرف المعادلة الأول كان يسيراً، أما هذه فأظنها عسيرة عليك .

قلت : بل هذه أسهل من الأولى . قل لى : كيف يكتب الملوك والرؤساء؟

قال : لا افهم ما تعنى؟

قلت : هذا سؤال بسيط : إذا أراد ملك أن يكتب رسالة أو مكاتبة فماذا يفعل؟ أيمسك الدواة والريشة أو القلم أم يستدعى كاتبه ليملى عليه؟

قال : بل يستدعى كاتبه ليملى عليه .

قلت : إذاً فقد حللت أنت طرف المعادلة الآخر . وما كان النبى عليه الصلاة والسلام يفعل إلا ما ذكرته أنت نفسك .

كان عليه الصلاة والسلام يعرف بنور ربه أهمية تسجيل الوحي القرآنى وكتابته حتى يثبت القرآن وينفى عنه التحريف ويدرأ عنه ما أصاب كتب السابقين من التغيير والتبديل والزيادة والنقص . فكانت تنزل عليه الآية أو الآيات فيبادر عليه الصلاة والسلام إلى إملائها وتسجيلها فور نزولها .

قال : أراك وكأنك جهزت إجابة لكل سؤال ولا تزال تداور دون بينة .

قلت : بل هاك البينة فاقرأها بنفسك . هذا صحيح البخارى .

فأخذ يقرأ بتمهل شديد: عن البراء قال: لما نزلت «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» قال النبى عليه الصلاة والسلام: ادع لى زيداً وليجئ باللوح والدواة والكتف ثم قال: اكتب: «لا يستوى القاعدون»، وخلف ظهر النبى عليه الصلاة والسلام عمرو بن أم مكتوم الأعمى قال: يا رسول الله فما تأمرنى، فإني رجل ضرير البصر فنزلت مكانها: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**﴾ [النساء: ٩٥][(١)].

قلت مبتسماً: ها! ما تقول فيما قرأت؟

قال فى أناة شديدة وهو يفصل كلماته: ادع لى زيداً ... لوح ... دواة ... كتف.

قلت: إنك لوقاد الذهن خاطف البديهة. نعم! زيد الكاتب، واللوح والكتف للكتابة عليها، والدواة أداة الكتابة. الا ترى أن كل أدوات التسجيل الفورى موجودة حاضرة. وتأمل قول النبى عليه الصلاة والسلام: «ادع لى زيداً» دون أن يذكر ابن من يكون زيد، فهو معروف مشهور وكأن تسجيل القرآن مختص به. فإذا جاء ذكر كتابة القرآن وتسجيله لم يُذكر إلا هو، وإذا ذكر اسمه الأول عند القرآن لم يحتج بعد ذلك إلى تعريف.

وانظر إلى قوله ﷺ: وليجئ باللوح والدواة، فلم يقل بلوح ودواة: الا يدلك ذلك على أنها معدة مجهزة للكتابة، والتسجيل معهود عليها؟

وزيد نفسه..........

قال: رويدك! ترفق! قد صدقتك! كان النبى يسجل القرآن إملاءً على زيد، ولكنه واحد. فماذا إذا مرض أو سافر أو شغل؟

قلت: أراك تخرج لى من كل جملة سؤالاً. ولكن لا عليك.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «كاتب النبى». حديث رقم (٤٩٩٠).

لم يكن زيد وحده بل كان كتاب الوحى ثلاثة وأربعين كاتباً فى أتم إحصاء لهم، وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة.

فهؤلاء كانوا يكتبون بإملاء النبى عليه الصلاة والسلام مباشرة وبأمره وتحت إشرافه. وهذا غير من كان يكتب من الصحابة لنفسه سماعاً عن النبى عليه الصلاة والسلام أو عن غيره من الصحابة.

ابتسمت له وملت عليه قائلاً: أكاد أسمعك تقول لى: فماذا إذا مرضوا جميعاً أو سافروا؟

فما راعنى إلا أن استلقى بظهره إلى الخلف ضاحكاً ثم قال: إنك لداهية! تسد علىَّ الطريق حتى أقف فلا أسألك. فليكن!

ثم نهض مبتسماً ومال علىَّ قائلاً: قد أرهقتنى. ولكنها الجولة الأولى. فانتظر حتى أتهيأ لك ولن تكون لك الثانية.

ضحكت قائلا: إذن فهيئ عضلاتك جيداً وكن مستعداً للقاء.

* * *

قال بلهفة: اجلس فإنى لأنتظرك على أحر من الجمر.

قلت: ما تأخرت عن موعدى. وأراك احتشدت احتشاداً وتهيأت، وإن كتبك المفتوحة المتراصة لتنبئ بتنقيبك فيها.

قال: دعك من هذا وقل لى: قد حللت وأفضت وفصلت واستشهدت لتثبت لى أن القرآن كان مكتوباً فى حياة النبى ﷺ وكان محفوظاً من المسلمين حوله.

قلت نعم. فماذا فى ذلك؟

قال: فيه أنى أراك لا تختار من الأدلة إلا ما يوافقك ثم تغض الطرف عن غيره، وما كنت أنتظر منك هذا المسلك، وأن ما يكون من همك إلا الانتصار لما تراه ولو على حساب الحقيقة.

قلت: مهلا... مهلا، وقل لى..........

قال محتداً: بل خذ انت. ها هو صحيح البخارى الذى أشبعتنى استدلالاً منه فأقرأ ها هنا.

قلت: لا بأس. ولكن هدئ من ثورتك قليلاً. عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلىَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن. وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن. وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن واجمعه. فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى آخر براءة. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه(١).

قلت: ها قد قرأت! فماذا فى ذلك؟!

ضرب كفاً بكف ثم قال: ماذا فى ذلك؟! أبعد ما قرأت تقول لى: ماذا فى ذلك؟!

عمر قد اقترح على أبى بكر جمع القرآن ثم استدعى أبو بكر زيداً ليكلفه بذلك.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «جمع القرآن» حديث رقم (٤٩٨٦).

قلت : نعم! هذا قد حدث!

قال : إذاً فليس لهذا من معنى إلا أن القرآن لم يكن مجموعاً فى حياة النبى ﷺ ولا مرتباً فى آيات وسور.

قلت : بل كان مرتباً كما جمعه زيد فى آيات وسور على عهد النبى عليه الصلاة والسلام وفى حياته وبإشرافه.

قال : كيف تكون آيات القرآن مرتبة وقد كانت تنزل منجمة مفرقة. فربما نزلت الآية أو الآيات، وبعد زمن يطول أو يقصر تنزل آيات أخرى فيعمدون إلى هذه وتلك ويجعلونها فى سورة واحدة؟ وربما كان بين هذه وتلك آيات أخرى عديدة لا يضعونها معها فى نفس السورة. وإذا كانت الآيات مفرقة فى العسب هذا واللخاف فكيف يعلمون أن مجموعة من الآيات تكون سورة من السور؟

قلت : إنك لتنسى أو تتعمد النسيان! نعم كانت الآيات مكتوبة مفرقة فى العسب واللخاف. ولكن أنسيت أن كثيراً من الصحابة كان يحفظ القرآن كله وعلى رأسهم زيد جامع القرآن نفسه؟

بل وكثير من المسلمين كالقراء الذين قتلوا فى بئر معونة والقراء الذين قتلوا فى اليمامة وكثيرون غيرهم ممن خاف عمر أن يستحر بهم القتل فى المواطن؟

قال : لا لم أنس. ولكنه لا يثبت لى أن هذا الترتيب الذى وضعوه للآيات فى سور أخذوه عن النبى ولم يكن جهداً خالصاً ولا استنباطاً منهم ثم قل لى : ما هذا التضارب؟

قلت : تضارب! أى تضارب تعنى؟

قال : كيف يكون زيد حافظاً للقرآن وتدعى أن كثيراً من الصحابة يحفظونه ثم هم لا يعلمون شيئاً عن هذه الآية التى وجدوها مع أبى خزيمة الأنصارى؟

قلت : رويدك قليلاً! أما أن ترتيب الآيات أخذوه عن النبى ﷺ ولم يأتوا

فيه بشئ من عند أنفسهم فهاك الدليل. رُوى عن ابن عباس أنه لما نزلت ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. قال جبريل للنبى عليه الصلاة والسلام: يا محمد! ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة(١).

فتأمل قليلاً. ينزل جبريل بالآية فيعين للنبى عليه الصلاة والسلام موضعها من السورة ويقوم هو عليه السلام بتعيين مكانها لكاتبه ليضعها فى موضعها. أتريد بعد ذلك دليلاً على الترتيب الدقيق للآيات فى حياة النبى ﷺ وبتوجيهه وإشرافه؟

قال: انتظر! أتظن أنك تفتح كتاباً وتقرأ فيه نصاً ثم تريدنى أن أسلم لك به فى مسألة كهذه؟

قلت: لا. بل هاك شاهد آخر. هذا النسائى بين يديك يروى أنه عليه السلام قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] فى الصبح حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أخذته سعلة فركع(٢).

فقل لى أنت: إذا لم تكن الآيات مرتبة كما هى فى المصحف الذى جمعه زيد بأمر أبى بكر فكيف كان يقرأ النبى عليه السلام من أول السورة إلى منتصفها؟

قال: فأعطنى دليلاً ثالثاً وسوف أقر لك.

قلت: قد رضيت، فاقرأ أنت بنفسك ما رواه الإمام مسلم.

فأخذ يقرأ: عن عمر قال: ما راجعت النبى عليه الصلاة والسلام فى شئ

---

(١) القرطبى جـ ٢ ص ١٢٩٦. طبعة دار الغد العربى.

(٢) رواه النسائى من حديث عبد الله بن السائب فى كتاب «افتتاح الصلاة» تحت عنوان «قراءة بعض السور».

أكثر مما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ لى فيه حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال: ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء(١).

قلت: لو كنت مكانك بعد هذا التحديد الدقيق لمكان الآية فى سورتها لما تبقى فى نفسى شك ولا ريبة اللهم إلا إذا كنت ممن يجعلون الشك مذهباً لهم وديناً لا طريقاً للحق. وما عهدت ذلك فيك.

قال: تريد أن تقطع علىَّ الطريق كعادتك. لكن هيهات! قد أفضت ودللت وما زالت فى طريقك صخرة لا سبيل لاقتلاعها.

قلت: فأين هى هذه الصخرة يا عنيد الرأس؟

قال: الآية المفقودة التى لا يحفظها إلا أبو خزيمة. وتريدنى أن أصدق أن الآيات كانت مرتبة كما هى؟!

قلت: ما عهدت فيك قلة الدقة وعدم الاحتراس وأنت المنهجى الدقيق. خذ هذا صحيح البخارى فأعد قراءة العبارة مرة أخرى.

قال: كما تحب: «حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره». ها قد قرأت.

قلت: إذا فالآية كانت توجد عند أبى خزيمة وحده لا أنه يحفظها وحده.

قال مادا صوته فى سخرية: حقاً! إنك لتعقد الأمور وتحملها فوق ما تطيق. وما أرى فارقاً بين العبارتين.

قلت: بل الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض. ولو كانت كما تقول لجاز الشك. أما وهى كما هى فليس لك ذلك. فما كان زيد يعنى إلا أن الآية لم توجد مكتوبة مسجلة من عين ما كتب بين يدى النبى ﷺ إلا مع أبى خزيمة لا أنه يحفظها وحده، وزيد أولى بحفظها من أبى خزيمة.

قلت: ها! ما زلت ترى أنهم رتبوا الآيات كيفما اتفق لهم؟

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفرائض باب «ميراث الكلالة». حديث رقم (١٦١٧).

قال: فإذا كانت الآيات مرتبة في حياة النبي كما جمعوها في المصحف فلا أقل من أن السور لم تكن مرتبة. فهذا المصحف أمامك رتبت فيه السور المبدوءة بـ ﴿حم﴾ متوالية، وكذلك المبدوءة بـ ﴿طس﴾ و ﴿طسم﴾ متوالية. والسور الطويلة جاءت أولاً تليها القصيرة. فهذا مما لا يدع لعقلي شكاً في أن هذه السور قد رتبت بطريقة عقلية على قاعدة واحدة تبدأ بالطوال فالقصار وتجمع المتشابهات معاً.

قلت: إنك لداهية أريب! أظنك انكببت على المصحف انكباباً تستقرئ سوره وتتفحصها حتى تصل إلى قاعدة تجمعها وتفسر ترتيبها.

قال: وماذا عليَّ في ذلك؟ وما أراك تفعل أنت إلا ذلك! ولكن ها قد أوقعت بك هذه المرة.

ابتسمت قائلاً: ولا هذه المرة أيضاً. خانك استقراؤك وغلبتك عجلتك.

فهاك المصحف وفسر لي: إذا كان الذين جمعوا القرآن وكتبوه في المصحف اجتهدوا فوضعوا الطواسين معاً ووضعوا الحواميم معاً؛ تفكر أنت وقل لي: ما الذي منعهم أن يجعلوا المسبحات البادئة بتسبيح الله معاً كالإسراء والحديد والحشر والصف والأعلى؟

قال: هذا واضح! وما ذلك إلا لأنهم كانوا يرتبون مراعين القاعدة الثانية: الطول.

قلت: ولا هذه أيضاً. فإذا كان الطول هو ضابطهم لكان الأولى أن تأتي ﴿طسم﴾ القصص قبل ﴿طس﴾ النمل، والأولى أطول بِعَدٍّ كلماتها من الثانية، ومع ذلك فهي بعدها في الترتيب.

خذها نصيحة مني. أعد استقراءك مرة أخرى وتأمل وتمهل، وإني واثق أنك لن تجد قاعدة تظن أن سور القرآن رتبت عليها إلا وجدت ما يخالفها.

قال: فليكن! ليست هناك قاعدة مطردة رتبت سور القرآن عليها. ولكن ذلك لا يثبت أن النبي نفسه هو الذي رتبها هكذا.

قلت: يعجبنى ذهنك المرتب وعقلك اليقظ الذى لا يسلم إلا بعد بينة.

قال: فما هى البينة؟

قلت: هاك ما رواه الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى قال: كنت فى الوفد الذين أتوا النبى ﷺ وأسلموا من ثقيف... فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من ﴿ق﴾ حتى يختم[1].

هيه! ما رأيك؟

قال: لست بحاجة إلى أن أذكر أن دليلاً لا يكفينى ولا يشفى غليلى!

قلت: بل وثان وثالث. فهذا البخارى يروى عن عائشة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يفعل ذلك ثلاث مرات[2].

أليس هذا ترتيب المصحف كما ترى؟

وهاك الدليل الثالث الذى أرى عينيك تسألنى عنه ولسانك يكاد يطلبه: روى ابن أبى شيبة فى مصنفه أنه عليه السلام قرأ بالسبع الطوال فى ركعة. فها هو أمامك ترتيب من أول القرآن وترتيب من آخره لا يخالف ما جمعوه فى شئ. أيكفيك هذا أم تريد مزيداً؟

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده من «حديث أوس بن أوس الثقفى» حديث رقم (١٥٧٣٣) جـ ٤ ص ٩ من الطبعة الميمنية المرتب عليها المعجم المفهرس.

(٢) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «فضل المعوذات» حديث رقم (٥٠١٧).

قال: أوتظن الأمر بهذه السهولة؟

ثم تركني وأخذ يقلب في رفوف مكتبته ثم أخرج كتابًا وفتحه وقال لي: لن أسألك ولكن اقرأ أنت بنفسك من ها هنا.

فقرأت: قال ابن أبي أشتة في كتاب المصاحف: هذا تاليف مصحف أُبي: الحمد، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة، ثم يونس، ثم الأنفال، ثم...

قال مبتهجًا: حسبك! قف كما أنت واقرأ لي أيضا هنا.

قلت: كما تريد. وقال: تاليف مصحف عبد الله بن مسعود: الطول: البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس والتين وبراءة والنحل وهود ويوسف والكهف و....

قال برنة سخرية وابتسامة فرحة: ما تقول أنت الآن؟ لو كنت مكانك لما حرت جوابًا ولسلمت واستسلمت.

فهذا ترتيب السور في مصحف أُبي بن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود - وهما مَن هما - لا يتفق مع ترتيب المصحف الذى جمعه زيد فى شئ. أما آن لك أن تعترف أن هذا الترتيب منهم إنما كان رأياً رأوه وطريقة انتهجوها من عند أنفسهم؟

ضحكت قائلاً: لا. بل ......

فانتفض محتداً: أراك تعاند وتكابر ولا تريد أن تسلم بشئ. أما إني قد التزمت وعدى معك وأقررت لك بما ليس فيه شك ولا ريب. لكنك تأبى إلا الانتصار دائما وكأنه يعز عليك أن يعلو ما أراه فوق ما تراه. أفترى ذلك من الإنصاف والحق فى شئ؟

قلت: لا تغضب ولا تحمل عليّ! فإني ما أريد الانتصار لنفسي، وإنه لحبيب إليَّ أن يكون ما تقوله سديداً وما تراه رشيداً. ولكن الحق فوق ما أحب.

فهدأ نفسك وكن - كما عهدتك - صبوراً لا تبالى بالحق أنى وجدته أن تأخذ به .

قال : قد هدأت . فأين هو الحق؟

قلت : أجبنى أنت! فى كم سنة نزل القرآن؟

قال : فى بضع وعشرين سنة .

قلت : إذاً فلم يكن كتاباً يُملى فى مدة وجيزة ليفرغ منه كاتبوه مرتباً كما يملى عليهم؟

قال : سأجاريك فيما تقول .

قلت : هؤلاء الصحابة، ألم تقل من قبل إن الحياة كانت تموج بهم ومن حولهم : غزوات وسرايا وبعوث وإقامة مجتمع ودعوة كل منهم أهله وعشيرته؟

قال : بلى! قلت هذا .

قلت : فهذا الصحابى أو ذاك كان يأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام فتنزل السورة فيحفظها ويكتبها عنده، ثم يخرج فى الغزو أو فى بعث أو لقبيلته وعشيرته .

قال : ماذا فى ذلك؟

قلت : هذا الصحابى إذا مكث فيما ذهب إليه أسابيع أو شهوراً ثم عاد أيكون القرآن قد توقف لا ينزل حتى يعود هو؟

قال : لا بل يتوالى وما يتوقف .

قلت : فلو كنت مكان الصحابى الذى عاد ورأيت حين عودتك سورة تنزل فماذا تفعل؟

قال : كنت أكتبها وأسجلها .

قلت : نعم! فأنت الآن قد كتبتها وسجلتها فى مصحفك أو كتابك الذى

تكتب فيه. فماذا عن السور التى فاتتك فى الشهور التى قضيتها بعيداً عن مكان الوحى؟

قال: أبحث عنها عند غيرى.

قلت: ثم؟

قال: أكتبها وأسجلها.

قلت: ها قد حُلت المسألة دون أن تغضب وأنت الذى حللتها لا أنا. فأنت كتبت سورة وخرجت شهوراً ثم عدت فوجدت سورة تنزل حال عودتك فكتبتها، ثم تعقبت ما فاتك فكتبته. وغيرك خرج فى زمن آخر، وغيركما كثير. وكلٌ يكتب ما يجده. فكيف يتفق إذن ترتيب؟ إن البديهة ألا يتفق. أليس كذلك؟

قال: بلى! لكن مازال الحل بعيداً. فإنك كعادتك تفيض فى نصف المسألة وتغمض عينيك عن نصفها الآخر. فإذا كان بعض الصحابة يفارقون النبى ويبتعدون عنه ثم يعودون، فهناك غيرهم لا يفارقونه فى سفر ولا حضر، فى حِل أو ترحال. فلماذا اختلفت مصاحف هؤلاء أيضا؟

قلت: نعم. هؤلاء كانوا يلازمون النبى عليه الصلاة والسلام ويكتبون ما ينزل سورة سورة لا تفوتهم سورة. فانظر أنت فى هذه الحالة كيف يكون ترتيب ما يكتبونه؟

قال: يكون على ترتيب نزول السور. هذه بديهة لا تستحق أن تسألنى عنها.

قلت: إذاً فقد حللت انت نصف المسألة الآخر. قل لى: أترتيب المصحف كما جُمع كترتيب النزول؟

قال: لا.

قلت: ها قد وصلت. فترتيب النزول إنما جاء حسب الحوادث والوقائع

تعليقاً، أو بياناً، أو جاء حسب الاستفهام والتساؤل رداً وإجابة. فهو شئ وترتيب المصحف شئ آخر.

قال: هذا عجيب!

قلت: وما العجيب؟

قال: إذا كان الصحابة الملازمون للنبى رتبوا السور كما نزلت، ومن لم يكن ملازماً رتبها كيفما اتفق له، فمن أين جاء زيد بترتيب السور على النحو الذى فعله فى المصحف؟

قلت: من النبى ﷺ نفسه.

قال: إنك لتجيب وكأن زيداً كان يسمع وحده ويكتب وحده.

قلت: لا. ولكنه كان ألزم كتاب الوحى للنبى عليه الصلاة والسلام وأكثرهم تحرياً فى الكتابة وأوثقهم عند النبى فى التسجيل. أما ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام حين أراد أن يتعلم أحد أصحابه العبرية ليأمن شر اليهود على القرآن لم يختر لذلك إلا زيداً؟

قال: وما علاقة هذا بذاك؟

قلت: ألا يدلك ذلك على مبلغ ثقة النبى عليه الصلاة والسلام فيه، ويدلك على ارتباط كتابة القرآن والمحافظة عليه وتأمينه به؟

قال: ما زلت لم تقل لى: من أين جاء زيد بهذا الترتيب؟

قلت: من النبى ﷺ. اقرأ أنت فى البخارى.

قال: عن أبى هريرة قال: كان يُعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض. وكان يعتكف فى العام عشراً فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض[1].

قلت: فكما ترى كان النبى عليه الصلاة والسلام يراجع القرآن على جبريل

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن». حديث رقم (٤٩٩٨).

بترتيبه الذى أراده الله له وكما هو محفوظ فى اللوح المحفوظ، ثم بعد ذلك يعرضه النبى ﷺ على زيد، ويراجعه زيد عليه كما هو فى ترتيبه وكما أخبر زيد بذلك نفسه.

فزيد – كما ترى – ما زاد على أن رتب القرآن فى المصحف كما سمعه من النبى عليه الصلاة والسلام فى العام الذى توفى فيه وقد اكتمل القرآن واستقرت نجومه فى مكانها المراد لها.

قال: إذاً فآيات القرآن مرتبة كما جُمعت فى حياة النبى؟

قلت: نعم.

قال: وكذلك السور؟

قلت: وهذه أيضا نعم.

قال: أعطنى عقلك وقل لى: إذا كانت الآيات مرتبة، والسور مرتبة فما هو جمع القرآن هذا الذى تهيبه أبو بكر واستثقله زيد حتى يرى نقل الجبال أهون عليه منه؟

قلت: هب أنك كاتب مشهور طبق اسمه وأدبه الآفاق.

ابتسم قائلاً: ثم ماذا؟

قلت: ثم نشرت صحيفة كتاباً لك فى فصول متتابعة، كل أسبوع أو كل شهر فصلاً. وانتهى كتابك فاستغرق أعداداً كثيرة من الصحيفة.

قال: ثم؟

قلت: ثم لنعقد المسألة قليلاً. فهب أنك ممن تتخاطفه الصحف جميعاً، وأن مجموعة صحف فى أماكن مختلفة رأت أن تنشر كل منها فصلاً من كتابك دون بقية الفصول ثم انتهى الكتاب ومر زمان قل أو كثر. ماذا تفعل؟

قال: لا أظنك بحاجة إلى إجابة. أبادر من فورى إلى دار نشر تجمع الفصول المتناثرة لتكون كتاباً واحداً ليسهل قراءته وترويجه.

قلت: وهناك ما هو أهم من ذلك.

قال : وما هو؟

قلت : أن يحفظ الكتاب الواحد ما أنفقت من جهد فلا يضيع فى بطون الصحف ثم يُفقد، ويحتاج من يطالعه إلى أن يبحث عن هذه الفصول المتناثرة فى هذه الصحف المتباعدة فى هذه الأماكن المتنائية.

قال : هو ذاك.

قلت : فإذا جمعت دار النشر كتابك وضمت فصوله، أتكون قد زادت فى كتابك شيئاً أو نقصت منه أو غيرت فى نسبته إليك؟

قال : لا.

قلت : فهذا عين ما فعله زيد لم يزد عليه ولم ينقص. القرآن كان محفوظاً ومكتوباً فى رقاع ولخاف وعسب متفرقة، فما كان من زيد إلا أن جمع هذه المتفرقات وضمها معاً كما يحفظ هو ويحفظ غيره حتى يصير كتاباً واحداً ليسهل حفظه وقراءته، وكى يحفظ هذه المتفرقات التى هى لابد ضائعة مع الوقت. وإن لم تضع فهى كالفصول المتناثرة فى بطون الصحف من كتابك المزعوم.

قال : أراك تسوقنى بأمثلتك! لكن أفترى رجلاً واحداً هو زيد يكفى وحده للقيام بهذه المهمة العسيرة والخطيرة، ومهما كانت الثقة بقدره وعلمه؟

قلت : فإنه لم يكن وحده!

قال : قد عدت للمناورة مرة أخرى. إنك لا تزال تحدثنى عن زيد الذى شهد العرض الأخير للقرآن، وعلم الترتيب المفروض له، ثم بعد ذلك تقول لى : لم يكن وحده!

قلت : بلى لم يكن وحده. فإن أبا بكر قال له ولعمر : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شئ من كتاب الله فاكتباه.

قال : وإذا كان رجل واحد لا يكفى أفتظن يكفى رجلان؟ ما أراك فعلت شيئاً.

قلت: فكيف يكونان رجلين فقط وأبو بكر يقول: «من جاء كما بشاهدين»؟ فكل من جاء بآية وشهد عليها فهو شريك فى الجمع.

ثم ألا ترى أنهم - إمعاناً فى الحيطة وطلبا للنهاية فى التوثيق - لم يأخذا بآية إلا أن تكون مكتوبة أمامهم على شئ ومسجلة بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام، ثم يكون عليها شاهدان. فكتابة الآية الواحدة يتطلب دليلاً مكتوباً وحفظ شاهدين.

قلت مبتسماً: ألست ترى أن جمع القرآن بهذه الطريقة كان عملاً فذاً فى تاريخ توثيق وتدوين الكتب لا يدانيه ولا يقاربه كتاب آخر، بله يماثله.

قال: أراك ستدخل فى حديث القصائد والخطب العصماء ومازلنا لم ننته بعد. فإذا كنت قد وصلت فى حديث توثيق القرآن وجمعه إلى نهايته فمازال حديث الإحراق باقياً، وإذا كنت تجيد المراوغة والنفاذ من المزالق فما أرى لك هذه المرة منفذاً.

قلت: فما حديث الإحراق هذا؟

قال وهو يتثاءب: لا تكن عجولاً. إن له لمقاماً آخر.

* * *

قلت: اجلس وأخبرنى: ما حديث الإحراق هذا الذى توعدتنى به؟

قال: إنك كدأبك دائماً تنهى المسألة حيث تريد انت أن تنتهى لا كما هى على حقيقتها وتظن أنى سأسلم لك هكذا؟ هات صحيح البخارى.

قلت: هاك هو.

وأخذ يقلب فيه وهو يقول: قد أفضت وأطلت فى توثيق القرآن وجمعه فى مصحف واحد وحشدت لى الشهود والأدلة، ثم وقفت وكأن المسألة انتهت وأصبحت قضاءً مبرماً. ثم توقف فجأة وقال: انظر فلتقرأ أنت لا أنا.

قلت: كما تحب. «عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان

وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى نسخوا الصحف فى المصاحف ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[1].

قلت: ها قد قرأت.

قال: فما تقول؟ ما أظن لك جواباً!

قلت: فلنتأمل المسألة بروية. تعلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف!

فما راعنى إلا أن مد يديه أمامه وقال صائحا: قف! مكانك! لا تتحرك! هذه مسألة أخرى لا أفهم كيف تكون، ولا أجدها مستساغة فى العقل. إذا كان القرآن نصاً ثابتاً ولم يتدخل فيه بشر بتبديل ولا تحريف، وتوثيقه لاشك فيه كما تقول، فلماذا يقرأ البعض بطريقة ويقرأ آخرون بأخرى؟ وكيف تريدنى أن أصدق أن هذه وتلك شئ واحد؟ إن ذلك لمما يعسر فهمه على اى عقل.

قلت: هون عليك ولنعد إلى البداية وستجد أن الأمر واضح لا غموض فيه، وأن ليس فيه شئ يعسر فهمه أو قبوله فى عقلك.

قال: وما هى هذه البداية؟

قلت: أما أن القرآن نزل على سبعة أحرف فهذا مما لا شك فيه. خذ أنت البخارى واقرأ كما جعلتنى أقرأ.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «جمع القرآن» حديث رقم (٤٩٨٧).

قال : واحدة بواحدة. لا بأس! «عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف(١)».

قلت : وأزيدك أنا : إن حديث الأحرف السبعة روى عن واحد وعشرين صحابياً. فلاشك إذاً فى ذلك، أم تظن أن هؤلاء جميعاً - على شرفهم - تواطئوا على ذلك ومع عدم حاجتهم إليه أو نسوا جميعاً. ذلك هو ما لا يسيغه عقل.

قال : ما زال الأمر عسيراً. ودع عنك تسليمك المطلق هذا وتأمل معى : إنى لأرى الأولى - فى ميزان العقل - أن يكون القرآن كلاماً واحداً لا اختلاف فيه، وما حدث فيه من اختلاف إنما كان لاختلاف لهجات العرب ولغات قبائلها. فكلٌ قرأ كما يعرف وكما يطيق لسانه، وليس فى الأمر توقيف ولا غيره.

قلت : ألا ترى أنك أنت الذى تفعل ما تتهمنى به وترسل القول بلا بينة. وما أظنك إلا توافقنى أن أمراً بهذه الخطورة لا يثبت بالتخمين.

قال : رويدك! هاك الدليل. وما راعنى إلا أن أخرج ورقة من جيبه ثم قال : اقرأ.

ابتسمت قائلاً : يا لك من أريب! لقد أعددت للأمر عدته واستدرجتنى إلى هذا الحديث.

روى البخارى أن عمر بن الخطاب قال : «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت : كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «أنزل القرآن على سبعة أحرف». حديث رقم (٤٩٩١).

بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها. فقال رسول الله ﷺ: أرسله. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التى أقرأنى. فقال رسول الله ﷺ: وكذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه(١).

قال: أيعقل أن يختلف اثنان فى قراءة نص حتى يوشكا على الاقتتال، ثم يكون ذلك النص واحداً ويقال إنه وارد من السماء هكذا؟ ما أرى كما قلت لك إلا أن هذا الاختلاف نشأ عن اختلاف لهجات القبائل ثم توارثه من بعدهم.

قلت: تمهل وترفق قليلاً! فما أرى إلا أن عجلتك ولهفتك إلى إثبات ما يعتمل فى نفسك جعلتك تخطئ حتى تأتى بالدليل يشهد عليك لا لك.

قال: عليَّ لا لى؟!

قلت: أولا: أما ترى أن عمر وهشام حين اختلفا ذهبا إلى النبى عليه الصلاة والسلام فاقر كلا منهما على قراءته. والنبى هو المرجع عند الاختلاف، وهو صاحب الوحى والحافظ له. ولو كان الاختلاف ناشئاً فقط عن ألسنة ولهجات وليس مأذوناً به من السماء لخطّأ أحدهما - لا محالة - وصوب الآخر. أما أنه صوب الاثنين فلاشك فى أن اختلاف القراءة بإذن منه ﷺ، وبإذن جبريل عن ربه. أما ترى أنت أن الأمر توقيف لا شك فيه؟

ثانيا: لو كان الأمر فى اختلاف القراءة اختلاف لهجات القبائل، لكان الأولى بعمر وهشام ألا يختلفا وكلاهما قرشى ويتكلم لغة واحدة ولهجة واحدة.

ألا يدلك ذلك على أن النبى ﷺ هو الذى أقرأ كلاً منهما بقراءته رغم أنهما من قبيلة واحدة؟ ويؤكد لك أن أحداً منهما لم يأت بالقراءة من عند نفسه ولا من لُكنة لسانه، وإلا لاتفقا معاً وما كان بينهما من اختلاف.

قال: فإذا لم تكن هذه الأحرف هى لغات العرب ولحون قبائلها فماذا تكون؟

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «فضائل القرآن» باب «أنزل القرآن على سبعة أحرف». حديث رقم (٤٩٩٢).

قلت: بل هى لغات العرب ولحون قبائلها.

قال: إن أمرك لعجيب! إنك لم تكد تنتهى من قولك: إن هذه الأحرف موقوفة عن النبى ماذون بها منه ولا دخل لاختلاف ألسنة العرب فيها حتى عدت لتقول لى: بل هى لغات العرب ولحون قبائلها! وما أراك تثبت على قول واحد ولا تكف عن المداورة والمراوغة.

قلت: بل انتظر قليلاً! فإن عجلتك دائما تسبقك، فإنى لم أقل إن هذه الأحرف لم تكن لغات العرب وألسنتها، وإنما كان ما قلته إن هذا الاختلاف لم ينشئه اختلاف ألسنة العرب دون ضابط من النبى عليه الصلاة والسلام ومن الوحى نفسه.

وإنما هي لغات العرب نزل بها القرآن على اختلافها من السماء، ولم يأت القرآن موحداً ثم فككته وفرقته ألسنة العرب.

ألست ترى أن الفرق بين الأمرين دقيق لكنه خطير واسع البون كالمسافة بين السماء ووحيها وبين الأرض وتباين ألسنة أهلها؟

قال: ولماذا كل هذا العنت؟ أما كان الأجدر والأحكم أن يكون القرآن واحداً لا اختلاف فيه ولا أحرف ولا ألسنة؟

قلت: بل الأجدر والأحكم أن يكون هكذا. فقل لى: أئذا كنت تريد القرآن بلغة واحدة لا يحتمل غيرها فبأيها كنت تريده؟

سكت قليلا ثم قال: فلنقل بلسان قريش.

قلت: هذا إذا كنت قرشياً. فماذا لو لم تكن قرشياً؟

فتأمل نفسك هذيلياً أو قحطانياً أو ... أو، أكنت تسلم للقرآن ولو صدقته أم تقف عزة قبيلتك وولاؤك لها حائلاً بينك وبينها وبين القرآن.

قال: على ما أعلم من أنفة العرب وحميتهم وقبائليتهم التي تكاد تكون لغوية الحدود لأحجمت وقبيلتى وما أقررت لقريش وحدها بهذا الشرف.

قلت: فماذا لو كرم القرآن قبيلتك فنزل منه ما هو بلحنها ولغتها وما يكاد لا يعرفه من العرب غيرها.

قال: إذاً لتاهت قبيلتي على العرب بنزول وحي السماء بلحنها ولغتها.

قلت: وأيضاً! لانفتحت له قلوبكم وأيقنتم إيقاناً لا ريب فيه أنه من السماء. وفوق ذلك لامتزجت ألسنة العرب جميعاً وصارت لساناً واحداً، ولصارت لكل قبائل العرب جنسية لغوية عامة تجمعهم فتوحد ألسنتهم ونفوسهم وتألف قلوبهم وتنزع عنهم أنفة وغارات الجاهلية التي أقررت أنت نفسك أنها لغوية المنشأ والحدود.

قال: أراك تعطيني درساً عن أثر اختلاف اللغات فى وضع الحدود والفواصل بين المجتمعات. فإني لأعلم ذلك ولست بحاجة لدرسك لأعرف أن حدود الأمم والشعوب هى حدود لغاتها، وأن مناطق التمايز اللغوى هى مناطق التمايز النفسي والاجتماعي.

قلت: فإليك الأمثلة التى تحبها لتدلك على دور اختلاف القراءات والحروف فى امتزاج العرب اللغوى والنفسى. روى عن على بن أبى طالب أنه قال: نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر، أى: همز. ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمز على النبى ما همزنا.

قال: فلنقل: إن هذه الأحرف واللغات هى توحيد لقبائل العرب ونفوسها فى وحدة لغوية عامة حدها القرآن نفسه. لكن ذلك يناقض من جهة أخرى إعجاز القرآن الذى يقولون ويفيضون فى أنه لغوى فى المقام الأول. أيكون الإعجاز بحرف وقراءة أم بغيرها؟ فإذا كان فى أحدها فكيف يكون فى الأخرى؟

قلت: بل الإعجاز فى هذه وتلك والإعجاز فيهما معاً. فها هى كتب التاريخ أمامك وفيها كل ما قالوه فى القرآن، هل علمت أحداً من العرب ادعى نقص القرآن باختلاف قراءاته؟ ولو وجدوا ذلك لما سكتوا عنه وهم مترصدون له، بل لاهتبلوه وأشاعوه حتى يستطير فى المشارق والمغارب.

ألا ترى أن القرآن كأنه يقول لهم: هذه قراءة وهذه أخرى وهذه وهذه، فاختاروا أيها وائتوا بمثلها إن استطعتم. أما ترى أن هذا أمعن فى التحدى لهم وأنكى عليهم وأبين فى إظهار عجزهم وأفضح لهم فى العالمين؟

قال: فإنى معك إلى النهاية! إن ما ذكرته لصحيح إذا كان اختلاف هذه الأحرف والقراءات مقتصراً على وجوه الأداء وكيفية النطق وما لا يختلف فيه المعنى كتحقيق الهمزة وتخفيفها، وكالفتح والإمالة والتقليل، وكالتفخيم والترقيق، وكالمد والقصر. فما قولك فى الاختلاف الذى يكون فى الكلمة غير الأخرى فيتغير المعنى ويتضارب...

قاطعته قائلا: مهلا.. مهلا! أعلمك واسع الإطلاع تضرب فى كل معرفة بسهم وسهام. ولكن لك عندى شهادة، إنى لم أكن أعلمك واسع الاطلاع إلى هذا الحد، تدقق فى كل مسألة حتى تبدو وكأنك من خواصها.

قال مبتسماً: أتظن أن مجاملتك ستسد علىَّ الطريق كما تفعل دائماً. هيهات! هيهات! ماذا عن الكلمة تكون غير الأخرى؟ أليس هذا مما يجعل المعنى مختلفاً بل متضارباً. وإذا به يخرج ورقة من جيبه ويفردها ثم يقول: كيف تكون ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦] مثل ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾؟

ألا تخالف ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ﴿ نُنْشِرُها ﴾؟ وماذا عن ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ: ١٩] و﴿ رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾؟

قلت: يالك من داهية! لقد أخذت للأمر أهبته وأعددت له عدته من قبل حتى تفاجئنى كل حين بورقة تخرجها من جيبك كالحواة.

على أن ما جئت به لا يستدل لك بشئ على ما تقوله! فإذا كان الإعجاز لا يختلف بوجوه القراءة والأداء التى لا يتغير بها المعنى كما ذكرت أنت نفسك، فإن الإعجاز ليكون بهذا الاختلاف الذى يتغير فيه المعنى أتم وأكمل.

قال: أتم وأكمل؟! إنك لتشقق الكلام وتجمله وتدور حول الكلمات

وتزينها وما يجدينى ذلك. دع عنك المدائح وقل لى: أما تقتضى البلاغة والكمال اللغوى أن توجد كلمة واحدة لا تغنى عنها غيرها فى مقامها ولا تقوم بمعناها؟ فكيف تكون ﴿ تَبَيَّنُوا ﴾ كـ﴿ تَثَبَّتُوا ﴾؟ فإما أن تكون هذه أو تكون تلك، أما هما معا فلا أظن ذلك إلا من اختلاف الرواة.

انظر إلى الكلمتين. إنك إن نزعت عنهما النقط تشابهتا حتى صارتا كالكلمة الواحدة. واغلب الظن عندى أن من كتبوها وجدوها هكذا، فاستشكلت عليهم هل هى ﴿ تَبَيَّنُوا ﴾ أم ﴿ تَثَبَّتُوا ﴾، فجعلوها هكذا مرة وهكذا مرة. أما ترى أن هذا هو الأصوب فى العقل وهو الأقرب للمنطق والمعقول؟

قلت: على رسلك! ولنفكك المسألة خطوة خطوة.

قال وكأنه يستسلم: لا أدرى كيف ستحل مشكلة كهذه بعيداً عن وسائلك البهلوانية؟

قلت: أما أنهم وجدوها خالية من النقط فحاروا فيها فنقطوها وكتبوها هكذا وهكذا، فلا.

قال: وَلِمَ لا؟

قلت: لأنك بعجلتك نسيت ما قطعنا الساعات الطوال فى التنقيب عنه والحديث فيه. أنسيت أن القرآن لا يُعول فيه على الكتابة فقط، ولم يقتصر أحد منذ جمع زيد القرآن بأمر أبى بكر على مجرد التسجيل والكتابة؟ أما تذكر الشاهدين اللذين اشترطهما زيد على كل آية ليسجلها ويكتبها، وأنه لم يكن يكتب شيئاً إلا ان يستوثق انه موصول إلى النبى عليه الصلاة والسلام مأخوذ عنه؟

فها أنت ترى أن الأخذ بالقرآن وبوجه القراءة لا يكون إلا باستفاضتها سماعاً ورواية من الثقات المأمونين، لا بمجرد كلمات مكتوبة متروكة لاجتهاد كل قارئ وما يراه.

قال: فإذا كانت هذه القراءات والأحرف جاءت كما هى تواتراً عن النبى بالسماع والرواية فماذا عن المعنى؟ كيف يكون الإعجاز؟ فإنه إن كان بالأولى لم يكن بالثانية، وإن كان بالثانية لم يكن بالأولى.

قلت: بل الإعجاز بهما معاً.

قال: ها قد عدت إلى المراوغة! أما تقولون إن الإعجاز يكون بالكلمة فى موضعها لا يغنى عنها سواها؟

قلت: بلى!

قال: كيف إذاً؟

قلت: أنت رجل طُلعة عالم بخبايا النفس وشئونها، وأنت بعد ذلك محبب ألوف، فلو جاءك رجل يستنصحك ويسترشد برأيك وقال لك: إن صديقى فلاناً أتانى فقال لى: إن صديقى الآخر علاناً يقول كذا أو كذا، وما علمته من قبل إلا مخلصاً وفياً، وإنى لحزين أشد الحزن فما تشير على؟ ماذا كنت تقول وما نصيحتك له؟

قال: ما أدرى ما صلة ذلك بما نحن فيه، ولكن أمرى إلى الله. كنت أقول له: قبل أن تحزن وتغضب اذهب إلى صديقك علان هذا فاعرض عليه الأمر وتبين منه حقيقة ما حدث.

قلت: إنك لرائع! فإذا ذهب الرجل إلى صديقه علان وعرض عليه الأمر فقال: ما حدث ذلك منى وما قلته وإنك لتعلم محبتى لك ومنزلتك عندى.

فإذا قال لك الرجل: إنى لا أدرى ما أفعل مع صديقى فلان ولا أدرى لماذا اختلق هذا الأمر، فلو أنك رجل منصف حكيم - كما أعلمك - بم كنت تشير عليه؟

قال: لا أدرى متى تنتهى هذه الألغاز؟ حسناً! كنت أقول له: إن واحداً من صديقيك كاذب لا محالة فتأكد من ذلك بالشهود يشهدون لهذا أو لذاك.

قلت : بورك فيك من حكيم!

قال : أراك تسخر منى .

قلت : بل إنك حكيم جد حكيم.

قال : مازلت لا أفهم ما هذه الأحجية وما سببها بما نحن فيه؟

قلت : بل هى عين ما نحن فيه . فانظر: إن القرآن يقول : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : ٦] فماذا؟

قال : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أو ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾ .

قلت : فلنجعلها واحدة واحدة .

قال : فليكن! ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾

قلت : أى فتحروا الأمر من الجهة الأخرى ولا تقتصروا على سماع طرف واحد فى الدعوى، واستوضحوا كل ما حدث وابحثوا عن تفاصيله فربما قيل لكم شئ وخُبأت أشياء . تماما كما نصحت الرجل بالتبين والتحرى .

قال : فماذا عن ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾؟

قلت : تماماً كما طلبت أنت من صديقك أن يتأكد بالشهود على صدق هذا أو ذاك . فالقرآن يقول : إذا تبينتم وتحريتم الأمر واستقصيتموه من جميع جوانبه وأطرافه ، فتأكدوا وتثبتوا من صحة جانب من هذه الجوانب بالدلائل والشهود .

قال : فهذه أحجيتك؟

قلت : نعم! أتراك لو نصحت الرجل بأحد الأمرين دون الآخر أتكون نصيحتك كاملة عادلة؟ أو لست ترى الآن أن الإعجاز بالكلمتين أتم وأكمل؟

فقل لى : لو قال ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فقط؛ أما جاز أن يأتى مستدرك فيقول : إن أمراً كهذا بابه التثبت والتأكد فما فائدة البيان إن لم يكن هناك تأكد منه؟

قال : بلى !

قلت: فلو قال: ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾؛ أما جاز أن يأتي بليغ فيقول: وهل يكون التثبت إلا بعد معرفة الوقائع كاملة وتبيانها والإلمام بكل جوانبها؟

قال: أراك تريد أن تسوقني بأحجيياتك وألغازك إلى حيث تريد.

قلت: فإنك تعي ذلك وتدركه. فلو كان ما أقوله مجافياً للصواب أو تجد فيه شيئاً فلا تسايرني.

قال: هيه! أكمل.

قلت: فلو جاء القرآن وقال ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وحدها أو ﴿ فَتَثَبَّتُوا ﴾ وحدها، أما جاز أن يأتي ضليع مدقق مثلك يقف عند كل كلمة لينقدها فيقول: إن البلاغة والتمام والكمال لا يكون إلا بتبين الأمر والتثبت منه في آن واحد.

قال: قد سلمت! وها أنا ذا أرفع يديّ

قلت: إن تسليمك هذا لمما يزيدني إعجاباً بك وتقديراً لك.

فها أنت ترى أن القراءتين تممتا المعنى، وأن الكلمة بوجهيها تشابكت أطرافها معاً والتحمت حتى صارت سواراً محكماً وحلقة منيعة تسور المعنى وتحيطه من كل جانب، فلا يجد أحد إلى النفاذ إليه سبيلاً ولا إلى نقده طريقاً. وهما بعد ذلك كلمتان يسيرتان تحتويان كل هذه الأحجية الطويلة العريضة كما تسميها أنت. أليس هذا هو عين الإعجاز؟

أما عن ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ و﴿ نُنشِرُهَا ﴾، و﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ ﴾ و﴿ رَبُّنَا بَاعَدَ ﴾

قاطعني قائلا: ترفق ترفق! ما إن قلت سلمت حتى وجدتها فرصة سانحة تريد أن تهتبلها فلا تتركها! دعك من هذا! لقد خضت بي بحراً مضطرباً ولجة عميقة. فلنعد إلى الساحل.

قلت: عدت إلى عنادك ثانية. فأين تريد أن ترسو؟

قال: إذا كانت هذه الأحرف والقراءات واردة عن النبي، فلماذا فزع حذيفة من اختلاف قراءة العراقيين والشاميين؟ ولماذا أمر عثمان بنسخ المصحف؟

ولماذا قال لهم: لأنه نزل بلسان قريش؟ فكيف تكون القراءات متواترة عن النبى ثم يقول خليفته: إنه نزل بلسان قريش فقط؟

قلت: دائما تتعجل وتتعجلنى معك. اختر واحدة منها لنبدأ بها.

قال: كما تريد. فلماذا فزع حذيفة ونسخ عثمان المصاحف إذا كانت قراءات العراقيين والشاميين واردة عن النبى؟

قلت: ومن قال إنها واردة عن النبى عليه الصلاة والسلام؟

قال: عدت إلى مراوغتك مرة أخرى. تقول القول ثم لا تلبث أن تعود فيه بعد أن تفرغ منه!

قلت: أمهلنى! كم كان حجم الدولة الإسلامية فى عهد عثمان؟

قال: واسعة شاسعة.

قلت: أكل من فيها كان عربياً قُحاً خالصاً؟

قال: لا. بل فيهم العرب الخلص الخارجون من الجزيرة، وفيهم غيرهم من أهل البلاد المفتوحة.

قلت: أكل هؤلاء يحسن اللغة العربية كأهلها؟

قال: هذا سؤال ساذج! فكيف يحسنونها جميعاً وهم لم يعرفوها إلا من سنين قلائل.

قلت: فإذا هم تكلموا العربية أيتكلمونها فصيحة أم بلُكنتهم وعُجمة ألسنتهم وثقل العربية عليها؟

قال مبتسماً: يتكلمونها بما تريدنى أن أقوله.

قلت: وهكذا كانوا يقرءون القرآن بلُكنتهم وعُجمة لسانهم وثقل العربية عليه.

قال: وماذا بعد ذلك؟

قلت : قل لى : إذا قرأ القرآن إنجليزى وفرنسى وكلاهما لا يحسن العربية إلا قليلاً، أتكون لُكنة وانحراف لسان هذا فى العربية كذاك؟

قال : لا . فكل منهما له طريقة فى النطق وإخراج الحروف، وقدرته على تحديدها تنطبع على قراءته .

قلت : وكذلك ما حدث . فكل قوم قرأوا حسب ما يطيق لسانهم . وحين التقوا حسب كل منهم أن صورة لسانه المعوج على القراءة هى القرآن لا غيرها، فاختلفوا وتقاتلوا، ففزع حذيفة وأراد عثمان أن ينسخ لهم نُسخاً تكون فى المدن الكبرى يرجعون إليها ويضبط كل قوم قراءتهم عليها .

قال : أتظن أنك ستلهينى بأمثلتك هذه . فإذا كان فى البلاد المفتوحة من لا يحسن العربية حتى لينحرف لسانه فى القرآن ويقرأه بصورته، فإن منهم أهل العربية ومنهم من أجادها حتى صار كأهلها . وهؤلاء لم يكونوا لتخطئ ألسنتهم فى قراءة القرآن ولا غيره .

فكيف يختلف هؤلاء أيضاً إلى حد الاقتتال إذا كان كلٌ منهم يقرأ بقراءة متواترة؟

قلت : إنك لرجل سمح كريم . وما أدرى كيف أشكرك! فدائما ما تعطيني السؤال وفيه الإجابة عليه . نظر إلىّ مستغرباً متشككاً وقال : ماذا فى جرابك؟

قلت : بل فى جرابك أنت؛ فإن هؤلاء الذين اختلفوا لم يكونوا على علم بأن هذا الاختلاف وهذه القراءات متواترة عن النبى عليه الصلاة والسلام .

قال : أو يعقل هذا؟

قلت : بل هو العقل كله . فالعرب ومن يحسن العربية خلاف صحابة النبى عليه الصلاة والسلام لم يروه عليه الصلاة والسلام ولم يتلقوا عنه، ولم يعرفوا وجوه القراءة كلها، ولم يكن قد مضى زمن تفشو فيه هذه الوجوه كلها ويعرفها أهل الأمصار جميعاً ويدونون بها ولها العلم كما حدث بعد ذلك .

قال : فما الذى حدث إذا؟

قلت : أخذ أهل كل مصر بقراءة من نزل عندهم وظن أن هذه هى القراءة المتواترة عن النبى ﷺ لا سواها . فلما التقوا وقرأ كل منهم بما سمع وما يثق فيه ثقة مطلقة، أخذ كل منهم يشك فى قراءة الآخر ويدعى أن قراءته وحدها هى الواردة عن رسول الله ﷺ، فتقاتلوا وكل منهم يظن أنه بذلك يدافع عن دينه ويحافظ على كتاب الله من التحريف . ولو علموا أنها كلها قراءات قرأ النبى عليه الصلاة والسلام وأقرأ بها لما تقاتلوا .

قال : مازالت أمامك صخرة لا أظنك تستطيع حتى زحزحتها . فقل لى : كيف إذاً يكون ما قلته صحيحاً وعثمان يقول : إنه إنما أنزل بلسان قريش . لا أظنك تستطيع الكلام . هذا اعتراف صريح بأن القرآن إنما هو لغة واحدة هى لغة قريش .

قلت مبتسماً : دائما لا تلقانى إلا بالصخور . قل لى أنت : أئذا كان لك صديق جمع من خصال الحمد كثيراً، فهو كريم، وهو عاقل، وهو ذكى، وهو محبوب، ولكن كرمه وسخاء يده غلب عليه فلا يذكر الكرم إلا ذكر هو ولا يذكر هو إلا وثب إلى الذهن كرمه .

قال : عدت لأحجياتك!

قلت : أينفى وصفه بالكرم كلما ذكر أنه شجاع وعاقل وذكى ومحبوب؟

قال : لا .

قلت : فكذلك القرآن، فإن عثمان قال : إنه إنما نزل بلسان قريش لأن الغالب فيه لسان قريش، ولا يمنع ذلك وجود لغات أخرى فيه، كما لا يمنع وصف صاحبك بالكرم باقى الصفات عنه .

قال : لا تأخذنى على غرة! أتظن أنى سأصدقك بمثل هذا اللف والدوران؟

قلت : لا عليك ولكن تأمل معى هذه القصة .

قال : قصص ثانية؟!

قلت: لا تنزعج! إنها قصيرة. ابن عباس رأى أعرابيين يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. فقال ابن عباس: ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] فمعناها ابتدأ.

ويقول هو أيضاً: ما كنت أدرى معنى قوله تعالى ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها: تعال افاتحك. أى: أحاكمك.

فقل لى: أتدرى من ابن عباس؟

قال: سؤال غريب! أتسألنى عن امرئ موقعه من التاريخ حيث لا يجهل؟ فهو ابن عم النبى ويقولون: إن النبى دعا له بالحكمة والتفقه فى القرآن.

قلت: ومع ذلك فإن ابن عباس القرشى الصميم حبر القرآن العالم بالعرب وأشعارها ولغاتها لم يكن يعلم معنى ﴿فَاطِرِ﴾ ولا ﴿افْتَحْ﴾. فهل ترى أن لو كان قرشى يعلم هذه الكلمات ومعناها أيمكن أن يكون غير ابن عباس؟

قال: لا. بل أظنه أولى بمعرفتها والعلم بها.

قلت: قد حكمت انت وقطعت إذاً أن فى القرآن مالا يعلمه أعلم قريش، فهو إذاً غير قرشى. وما أظنك تستطيع التفنن فى السؤال كما تفعل دائماً؛ فإن هذه الكلمات لا اختلاف بين القراءات فيها.

قال: أتظن المسألة انتهت والأمور قد استقرت لك؟ إنك لواهم!

قلت: هيه! ماذا تخبئ لى أنت فى جرابك؟

قال: إذا كانت القراءات متواترة عن النبى وكلها عنه وارد، فإن ذلك فى السماع والحفظ كما قلت أنت لا أنا فقل لى أيها الذكى الفطن: كيف كانت اللجنة التى شكلها عثمان من زيد ورفاقه لنسخ المصاحف تستطيع أن تكتب كل هذه الوجوه فى المصاحف التى نسخوها وهى لا تتعدى الخمسة أو السبعة على أكثر الأقوال؟ فإما أنهم لم يسجلوها فتكون قد ضاعت ولا سند لها، وإما أن يسجلوها. فكيف يسجلونها والمصاحف تعد على أصابع اليد؟

قلت: لم تأت في جمل! فهذا أمر سهل وقد أجبت أنت عنه من قبل.

قال أجبت عنه أنا! ألن تكف عن هذه الألغاز؟

قلت: ليس في الأمر ألغاز. أتذكر الكلمات التي سألت عنها من قبل وقلت كيف تكون واردة كلها وهي مختلفة؟ قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾؛ ﴿نُنشِزُهَا﴾ و﴿نُنشِرُهَا﴾ و﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ و﴿رَبُّنَا بَاعَدَ﴾؟

قلت: هي بعينها! فإنهم كانوا يكتبونها وأمثالها عارية من النقط والشكل في المصاحف هكذا: ﴿فىىىوا﴾، ﴿ىىسرها﴾، ﴿ىاعد﴾، فتحتمل بذلك الوجهين وكلٌّ يقرأ بما أثبته سماعاً ورواية. فها أنت ذا ترى أنه لا تعارض بين السماع والرواية وبين التسجيل والكتابة.

قال: لم تجبني! فإنك لم تختر من الأمثلة إلا ما تريده ويوافقك.

قلت: فماذا تريد؟

قال: فماذا إذا كانت القراءتان متواترتين وهما مع ذلك لا يمكن التفرقة بينهما بالنقط والشكل، ولا يضمهما رسم واحد، ولا يمكن كتابتهما بطريقة واحدة؟ فهم إما أن يكتبوا هذه أو يكتبوا تلك.

قلت: بل يكتبونهما معا، فإنهم يكتبون الكلمة برسم في مصحف وبرسم آخر في مصحف آخر.

قال محتجاً: البينة! البينة! دائما ما تنساق في الكلام المرسل وتنسى البينة!

قلت: فهاك البينة. فإنهم كتبوا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] بسورة البقرة بالواو في كل المصاحف وكتبوها دون الواو في المصحف الشامي.

قال: هذا مثال؟!

قلت: وإليك الثاني. فإنهم كتبوا ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٨٩]

في آخر براءة هكذا في كل المصاحف وكتبوها بزيادة ﴿مِن﴾ في المصحف المكي.

أرى عينيك تبرقان، فإليك المثال الثالث قبل أن تسألني عنه. فإنهم كتبوا ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] بدون ألف في بعض المصاحف وزيادة ألف ﴿وَأَوْصَىٰ﴾ في بعضها.

وهكذا فكل القراءات مسجلة كتابة، ومحفوظة سماعاً ورواية.

قال: فهم قد نسخوا هذه المصاحف من النسخة التي جمعتها اللجنة الأولى التي شكلها أبو بكر برئاسة زيد؟

قلت: نعم!

قال: وهم نسخوا المصاحف بحيث تحتمل وجوه القراءات جميعاً؟.

قلت: نعم!

قال: إن هذا يعني أن هؤلاء الأربعة الذين أوكل إليهم عثمان مهمة نسخ المصاحف كانوا يعلمون القراءات جميعاً. أما ترى أن ذلك لا يستقيم في العقل؟ بل هو يتناقض مع ما تقوله من أن أحداً في ذلك العصر لم يكن يعلم وجوه القراءات كلها، بل يعلمون فقط مجرد ورودها عن النبي.

قلت مبتسماً: هذه صخرة صغيرة وعناء إزالتها يسير. ناولني هذا الكتاب إلى جوارك.. عن يمينك قليلاً.

قال وهو ينظر إليه ويناولني إياه: المقنع في رسم مصاحف الأمصار.

قلت: لأبي عمرو الداني؛ إمام القراء وشيخ المقرئين.

انظر ماذا يقول هنا: «كانوا إذا اختلفوا في آية آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيُرسَل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكانا».

أرأيت إلى مثل هذه الدقة المتناهية؟ فها أنت ترى أن هؤلاء الأربعة إنما أشرفوا على التدوين وقاموا بالنسخ والكتابة فقط، أما الآيات ووجوه قراءتها فاشترك فيها كل من سمع من رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الدولة الإسلامية وتحت إشراف رأس الدولة نفسه.

ترى أبقيت صخور أخرى تضعها فى طريقى كما تفعل دائماً؟

قال: بل أمامك جبل لا نفاذ منه لضوء ولا ماء!

قلت: نسأل الله السلامة من جبالك. فما هو جبلك هذا؟

قال: إحراق المصاحف. كيف يحرق عثمان المصاحف؟ إذا كانت وجوه القراءة المتواترة مثبوتة مكتوبة فيما نسخته اللجنة الموكلة بذلك، فلماذا أحرقت هذه المصاحف وما فيها إلا القراءات؟

ألم أقل لك إنه جبل شديد الرسو غائر الأوتاد لا نفاذ فيه ولا إليه.

قلت: بل هو جبل من الهواء لا يحجب ضوءً ولا يمنع ماءً.

قال محتجاً: ما أدرى ما ستقول والمصاحف أحرقت.

قلت: ومن قال إن المصاحف أحرقت؟

قال: إنك لعجيب الشأن! أتريدنى أن أصدقك وأكذب عينى؟ أم تراك لا تعترف بالبخارى وأنت قد أغرقتنى فيه؟

قلت: لا هذا ولا ذاك! ولكن قل لى: ما هو المصحف؟

قال: أهذا سؤال أم شَرَك؟ وهل يجهل أحد عربياً كان أو غير عربى ما هو المصحف؟

قلت: ترفق بى وأخبرنى!

قال: المصحف هو الكتاب الذى يجمع القرآن بين دفتيه، ويحوى سور القرآن من الفاتحة إلى الناس بين جلدتيه.

قلت: لا. ليس هذا هو المصحف. أو على الأقل ليس هذا هو المصحف فى الزمان الذى نتحدث عنه.

قال: فقل لى يا بحر يا فهامة ما هو المصحف؟

قلت: المصحف هو الكتاب الذى تجمع فيه الصحف، أى صحف، وما صار عَلماً على القرآن وحده إلا بعد جمعه.

قال: فما فائدة ذلك فيما نحن فيه؟

قلت: بل هو تفسير ما نحن فيه. فإن عثمان لم يحرق المصحف القرآن المتواتر عن النبى عليه الصلاة والسلام، وما كان له أن يفعل ذلك ولو فعله لوقف له الصحابة بالمرصاد.

أتعرف أن على بن أبى طالب كأنه كان يراك ويسمعك ويعرف أن الزمان سيجود يوماً بالعباقرة النقاد أمثالك فترك شهادته على ما حدث.

قال: بدأت فى توبيخى وتقريعى ونسيت ما اتفقنا عليه.

قلت: بل لم أنسه. وإنها لشهادة وما هى بتوبيخ ولا تقريع. فقد روى ابن أبى داود بسند صحيح عن على أنه قال: لا تقولوا فى عثمان إلا خيرا؛ فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا.

وروى ابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ٣٠هـ أنه قال: لو وليت منه (أى القرآن) ما ولى عثمان لسلكت سبيله.

قال: إذاً فإن عثمان لم يحرق المصاحف التى هى القرآن المتواتر.

قلت: نعم.

قال: فماذا يكون قد أحرق إذا؟ لا أظنك ستقول لى: إنه أتى بقصص وحكايات فى هذه الصحف فأحرقها. فأى طفل لابد يدرك ببديهته أن ما أحرقه كان قرآناً أو على الأقل على صلة به.

قلت: إن إعجابى بك ليزيد يوماً بعد يوم. نعم! إنه أحرق شيئاً له صلة بالقرآن ولكنه ليس هو القرآن.

قال: ها قد عدنا إلى الألغاز مرة أخرى!

قلت: قل لى : أنت طالب فى الجامعة.

قال : وعدنا إلى الأحجيات أيضاً! يا لحبالك الطويلة!

قلت : وأنت طالب نجيب تكتب كل ما يمليه عليكم الأستاذ بدقة شديدة .

قال : وماذا بعد ذلك؟

قلت : بعد ذلك أنك طالب مدقق تريد أن تعرف معنى كل كلمة والمقصود من كل عبارة . فماذا تفعل؟

قال : أمرى إلى الله . كنت أميل إلى من بجوارى عن يمينى أو يسارى فأستوضحه أو أستفهم منه .

قلت : فأنت قد علمت المراد وأنت لا تريد أن تنسى ما أستفهمته فماذا تفعل؟ .

قال : كما كنا نفعل دائماً ونحن فى الجامعة نتلقى العلم؛ أسجل معنى الكلمة الغامضة أو المراد بالعبارة بعدها بين أقواس .

قلت : فإنهم حينئذ لم يكونوا يعلمون الأقواس ولم تكن قد اخترعت بعد .

قال : لم تكن قد اخترعت بعد! عمن تتحدث؟!

قلت : عن الذين كانوا يكتبون القرآن فى ذلك الزمان! فإنهم كانوا يسمعون القرآن فيكتبونه وبعضهم يكتب داخل النص تفسير كلمة أو معنى آية .

فقل لى : أيكون ما زادوه من تفسيرات ومعان قرآناً أم غير قرآن؟

قال : وهل هذا فى حاجة إلى ذكاء . غير قرآن طبعاً .

قلت : فإذا أحرقه عثمان أيكون أحرق المصحف القرآن أم أحرق المصحف الصحف التى اختلط فيها القرآن بغير القرآن من تفسيره ومعانيه؟

برقت عيناه وهم بأن يحتج فقلت بسرعة : أعلم ما ستقوله : البينة . دائماً ما تنسى البينة!

فهدأ وابتسم ثم قال : ينبغى لى أن أحذر منك؛ فإنك من طول مجالستى لكأنك تستشف ما فى نفسى .

قلت : فإليك البينة : كان فى مصحف سعد بن أبى وقاص ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ

أُخْتٌ «من أم» ﴾. ألا ترى أن هذه الآية جاءت فى سورة النساء مرتين: مرة بخصوص الإخوة لأم والأخرى للإخوة لأب، فوضع الذى يكتب كلمة «من أم» من عنده ليميز بين الآيتين ويعرف محل الحكم فيهما.

وفى مصحف ابن مسعود: ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ «متتابعات» ﴾، فمتتابعات هذه استطراد لتوضيح ضرورة التتابع فى الصيام. ومثلهما وأوضح منهما على كتابة التفسير بجوار القرآن فى النص من كتب فى مصحفه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا «والورود الدخول» ﴾، فالجملة الثانية شديدة الوضوح فى أن صاحبها أراد تفسير معنى الورود فكرره وذكر معناه بعده.

قال: إن ما تقوله لمقبول. ولكن أيعقل أن تكون المشكلة فى كل هذه الصحف التى أحرقت أن بها كلمات زائدة فى النص لتفسيره وتوضيح معناه هنا أو هناك؟

قلت: بل وهناك من الصحف كثير مما لا دليل على تواتره عن النبى عليه الصلاة والسلام، أم كنت تريد كل من أتى بكلام مكتوب فى صحيفة أن يُصدق ويقال له: آمين؟ فأين إذاً التوثيق والتأكد من النسبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام؟ ولو أنهم أخذوا بكل صحيفة وجدوها دون توثيق لكان ذلك أدعى للنقد والاتهام والشك فى نسبة القرآن إلى النبى عليه الصلاة والسلام.

قلت: أتعرف أن هناك سبباً آخر لهذا الإحراق؟

قال: وهل بعد كل ما حشدته بقى شئ؟

قلت: نعم. ألم تكن العرب أمة أمية؟

قال: بلى!

قلت: وكان عهدهم بالكتابة حديثاً، بل إن الكتابة لم تستخدم فى هذا العصر فى شئ حقيقى له جدوى إلا فى عملية تسجيل القرآن نفسه.

فقل لى: كيف يكون إتقان الطفل للكتابة فى سنوات دراسته الأولى؟

قال: وكيف يكون إتقان فى شئ ما زال يتعلمه، وهو بعدُ صغير يحتاج لزمن ومِران وإرشاد حتى يستقيم قلمه وخطه.

قلت: وهكذا كان العرب أطفالاً فى الكتابة ومن برع فيها منهم قليل، ومن هذا القليل اختار النبى عليه الصلاة والسلام كتاب وحيه.

قال: فماذا عن الباقين؟ أكلهم كان يجهل الكتابة؟ فإذاً كيف كتبوا ما كتبوا من القرآن فى الصحف؟

قلت: بل يعلمونها علم الطفل الناشئ فيكتبون قدر ما يطيقون وما يعرفون. وهاك الدليل قبل أن تبرق عيناك وتحمر وجنتاك.

روى ابن فارس فى كتابه الصاحبى عن هانئ قال: كنت عند عثمان رضى الله عنه وهم يعرضون المصاحف، فأرسلنى بكتف شاة إلى أُبى بن كعب وفيها «لم يتسن» و «فأمهل الكافرين»و «لا تبديل للخلق».

قال: فدعا بالدواة، فمحا إِحدى اللامين وكتب ﴿لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ومحا فأمهل وكتب ﴿فَمَهِّلِ﴾ [الطارق: ١٧]، وكتب ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فألحق فيها هاء.

وكما ترى فهذه أخطاء إملائية وقع فيها كثير ممن يكتبون ما يسمعونه دون إرشاد النبى عليه الصلاة والسلام. أفتسمى هذا قرآناً؟ وأيكون عثمان قد أحرق المصاحف؟

ها! أين جبلك الآن؟ أمستقر راسخ أم طائر مع الرياح؟

ابتسم قائلاً: إنك لخصم عنيد ومراوغ زئبقى. ولكن الأمر لم ينته بعد. وإن بينى وبينك لساحة أخرى. قل لى: .....

قلت مقاطعاً له: على رسلك وترفق بى وبنفسك. فإنك قد أرهقتنى. وما أرى مراوغا يتفلت من الإقرار والاعتراف الصريح إلا أنت. فاختر الساحة التى تريدها وإنى لفى انتظارك!

* * *



الـوحـى

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٨]

قلت: مالى أراك تقف أمامى وتنظر إلىَّ بعينين ملؤهما الشك والريبة؟ أما تريد أن تجلس؟

جلس قائلاً: أتعرف أنك لست مراوغاً فقط، ولكنك ماكر شديد المكر. لقد خدعتنى وموهت على.

قلت: دائما تظلمنى! فأين هذا المكر الذى تدعيه؟

قال: لقد أغرقتنى فى حديث التوثيق والروايات والجمع، وفعلوا هذا لأن وهذا بسبب.

قلت: ماذا فى ذلك؟ ألست وافقت أنت على أن يكون هذا حديثنا؟

قال: وافقت! أنا! إنك أنت الذى أوحيت به إلى وقفزت بى إليه. وما أراك فعلت ذلك إلا لتستدرجنى بعيدا عن المسألة الأهم والأخطر.

قلت: وما هى هذه المسألة الأهم والأخطر، والتى جعلتك هكذا؟

قال: القرآن نفسه ومصدره لا جمعه وتوثيقه. فتلك خطوة أولى تعمدت إهمالها وصرفتنى عنها بحديث التوثيق هذا ولججه ودواماته حتى أغرق فيه فلا أنتبه إليها.

قلت: ومع ذلك فها أنت قد خرجت من لجج التوثيق ودواماته، ويمكننا إدراك ما فات. هل يرضيك هذا؟

قال: يرضينى غير أنه حديث مقلق وعر يصيب فى نفوس المسلِّمين تسليماً مطلقاً أمثالك مواضع لا يحبونها، تنتهى بهم إلى الغضب دون الحجة والثورة دون الدليل. وإنى تفكرت ومازلت أراوح نفسي بين أن أواصل وأن أتوقف عن هذا الحديث العسر.

قلت: بل لأن تواصل أحب إلى نفسى وآثر عندى. ولك على ألا أغضب ولا أثور، على أن لا تعاند وتحرن كما يفعل المتشككون من أمثالك.

قال: فإذاً! لقد وثقت لى شيئاً لا أعلم مصدره يقيناً فما يفيد توثيقك فى شئ.

قلت: أما ترى أن توثيقاً بهذه الدقة، وكتاباً يظل أربعة عشر قرناً من الزمان كما هو لا يتغير فيه حرف ولا تختلف فيه نسخة فى شرق الأرض أو شمالها عن أخرى بغربها أو جنوبها، ولا تختلف نسخة من عهد النبى عليه الصلاة والسلام إلى النسخة التى بين يديك بعده بألف وأربعمائة عام ويزيد - أما ترى ذلك وحده معجزة بميزان التاريخ والزمن؟

فدلنى على كتاب واحد على ظهر الأرض غير القرآن وُثق بمثل هذا التوثيق وهذه الدقة، وبمثل هذا التطابق المذهل فى نسخه عبر العصور وعبر الأماكن؟ ألا يدلك ذلك على أنه يعلو على الزمان والمكان؟

قال: قد يكون ما تقول صحيحاً؛ فلست أعلم كتاباً وثق بهذه الدقة والمنهجية. ولكن ذلك لا يكفينى. فما فائدة كل هذا التوثيق والتحرى فى شئ لا أعرف مصدره ولا من أين أتى؟

قلت: فأنت تشك فى أن هذا القرآن وحى منزل من الله؟

قال: ومن أدرانى؟

قلت: فأمامنا التاريخ والروايات الموثقة عن الوحى ونزوله والنبى عليه الصلاة والسلام وحياته. فقل لى أنت: إذا لم يكن القرآن وحياً إلهياً فمن أين أتى به النبى عليه الصلاة والسلام؟

قال: فلعله أتى به من عند نفسه.

قلت: فلو كان عليه الصلاة والسلام قد أتى به من عند نفسه، فدلنى على سبب معقول يدفعه لأن يأتى به؟

قال: الملك والسلطان! أليس بهذا القرآن قد ملك العرب وطواهم تحت يديه؟

قلت: لطالما طالبتنى بالبينة، وها أنت الذى ترسل الأقوال بلا بينة.

قال: وهل تريد بينة أكثر من أن تبعه العرب أجمعون ودانت له جزيرتهم كلها بالقرآن؟

قلت: فأين إذاً المنهجية والنقد التاريخى؟ أما ترى أنك تحكم على التاريخ وقد جعلت رأسه على الأرض وقدميه فى السماء ؟

قال: يا لألغازك التى لا تنتهى!

قلت: ليس فى الأمر ألغاز ولا يحزنون! إنك ما زدت على أن أدرت تاريخ النبى عليه الصلاة والسلام أمام عينيك كالأفلام، وحكمت عليه بعد أن رأيت بدايته ونهايته. فدع النهاية وكن مع البداية: أحين أتي النبى عليه الصلاة والسلام بالقرآن وجاهر به قومه أطاعوه ودانوا له أم نفروا منه وعادوه وآذوه ومن آمن معه؟

قال: عادوه وآذوه ونفروا منه! ولكن قل لى: أما ترى أنه كان يعلم أن نفورهم وعنادهم هذا إلى حين، وأنهم لابد مذعنون له وقد أتاهم من مكمن عزتهم ومنبع فطرتهم: البلاغة والفصاحة. وإنك تعلم أن كلمة بليغة فى هؤلاء العرب لتخفض أقواماً وترفع آخرين، وإن بيتاً من الشعر ليثير من الحرب الضروس ما تعجز السنون الطوال عن إزالة آثاره.

ألست معى أنه كان فى مقدوره أن يعلم – وقد أتى العرب من لسانهم – أنهم لابد متبعوه؟

قلت: فقل لي: قد خبرت التاريخ والشعوب، ففى أى سنى العمر يتطلع المرء لتغيير عالمه ويطمع فى الزعامة وتهفو نفسه إلى الملك والمغامرة فى سبيل ذلك بكل رخيص وغال؟

قال: ما تسألنى عن شئ إلا وأنا أعلم علمك به. فليس بخافٍ عليك أن استقراء التاريخ وحركات التغيير فيه ودراسة القادة والثوار عبر التاريخ لتخبر أن القادة واشتعالهم وفوران نفوسهم وطموح عقولهم لتغيير شعوبهم والعالم من حولهم ليكون فى شرخ الشباب فى سن الفورة والوفرة.

قلت: ففى أى سنى العمر تحديدا؟

قال: في العشرينات أو الثلاثينات على أكثر تقدير.

قلت: وهل يشذ عن هذه القاعدة أحد؟

قال: في حد علمي أن ذلك يستوى فيه قديم التاريخ وحديثه، شرقه وغربه، فلا يفرق فيه الإسكندر عن نابليون، ولا جنكيز خان عن جيفارا.

قلت: ففي أى سنى عمره بدأ النبى عليه الصلاة والسلام يدعو الناس ويخبرهم أن ما يقوله هو وحى نزل عليه من السماء؟

قال مبتسماً: عدت لاستدراجى مرة أخرى.

قلت: وهل مثلك يمكن استدراجه؟ أهذا تواضع أم مراوغة؟

قال: لا فائدة! كان فى الأربعين من عمره.

قلت: فها أنت تكون قد حكمت أنه فات سن التطلع إلى الملك والمغامرة فى سبيله. وما كان عليه الصلاة السلام إلا فى السن التى يركن فيها المرء إلى الدعة ويخلد إلى الراحة ويكيف عقله ونفسه تبعا لما حوله، فيتواءم معه ويقبل منه ما كان يخالفه فى سنى شبابه.

قال: قف قبل أن تستطرد فلا تتوقف. نعم كان فى الأربعين من عمره، وهى سن يصعب فيها أن يبدأ امرؤ مغامرة كهذه يجابه فيها قومه أجمعين بثورته. لكن ذلك لا يستحيل.

قلت: فكن أنت الآن طالب ملك.

قال: فهذه أحجية جديدة!

قلت: وأنت تطمح إليه وتثور نفسك شوقاً إليه وطلباً له. فإذا جاءك من يعرض عليك الملك الذى تريد، أفتقبل الملك الذى جاءك رخياً هنياً أم تتركه وتحفر فى الصخور الصم بأظافرك بحثاً عنه؟

قال: أترى أن هذا سؤالاً يُسأل لعاقل أو مجنون؟ أفاترك الملك الذى جاءنى وأذهب لأبحث عنه هو هو فى الصخر؟!

قلت : فلو كان عليه الصلاة والسلام يطلب الملك كما تقول، لكان أولى به أن يترك القرآن لا أن ياتى به .

قال : لم أفهم شيئاً .

قلت : خذ وستفهم بنفسك . هذا التاريخ فاستفهم منه . اقرأ أنت لترى بعينيك وتسمع بأذنيك .

قال : هات! «قال عتبة بن ربيعة وهو جالس – يوماً – فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد . قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلي رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى! إن كنت إنما تريد بما جئت به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا» .

قاطعته قائلاً : ها! ما تقول؟ أما كان الأجدر به – عليه الصلاة والسلام – لو كان يطلب ملكاً أن يقبله يسيراً هنياً ومعه رضا قومه عليه واجتماعهم إليه بدلاً من كل هذا العنت والمشقة؟

قال : رفض الملك وقد عرض عليه؟

قلت : نعم!

قال : فذلك ليس عندى بشئ! فإن الملك ليس كل شئ . ففى الدنيا أناس تؤرقهم مجتمعاتهم ولا يتآلفون معها ويلفظون عقائدها ويبحثون عما يريح نفوسهم القلقة فى غيرها . وبعضهم قد يصوغ رؤاه وما يتبدى له لأتباعه،

فيترصدون ما فى مجتمعهم من فساد وما يريم عليه من خلل، فيأتون لكل فساد بإصلاح، ولكل خلل بما يسده، وما فى ذلك وحى ولا كلام إلهى.

قلت: أفترى أنه - عليه الصلاة والسلام - مصلح رأى أدواء قومه فهمَّ لعلاجها، وما القرآن إلا صياغته لما رآه من علاج وإصلاح؟

قال: وماذا فى ذلك؟ بل ولا أدل عليه مما ذكرته أنت من أنه ما جاء بالقرآن إلا بعد أن تخطى الأربعين من عمره.

قلت: وما علاقة الأربعين بالإصلاح الذى تدعيه؟

قال: أليست سن نضج العقل وكمال الفكر ورشد النظر؟ وإن من ينظر إلى العرب قبله ليراهم فرقاً مبددة مشتتة طحنتها حروب القبائل، ونظاماً متهرئاً تفشت فيه الأدواء الاجتماعية والعقلية. وهم بعد ذلك فى ذيل الأمم وخارج التاريخ.

فقل لى: إذا نشأ نابه فى هذا الجو وهذه الحالة فأمعن التفكر فيما حوله من اضطراب وفساد وخلل، أما يكون ذلك كافياً ليثور ويهب لاصلاحه، ويكون من فسادهم تهيئة لإصلاحه، ومن اضطرابهم سبب لنظامه، ومن ضعفهم وتشتتهم دافع لتوحدهم به.

قلت: وكأنك تحدثنى عن فيلسوف نظر فى تاريخ الأمم واستقرأ أحوالها وأسباب قيامها وصعودها وعوامل انهيارها وفنائها، فصاغ نظرية يصلح بها مجتمعه ويشيد بها أمته؟

قال: أليس ذلك أصوب فى نظر العقل وأكثر استقامة مع منطق الأمور؟

قلت: ففى أى الجامعات ومعاهد العلم تعلم ذلك أيها الأريب؟ أنسيت أنه كان عليه الصلاة والسلام يعيش فى القرن السابع لا فى القرن العشرين. وأهم من ذلك أنسيت أم تناسيت أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ بل وما كان العرب جميعاً إلا أميين عدا قلائل يعدون على أصابع اليد. وحتى هؤلاء ما كانوا

يعلمون شيئاً لا عن الأمم السابقة ولا احوالها ولا أخبارها إلا نتفاً مما ينثره التاريخ فى الأمم لا تفيد علماً ولا تقيم منهجاً.

قال: دعك من هذه المراوغة. فإن ذلك ليصعب مع الأمية لكنه ليس بمحال معها. فإن معرفة الفساد والعلم بوجوه إصلاحه لا يكتسب فقط من الكتابة ومطالعة الكتب، وإنما أيضاً من سماع الأخبار ومعرفة أحوال الأمم السابقة أو المجاورة، بل ومن ذكاء العقل وصفاء النفس.

قلت: يا لعنادك الذي لا حدود له! فقل لى: إذا كان النبى عليه الصلاة والسلام معلماً والقرآن حكمته، أما كان الأولى به أن ينسبه لنفسه لا أن ينسبه لغيره؟ أما ترى أن ذلك أجلب لشرفه وأرفع لذكره وأخلد لاسمه فى العرب؟

قال: إنك لأنت العنيد! فإنك تعلم أنه لم ينسبه إلى أحد أى أحد ولكنه نسبه إلى الله: قدرة مطلقة وقوة قاهرة، وإنك لتعلم سطوة الألوهية القاهرة على النفوس. ولو قال إنه من عنده لما آمن به أحد ولا خضع له العرب. أما ترى أنه لو نسب القرآن إلى نفسه لما زاد على أن يكون رجلاً كبقية الرجال. أما وقد نسبه إلى رب وإله فقد ارتفع فوق البشر جميعاً بما ليس فى طاقة أحدهم ولا جميعهم أن يصلوا إليه. أليس ذلك سبباً كافياً لكى ينسب القرآن إلى الله لا إلى نفسه؟

قلت: أما ترى أنت أنك تشتط فلا تختار من الفروض إلا أبعدها عن العقل ثم تلوى لها الحجة لياً؟

قال: فليكن! فإنك لا تحدثنى عن أمر عادى ولا شئ يقال فينسى أو يترك. فهل هناك أخطر من الحديث عن كلام إذا ثبتت نسبته إلى الله لما كان لأحد معه إلا التسليم المطلق. فلا تظن أنى سأصمت وأتركك تقول ما تريد وكأنك فى نزهة. بل لا أسلم لك إلا مع أعسر الفروض.

قلت: فذلك لك. فشهادة قومه عليه وهم كافرون به محاربون له لترد عليك. فخذ فاقرأ.

قال: البخارى!

قلت : اقرأ ولا تهرب!

قال : فإنى لا أهرب أبداً : أخبر أبو سفيان بن حرب أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام فى المرة التى كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم. ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً. فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه : قل لهم : «إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذبوه، فوالله لولا الحياء فى أن يأثروا على كذباً لكذبت عليه»(١).

قلت : تمهل! اقرأ هنا.

فقرأ : قال هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان : قلت : لا.

قلت : ثم اقرأ هنا.

قال هرقل : وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

قلت : فانظر إلى حصافة هرقل وسمو عقله لا إلى عنادك أنت وشكك الذى لا ينتهى. فإنه استشهد قوم النبى عليه الصلاة والسلام نفسه، وجعل بعضهم شهوداً على بعض حتى لا يستطيع أحدهم الكذب. ثم إنه لم يشطح فيستخرج النتيجة من مقدمة لا علاقة لها بها أو لا وجود لها كما تفعل أنت. إنما وضع المقدمة المعلومة وهى الشهادة، وهى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ليترك الكذب على الناس ويعيش بينهم صادقاً مصدقاً حتى ليلقب بالأمين ثم يكذب على الله عز وجل. أفمن يكون أميناً صادقاً مع الناس وهم لا يرونه ولا يراقبونه، يفترى الكذب وينسب القول - زوراً - إلى من يراقبه ويعلم سره ونجواه؟

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «بدء الوحى». حديث رقم (٧).

قال : رويدك قليلاً ! فإنى لم أقل إنه كاذب يخادع قومه، بل يرى أن هذه هى الوسيلة المثلى لإصلاح شأنهم وترقية حالهم.

قلت : فقل لى : كيف كان كلامه عليه الصلاة والسلام؟

قال : ما كلامه؟ لست أفهم ما تعنيه.

قلت : هل كان كل ما يتكلم به عليه الصلاة والسلام يقول إنه من عند الله؟

قال : وما فائدة ذلك؟

قلت : أجب فقط وانتظر!

قال : لا . بل كان هناك ما يقول إنه من عند الله وأنه قرآن، وهناك ما جمعه البخارى وأمثاله بعد ذلك من أحاديثه التى لم ينسبها إلى الله ولم يقل إنها قرآن.

قلت : فهل علمت أحداً فى التاريخ كله يتكلم بطبقتين من الكلام الفرق بينهما كالفرق بين القرآن والأحاديث؟ فلو كان القرآن من عنده ﷺ، أما كان يمكنه أن يجعل كلامه طبقة واحدة فيصير كله قرآناً؟

قال : وماذا فى ذلك؟ فإن الشعراء بل وعامة المثقفين ليتكلمون فى مواضع ومجامع ومحافل بقصائد أو كلمات دونها كثيراً ما يتكلمونه فى حياتهم اليومية ويباشرون به أحوالهم العادية. فهذه كتلك.

قلت : أما ترى أنك تتكلم عن أمى لا عن شاعر ولا مثقف. ثم أعلمت أحداً ممن ذكرت يكون الفارق بين طبقتى كلامه والتباين بين طريقتى بيانه بحيث يخضع العرب لأحدهما ويخرون أمامه سجداً، ومن كفر به منهم لا يقدر على شئ أمامه إلا الصمت. وأما الثانى فيأخذون منه ويردون عليه، ويصوبونه ويخطئونه، ويحسون أنه ككلامهم هو منهم وهم منه.

أما آن لك أن تترك عنادك هذا والشك المستحكم فى رأسك وتُقر أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند نفسه عليه الصلاة والسلام؟

ابتسم قائلاً بمكر: عدت لسيرتك وتريد أن تقطع الطريق على كما تفعل دائماً. لا. لن أتركك هذه المرة. هات السيرة التى أقرأتنى منها.

قلت: ها هى!

قال: فاقرأ هنا!

قلت: ها قد جعلتها واحدة بواحدة أنت أيضا: «واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون له، فخلص منهم أربعة نفر نجياً وهم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شئ. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع»:

قال صائحا: قف ثم اقرأ ها هنا.

قلت: كما تريد: «وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان.

وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مُسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش! والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه يسجد على راحته.

قال فى جذل وسرور: أرأيت؟! لماذا لا يكون القرآن كأشعار زيد بن عمرو التى تبرأ فيها من دين قومه وترك أوثانهم وذبائحهم؟

قلت: وما حال النبى عليه الصلاة والسلام حينئذ؟

قال: ألم يعتزل قومه وكان ينفرد بنفسه فى غار حراء يقلب وجهه فى الناس والسماء؟

وما كان إلا أن تفكر فى حال قومه ورأى سفههم، فاعتزلهم وترك دينهم ونبذ آلهتهم، وتحنف كما تحنف هؤلاء ووصل إلى ما وصلوا إليه.

قلت: فإنك قد أجبت على نفسك بنفسك.

قال: قد ظهرت الألغاز مرة آخرى!

قلت: امـا ترى أن هؤلاء الأربعة الذين ذكرتهم لم يصلوا إلى شئ؟ فبعضهم ذهب إلى النصرانية، وبعضهم توقف عن جميع الأديان. وما جمعهم إلا فراقهم لدين قومهم. فهم قد اجتمعوا اجتماع افتراق واتفقوا اتفاق اختلاف.

أما ترى أن زيداً نفسه يقول: لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكن لا أعلمه؟

فأين ذلك من العقائد الواضحة الفاصلة والشرائع المبسوطة فى القرآن، والأحكام المبثوثة فيه، وأحوال الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار بكل تفصيلاتها الدقيقة؟

ثم قل لى: ما مصير زيد بن عمرو؟ اقرأ أنت وقل لى.

قال: لا حاجة بى إلى القراءة. إنه خرج يبحث عن دين إبراهيم فى الشام ومات وهو عائد.

قلت: أرأيت من منا المراوغ الذى يقف فقط عندما يريد؟ فما الذى أعاده من الشام؟

قال مبتسماً: يقولون إنه لقى راهباً فسأله عن دين إبراهيم فأخبره أنه يطلب ديناً ليس عليه أحد.

قلت: أكمل! ثم ماذا؟

قال: ثم قال له: قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فقفل عائداً إلى مكة.

قلت: فدعك من حديث الراهب. وقل لى: أين هذا التيه النفسى والحيرة

الروحية والقلق الذى لا يتوقف من معرفة النبى عليه الصلاة والسلام بربه وثقته بنصره؟

فقل لى : إذا وقف رجل أمام قومه جميعاً لا يفر ولا يخرج من بينهم ولا يرضخ لهم، وإنما يجابههم بقوله : لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فخبرنى وأنا لك مصدق : ما تكون نفسية هذا الرجل؟

قال : ثقة وتحدٍ ومضاء وعزم صميم.

قلت : فأين هذا التحدى والثقة والمضاء والعزم الصميم - كما أقررت أنت - من تيه زيد بن عمرو وحيرته وتقلبه فى الأرض وسجوده على راحته لا يعرف كيف يعبد ربه؟

قال : ففى أشعار زيد نبذ لدين قومه وعباده الأوثان وبحث عن ربه.

قلت : نعم! بحث عن ربه لا وصول إليه. فقل لى : لو خصمته العرب فأى حجة كانت له عليهم؟ ولو تبعوه فأى شئ عنده يدلهم عليه أو يرشدهم إليه؟

فهب أن أحداً من العرب تبع زيداً فقال له زيد : دع دين قومك واعبد ربى وحده. فلو قال له من تبعه : فما ربك، وما صفته، وكيف أعبده، وما يعطينى إن أطعته، أترى زيداً يملك له جوابا؟

قال متفكراً : لا.

قلت : ثم أعلمت أحداً من العرب وقف أمام أشعار زيد فأفحمته وأقر أمامها بعجزه كما أفحمهم القرآن ووقفوا أمامه مبهوتين لا يردون ولا يجدون جوابا؟

فتفكر ملياً ثم قل لى : الا ترى أن طبقة القرآن اللغوية وتفرده البيانى وعلومه وشرائعه ونبوءاته تدلان على أنه شئ وأن النبى عليه الصلاة والسلام وحديثه شئ آخر؟

قال: فلم يكن القرآن منه طلباً للملك ولا إصلاح ولا تفكراً وتحنفاً؟

قلت: بل ولم يكن يخطر له على بال، ولم يكن يواتيه كما يريد، ولا يعبر عن نفسه ولا ذاته عليه الصلاة والسلام.

قال: ها قد عدت إلى الكلام المرسل بلا دليل ولا بينة!

قلت: بل دلائل وبينات.

قال: دلائل.........وبينات! فأين هي هذه الدلائل والبينات؟

قلت: أنت الآن شاعر كبير.

قال: فهذه إذاً قصة جديدة!

قلت: والناس يعجبون بشعرك ويشهدون لك به وتسمو بينهم بذكره.

قال: حين تبدأ لا يمكن إيقافك! ها! أكمل.

قلت: وأنت تريد إنشاء قصيدة بديعة تكتسب بها الذكر والصيت ولا يغيب عن الناس اسمك افيعجزك أو يعجز شاعراً مجيداً أن يُنشأ قصيدة يريدها؟

قال: ربما يعجز حيناً!

قلت: وماذا بعد هذا الحين؟

قال: أطيل التأمل وأتريض حيناً وأمتع ناظرى بجمال خلاب أو سمعى بأنغام رخية ثم أطلق نفسى على سجيتها، ولو عجزت عن قصيدة فلن أعجز عن أبيات.

قلت: فإذا عجزت عجزاً مطلقاً عن قول الشعر ولو بيت واحد؟

قال: لو عجزت عن قصيدة وأبيات لا بيت واحد لما كنت شاعراً.

قلت: أى لا يكون ما تقوله من نفسك أنت. فها أنت قد حكمت أن القرآن لم يكن من عند النبى عليه الصلاة والسلام ولم يكن يقوله من نفسه.

قال متعجباً: وما أدخل الشعر فى القرآن؟ لا أظن أنك تريد أن تجعل القرآن شعراً؟

قلت : لا . ولكن صبراً! إذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يأتى بالقرآن من نفسه كما تقول أنت الشعر أما كان يستطيع حين يريد أن يأتى بآية أو آيات ولو قليلة؟

قال : بل كان يستطيع. أليس هذا ما كان يحدث؟ والقرآن ما كان إلا مفرقاً منجماً فى بضع وعشرين سنة، أم تراك نسيت؟

قلت : فإنى أحتفظ بشهادتك هذه، وأرجو ألا تلجأ إلى المراوغة فتعود فيها.

فانظر: إن الوحى بعد أن جاء النبى عليه الصلاة والسلام فى غار حراء بـ﴿ اقْرَأْ ﴾ فتر عنه وتوقف، فتشوق إليه النبى عليه الصلاة والسلام وأخذ يبحث عنه ويخرج إلى الجبال يتنسمه فى ذراها وشواهقها حتى كاد اليأس من عودة الوحى يمزق نفسه ويشتت روحه، ويجعله شديد التوتر والحيرة حتى يشك فى نفسه ويقول لخديجة : إنى لأخشى أن أكون كاهناً.

فقل لى : لو كان القرآن منه عليه الصلاة والسلام فما الذى ألجأه إلى كل هذه الحيرة والاضطراب والتمزق والتشكك فى نفسه؟ ألا يدلك ذلك على أن القرآن كان خارجاً عن إرادته ولا يواتيه طوع أمره. وإلا لأراح نفسه بآيات قليلة يسكن بها عقله وقلبه وروحه، ويرد بها على من يعيره ويقول له : إن ربك قد قلاك؟

قال : إن ذلك كان فى بداية أمره، ولم يكن أتى من القرآن إلا ﴿ اقْرَأْ ﴾ كما قلت أنت، فربما لم يكن قد استكمل آلته ولا نضجت ملكته!

قلت : فإن جدالك هذا الذى لا آخر له وحججك المراوغة التى لا تنتهى لدليل من حيث لا تدرى على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يملك القرآن طوع أمره ولا يأتى به أنى شاء، بل بتقدير من الله عز وجل.

قال باستغراب : أنا وحججى دليل! بل هى شراكك التى تعدها وشباكك التى تحيكها بمهارة – وأقر لك – فما أشعر بها إلا وأنا فيها.

قلت: تريد التفلت! قل لى: أنت خصم عنيد لا تأتيك البينة إلا طلبت غيرها، ولا ترى الحجة حتى تلويها، وإذا استعصت عليك تجاهلتها وغطيت عليها بشئ آخر.

قال: أتريدنى أن أحاورك وأجادلك وأنا مغمض العينين وأفتح لك رأسى لتضع فى عقلى ما تشاء، بل لابد أن أرد عليك وآتيك بحججى وأدفع حججك.

قلت: فإذا ألقيت إليك القول فلم ترد ولم تحر جواباً، ولا بحثت عن حجة تهرب بها، ولا راوغت كما تفعل دائماً؟ وأنت مع ذلك مصر على ما أنت عليه لا تتزحزح عنه. أما يدلك ذلك على أنك لا تملك القول ولا تأتى بالحجج من عند نفسك؟

قال: نعم! لو رأيتنى وقفت وما استطعت محاورتك ورد حججك. وما وقفت!

قلت: فما رأيك فى هذه القصة. جلس النبى عليه الصلاة والسلام فجاء الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث فأرادوا مجادلته والدفاع عن آلهتهم، فقال لهم النبى ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فجلس ولما علم ما حدث قال: سلوا محمداً: أكل ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم. فهؤلاء فى النار؟!

قلت: أتدرى ما حدث؟

قال: إن ابن الزبعرى هذا لذكى أريب، إلا أن الرد على ذلك ليس بعسير.

قلت: فإنه لم يرد، بل سكت عليه الصلاة والسلام ولم يجد ما يقوله وانصرف عنهم لا يعرف كيف يجيب. وبعد ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فلو كان يأتى به من عند نفسه أما كان يستطيع أن يراوغ كما تفعل أنت؟

قال: بل كما تفعل أنت.

قلت: حسناً كما أفعل أنا. أما كان يستطيع أن يراوغ ويخترع الحجج ويأتى بآية أو آيتين يرد بها عليهم؟

قال ساهماً: كلامك معقول.

قلت: فها أنت قد أقررت أن القرآن لم يكن يأتيه حسب ما يريد، ولو كان ما ترك أن ينتصر به في موقف كهذا ملئ بالخصومة والتحدى على الملأ يتشبث فيه المرء بأى شئ يرد به خصومه وينتصف به لنفسه وكبرياءه حقا كان أو ...

قال: قف! قف! دائماً ما تنتهز موافقتى فتنهمر كالسيل لا تريد أن تتوقف. فذاك مثال واحد وربما فاجأه قول ابن الزبعرى فلم يستطع رده وقتها. فإن القول والتحبير شئ والبديهة شئ آخر.

قلت: إن الزئبق ليحسدك على تفلتك هذا، فلا تلبث أن تقر حتى يغلبك عنادك فترجع عما أقررت به.

قال: ولو!

قلت: فأى شئ عند العرب هو أجلب للحمية، يثير غضبهم وثائرتهم حتى ليفنون فى ذلك أولهم وآخرهم ولا يبالون فى سبيل ذلك بشئ؟

نظر إلىَّ طويلاً وأخذ يحك طرف أنفه بإصبعه ثم قال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

قلت: يا لذكائك الرائع؟!

قال: إن ذلك لا يحتاج إلى ذكاء، وما هو بالتاريخ المطمور فيُجهل. بل هو أمر معروف موروث. إن العربى ليستهين فى سبيل شرفه والذود عن عرضه بكل شئ، ولا يبالى ابتغاء ذلك أن يرفع سلاحه ويشهر سيفه ولو كان يعلم فى ذلك ذهاب روحه.

قلت: فإذا كان الذود عن عرضه لا يحتاج سلاحاً ولا سيفاً بل مجرد كلمات يقولها فيسلم شرفه من الأذى ويصان عرضه من دنئ القول؟

قال: إذاً لقال من الكلمات ما يملأ الصحائف الطوال.

قلت: فإذا لم يقل ولم ينطق شيئاً بل سكت أياماً وأسابيع؟

قال: إن ما تقوله لعجيب! فكيف إذا يستطيع أن يصون عرضه بكلمات ولا يقولها. لا ريب أنه لا يستطيع هذه الكلمات التى تدعيها أنت له.

قلت: يا لك من عاقل حكيم! أتعرف أن عقلك هذا العنيد هو ما أرجوه منك وأحتكم به إليك.

قال: أراك تسعد بحيرتى كما تسعد الأطفال بالحلوى فى العيد!

قلت: بل أسعد بعقلك الحكيم الذى يصل بنا دائماً إلى شاطئ الأمان. فخذ فاقرأ.

قال: لقد صار البخارى رفيقنا الذى لا يتركنا: عن عائشة رضى الله عنها قالت: أقرع بيننا رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها فخرج سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل... أذن ليلة بالرحيل... أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه... فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى ركبت وهم يحسبون أنى فيه...

فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب... وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى.... فأتانى فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فخمرت وجهى بجلبابى. والله ما كلمنى ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش.. فقدمنا المدينة

والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني في رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهل بيتي إلا معي. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا أعذرك فيه. إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخوتنا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقال لسعد: كذبت لعمر الله. لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير فقال لسعد: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هما أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر(١).

قلت: كفاك كل هذه القراءة. فإني أراك قد جهدت، وقل لي: ما ترى؟

قال: إشاعات وأقاويل وفتنة واختلاف واقتتال.

قلت: وهمّ وغم في بيت رسول الله ﷺ، وشر مستطير ركب المدينة وقلبها رأساً على عقب حتى كاد يحرق الألفة بين قلوب أهلها.

قل لي: قد أقررت أنت أن هذا موقف يدفع فيه المرء بكل ما يستطيع قولاً وعملاً وإن قدر فقوة وقتالاً. فلو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأتي بالقرآن من نفسه أما كان يستطيع أن يأتي بآية أو آيتين يدفع بهما الأذى عن زوجه ويصون عرضه ويزيل الهم من بيته والفتنة والعداوة الناشبة بين صحابته وقد انقسموا فريقين بل فرقاً، بعضها يبرئ، وبعضها يقف، وبعضها يشير بالطلاق وكلهم يختلف حتى يوشكوا على الاقتتال؟ وهو بعدُ في موقع القائد يعوزه أن ينزه عرضه وأن يحكم سيطرته على أتباعه.

قال: ربما كان ما تقول صحيحاً؛ فإن هذا موقف عصيب على آحاد الناس فضلا عن القادة والزعماء.

---

(١) رواه البخاري في كتاب «التفسير» حديث رقم (٤٧٥٠).

قلت: وهو موقف لا يسكت فيه عربى عن قول يدفع به عن نفسه لو استطاعه وهو يعلم أنه يحسم الأمور ويجعله فى حرز أمين وسماء سامقة.

أما ترى أنه بعد كل هذا الكرب والهم شهراً طويلاً نزل القرآن بالبراءة، فاصبحت قضاءً مبرماً وزال الغم والهم وعاد الوئام والوفاق؟

فلو كان يقدر على القرآن ويأتى به من ملكات عقله ودخائل نفسه، أما كان الأولى به عليه الصلاة والسلام أن يأتى بما ينزه عرضه ويعيد الوفاق لأصحابه؟

قال: على رسلك وتمهل قليلاً: إن القرآن لا يواتيه حسبما يريد ويرغب وسأقول معك: إن القرآن لم يكن من نفسه ولا من بنيات أفكاره ولا من علمه ومعرفته. ولكن ذلك لا يثبت أن القرآن وحى من الله! فذلك أمر مازال بعيداً عن كل ما قلته؟

قلت: فإذا كان القرآن ليس من عنده عليه الصلاة والسلام فمن أين يكون؟

قال: يا لدهائك! إنك دائما تعد نفسك وتسوق الكلام إلى حيث تريد وتتعجلنى حتى تلقانى بالكلام ولم أعد عدتى ولم آخذ أهبتى.

قلت مبتسما: فاعد عدتك كما تريد، وخذ أهبتك كما تحب أيها المتفلت العنيد.

* * *

قلت ضاحكاً: إن جفونك المنتفخة لتخبرنى بطول سهرك ونصبك.

قال: أتعرف أن ما نشأ بيننا من سجال ليرهقنى.

قلت: أفتريد أن تتوقف فلا تكمل؟

قال: لا تعجل على ودعنى اتم جملتى. فإنه ليرهقنى حقاً ولكنى لا أكتمك: إنه ليثيرنى ويمتعنى أيضاً.

قلت: وإنى لكذلك! وإنك على عنادك ومراوغتك لحبيب إلى قلبى قريب إلى نفسى. ولا أكتمك أنك لو لم تكن منى لكنت أنا منك.

على كل حال فلندخل فى موضوعنا! إلام وصلت بعد طول سهرك؟! أما زلت ترى أن القرآن يمكن ألا يكون وحياً إلهياً؟

قال مبتسماً: لا تظن متعتى بلقائك ستجعلنى أرفع الراية البيضاء أمامك. فذلك شأن آخر! ما رأيك فى بحيرى؟

قلت: ماذا تريد منه؟

قال: أخبرنى فقط ماذا تعرف عنه؟

قلت: إنه راهب كان يقيم فى بصرى بالشام يعتزل الناس فى صومعة له.

قال بابتسامة ماكرة: أهذا كل ما تعرفه عنه؟

قلت: بل وما أجهدت نفسك فى البحث عنه والوقوف عنده؟

قال: فأكمل إذاً.

قلت: روت كتب السيرة أن النبى عليه الصلاة والسلام خرج مع عمه أبى طالب للتجارة بالشام فمروا على بحيرى فى صومعته، فرأى فى النبى عليه الصلاة والسلام دلائل النبوة فصنع لتجار قريش طعاماً ودعاهم إليه ثم حدث النبى عليه الصلاة والسلام وتفحصه، وبعد ذلك نصح أبا طالب أن يرجع بابن أخيه وأن يحذر عليه اليهود.

قال: قف! يكفينى هذا! راهب وحبر عالم ضمه إليه وحدثه.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: ألا ترى أن فى هذا اللقاء تفسير ما جاء بعد ذلك فى القرآن من قصص وأخبار وأنه يكفينا مؤونة البحث عن مصدر القرآن؟

قلت: فقل لى: كيف يكفينا أيها العبقرى؟!

قال: إن ذلك واضح وضوح الشمس. إن هذا الراهب العالم قد انفرد به

وألقى إليه من الأخبار والقصص التى جاءت فى كتب اليهود والنصارى ما صاغه فى القرآن. أليس هذا ما يقول به العقل السليم ويقتضيه النقد الواعى؟ إذا تشابهت قصتان أو روايتان تاريخياً فلا بد أن اللاحقة منهما أخذت من السابقة.

قلت: فقل لى أيها الناقد البارع الذى أجهد نفسه فى البحث بعين فاحصة ناقدة وأخرى مغمضة مقفلة: كم كانت سن النبى عليه الصلاة والسلام حين التقى بحيرى؟

قال: هه!

قلت: أنسيت أم أن هذه لا ترضى عنها عين نقدك الواعى؟

قال: خمس عشرة سنة!

قلت: وجاء بالقرآن فى الأربعين!

قال: وماذا فى ذلك؟

قلت: وهل يقول العقل السليم والنقد الواعى أن رجلاً يعلم علماً وهو صبى صغير ثم يكتمه وينتظر ربع قرن لا يبدو عليه منه شئ ثم يبوح به؟ أتراه كان ينتظر انقضاء زمن خطورة هذه المعلومات على الأمن القومى لمكة؟!

قال: فهذه سخرية صريحة لم أعهدها منك!

قلت: وهل دفعنى إليها إلا أنك تركت ساحة الجد إلى مرابض الهزل!

ثم قل لى: التقى بحيرى النبى عليه الصلاة والسلام وحده؟

قال: إن السير تقول إنه كان فى قافلة من تجار قريش.

قلت: ونقدك الواعى يرى أنه وسط هذا الجمع الغفير انفرد بحيرى بصبى صغير يوماً أو أياماً قدر ما يستريح المسافرون فعلمه علم الأولين والآخرين؟!

قال: ربما ألقى إليه أصول هذه القصص والأخبار وقص عليه طرفاً منها ثم أكمل هو الباقى؟

قلت: فإن العرب الذين أفحمهم القرآن وبكَّتهم وأرغم أنوفهم قالوا فى القرآن إنه شعر وإنه سحر وإنه كهانة فهل سمعت عن أحد منهم قال: إن هذا القرآن علم تعلمه عليه الصلاة والسلام من راهب قبل خمسة وعشرين عاماً؟

قال: لا أعرف.

قلت: بل تعرف وجفونك المنتفخة شاهدة عليك. فقل لى: لك صديق وهو كاتب كبير.

قال: أين أحجياتك؟ لم أسمعها من زمن.

قلت: وهو عَلَم فى الناس ولكنه سرق كتاباً فادعاه لنفسه حتى صار يعرف به.

قال: يا له من خسيس!

قلت: ثم ثارت بينكما خصومة وملاحاة وادعى عليك الكذب وشنع. فإن كنت لم تخبر عنه وعن سرقته الكتاب وهو لك صديق حبيب أتسكت عنه وهو عدو لك مخاصم؟

قال: لا.

قلت: فإذا كنت تعلم أن شهوداً شهدوا سرقته الكتاب ويعلمون تفاصيلها ألا تستشهدهم عليه؟

قال: ألا ترى أن هذا موقف لا يسكت فيه خصم عن خصمه، فما بالك وأنا أملك عليه الحجة وما أفضحه وأخزيه به؟

قلت: أفتترك الحجة الواقعة بدلائلها وشهودها ثم تبحث عن الحجة فى الأوهام وما لا دليل عليه ولا سبيل لتصديقه.

قال: أتظن أنى مخبول!

قلت: فقل لى أيها الناقد الواعى: لو كان القرآن من بحيرى هذا أكانت قريش وقد شهد كبارها هذا اللقاء الخرافى تترك هذه الحجة فلا تذيعها وتنشرها وتنتصر بها وتأتى بالشهود عليها؟ ألا يدلك عدم استشهاد أحد منهم بهذا اللقاء وتركهم له إلى غيره من الحجج التى اخترعوها أنه لم يكن له أثر ولم يحدث فيه شئ يذكر؟

قال: فلنقل إنه كان قليل الأثر.

قلت: بل عديم الأثر. ثم تأمل هذه الواقعة وقل لى: أسمع أحد عن بحيرى هذا قبل هذا اللقاء أو بعده؟

قال: لا أدرى.

قلت: فعدم درايتك به تدل على أنه نكرة فى التاريخ. أفيسوغ العقل أن يأخذ الواضح البين من المجهول المطموس، وأن يكون مصدر المعرفة نكرة؟

قال: ربما منحتُ لقاء بحيرى أثراً أخطر مما يستحقه، ولكن لا يرد إلى خلدك أن الأمر انتهى فما زال فى جعبتى المزيد.

قلت: وإنى على استعداد لمزيدك هذا.

قال: أن يكون بحيرى أو غيره لم يعلمه القرآن ولم يخبره به لا ينفى أن يكون له مصادر سابقة عليه. وإنى لا زلت عند قولى رغم سخريتك منه. إن النقد الواعى والنظر السديد ليقول: إن المصدر اللاحق لابد أن يكون قد أخذ عن السابق.

قلت: فإنى مع نقدك الواعي هذا إلى باب الدار!

قال: أنت قاص كبير.

قلت ضاحكاً: ها قد بدأت أنت أيضاً فى الأحجيات حتى لا تعيبها علىَّ بعد ذلك.

قال: فمن أين تأتى بمادة ما تكتب وكيف يتكون عقل القاص فيك؟

قلت: الحظ مجتمعى وما حولى والناس وأحوالهم.

قال: وفقط؟!

قلت: لا. بل أتعرف ما كتب قبلى وأحاول استيعابه وأحضر مجالس الأدب حتى أكون كما قال ابن المقفع: شربت الخطب رياً، وحفظتها روياً، فغاضت ثم فاضت، فلا هى هى ولا هى غيرها.

قال: قف مكانك! قد وصلنا! فانزع لى الغموض الذى يلف هذه العبارة حتى تشرق كشمس الشتاء من بين السحاب.

قلت: فإذاً أنهل مما حولى من ثقافة وأدب حتى أرتوى ثم أشكل منها وأصوغ.

قال: يا لك من أديب بارع!

قلت: أوقد انتهت أحجيتك؟

قال نعم! فلماذا لا يكون القرآن نتاجا لثقافة يهودية ونصرانية أخذ منها شيئاً فشيئاً وترسبت فى عقله وساهمت فى تكوينه فغاضت ثم فاضت كما قال ابن المقفع؟

قلت: قد تبادلنا المواقع فأنت تقول الأحجيات وأنا الآن أقول لك كما كنت تقول لى: البينة ... البينة ... أين البينة على ما تقول؟

قال: هل هذه تحتاج إلى بينة؟ إن هذه الثقافة تكونت من التوراة والإنجيل.

قلت: أى توراة؟ وأى إنجيل؟

قال: أى توراة؟! وأى إنجيل؟! أليست التوراة والإنجيل موجودة قبل القرآن بمئات السنين؟

قلت: ليس هذا ما قصدته. وإنما أتراه عليه الصلاة والسلام تثقف بالتوراة والإنجيل مكتوبين بالعبرية والسريانية واليونانية أم بالعربية؟

قال: فلنجعلها هكذا وهكذا.

قلت : فابدأ بوحدة .

قال : بالعبرية والسريانية واليونانية .

قلت : إن نقدك هذا لو سلطته على الكرة الأرضية لأزالها من الوجود! هل نسيت أنه عليه الصلاة والسلام والعرب جميعا أميون، وبالكاد يعرف نفر منهم قراءة وكتابة العربية . أترى أنهم كانوا يجهلون قراءة وكتاب العربية لغتهم ويجيدون غيرها أيها الواعى؟

قال : ربما!

قلت : بدأت تحرن من جديد! فلو كان عليه الصلاة والسلام يعلم العبرية والسريانية لما كان هناك داع لأن يندب زيد بن ثابت ليتعلمها حتى يأمن شر اليهود على القرآن .

أما ترى أنه لا يمكن أن يكون على علم سابق بما فى التوراة والإنجيل؟

قال : تريد إغلاق الباب وكان الأمر استقر والمسألة انتهت! لا . ليس بعد . فإذا لم يكن قد قرأ التوراة والإنجيل بلغاتها فما يمنع أن يكون قد عرفها بالعربية؟

قلت : فكيف وهو لا يقرأ ولا يكتب؟

قال : فهذه الأمية لا تمنع معرفته بما جاء فيها . فقد كان يمكنه الاطلاع عليه مما يقال ويتناقل ويرويه من حوله .

قلت : ومن يعرف ممن حوله إذا كان لا يوجد نص على عهده عليه الصلاة والسلام من التوراة والإنجيل بالعربية؟

قال وهو يقلدنى : لقد فقدت الحجة فبدأت تترك ساحة الجد إلى مرابض الهزل .

قلت مبتسماً : أفسنتبادل المواقع ثانية .

قال : لا أدرى كيف تواتيك الجراة حتى تصدر حكماً ضخماً كهذا؟ وهل أنت استقصيت تاريخ العرب فى الجاهلية وعند بدء الإسلام كله، وتفاصيل

حياتهم ومصادر ثقافتهم حتى تصدر حكماً كهذا الحكم، لا أدرى ماذا أقول: المجنون!

قلت: لا تسئ الظن بى! نعم لم أستقص ذلك كله ولكن عندنا من الدلائل والقرائن ما يكفينا. فإذا كان عندنا ما ينفى وليس يوجد ثمة ما يثبت، الا يكون ذلك كافياً حتى تجد أنت أو غيرك ما يناقضه؟

قال: فقل لى: أين هى هذه الدلائل والقرائن التى تجعلك تصدر مثل هذا الحكم الهائل؟

قلت: أتعرف حجة الإسلام؟

قال: أبو حامد الغزالى؟

قلت: نعم! هو بعينه.

قال: وما الذى أدخله فيما نحن فيه؟

قلت: فإنه أول القرائن والأدلة!

قال: أتأتينى برجل كان يعيش بعد الزمن الذى نتحدث عنه بقرون طوال ثم تقول لى: هو أول القرائن والأدلة؟!

قلت: بل والأعجب أن ما قلته أنت عنه الآن هو القرينة وما تتعجب منه هو الدليل!

قال: ألم تكتف من هذه الألغاز؟

قلت: هل تعرف شيئاً عن حال الثقافة فى زمن حجة الإسلام؟

قال: يسيراً؛ كانت رقعة الدولة الإسلامية متسعة، والترجمة مزدهرة وكتابات الإغريق وعلومهم الفلسفية والكلامية شائعة، والحروب الفكرية بين الفرق على أشدها، والصلات بين الدولة الإسلامية والروم قائمة.

قلت: لا نحتاج لأكثر من هذا اليسير الذى تعلمه. فرغم اتساع رقعة

الدولة وانتشار المعرفة وتنوع مصادرها وازدهار الترجمة فلم يكن فى عصر الغزالى ترجمة عربية واحدة للإنجيل وبالأحرى للتوراة.

قال: عدت إلى الأحكام المجنونة! ومن أدراك؟

قلت: الغزالى نفسه! فإنه أراد أن يؤلف كتاباً يفند فيه عقائد النصارى فسماه «الرد على مدعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل» فلم يجد نسخة عربية واحدة من الإنجيل يرجع إليها واضطر إلى الاستعانة بمخطوط قبطى.

فهل يقول النقد الواعى إن الغزالى لم يجد نسخة عربية من الإنجيل فى عصر الثقافة الواسعة المتنوعة والترجمة المزدهرة، ثم توجد هذه النسخة قبله بأربعة قرون فى قبائل أمية مفرقة فى بيداء شبه معزولة عن العالم ليس لها حظ من العلم ولا نصيب من الثقافة.

قال: مازلت أرى حكمك مجنوناً؛ فإن الغزالى مهما كانت قدرته واطلاعه فهو رجل وحده، ولم تكن طبيعة العصر ووسائل البحث بالتى تسمح بالتنقيب والوصول إلى مثل هذه النسخة أو النسخ التى تنفى أنت وجودها وانتشار تأثيرها الثقافى فى فكر العرب ومن ثَم القرآن.

قلت: إن سعادتى بك لا توصف! فإنك دائماً ما تنقذنى وتعطينى أنت الحجة عليك.

قال: ماذا أقول؟! لا فائدة فيك! أين هى هذه الحجة؟

قلت: هاك الدليل من عصر التوثيق ونضج وسائل البحث والتنقيب. هات هذا الكتاب الضخم إلى جوارك.

قال وهو يتصفحه: شعراء النصرانية فى الجاهلية. الأب لويس شيخو.

قلت: نعم وليس وحده، بل عكف سنين عدداً مع فريق جنَّده لجمع ما تراه بين يديك.

قال: أين الدليل فيه؟ إنى لأراه دليلاً عليك. فإذا كان الكتاب عن النصرانية فى الشعر الجاهلى فإنه يثبت وجود هذه الثقافة فى الجاهلية لا انعدامها.

قلت: فإنى سأعطيك ما تريد وأمنحك جائزة ضخمة، وأهم من ذلك سأعترف لك وأقر بالنقد الواعى لو أثبت أن فى هذا الكتاب الضخم الفخم الذى احتشدت له كتيبة من النقاد الواعين أمثالك شيئاً يمت للنصرانية بصلة غير عنوانه!

قال وهو يقلب فيه: أراك واثقاً مما تقول.

قلت: فخذه وتأمله بعقلك السديد ونقدك الواعى، فإذا كان الأمر كما أقول فإنى لا أنتظر منك أقل من أن تعترف أن نقدك الواعى لو وضع فى ميزان النقد الواعى لما صار نقداً ولا واعياً!

* * *

قلت: ها! إلى أين وصل بك نقدك الواعى؟

قال: حقيقة لم أستطع الوصول إلى الطريقة التى استمد بها القرآن من التوراة والإنجيل.

قلت: إن عبارتك لمريبة!

قال: فإنك قد نفيت وجود المصدر التوراتى أو الإنجيلى فى البيئة العربية والذى يمكن أن يستمد منه القرآن.

قلت: أو ليس هذا كافياً لإثبات أن القرآن ليس منهما بل هو من الله عز وجل؟

قال: لا. ليس كافياً! فهذه مسألة وتلك أخرى.

قلت: وما هى الأخرى هذه؟

قال: إن عدم وصولى إلى الطريقة التى أخذ بها القرآن من التوراة والإنجيل لا ينفى حدوث ذلك. فإن الزمن قد تباعد وربما انتقل هذا التأثير وضاع خبره فى التاريخ.

قلت: ما رأيك؟ ساروى لك طرفة!

قال: طرفة! أم حيلة من حيلك؟!

قلت: يقال إن جحا سُئل: الشمس أكثر فائدة للناس أم القمر؟

قال: وهل هذا سؤال؟ وهل يقارن بين الأصل والفرع والمتبوع وما يتبعه؟ فهل يأخذ القمر نوره إلا من ضياء الشمس؟

قلت: فهذه هى الطرفة. رغم كل ما تقول فإن جحا أجاب باقتدار وثقة: القمر أكثر فائدة لأنه يأتى فى الليل والدنيا مظلمة. أما الشمس فلا تطلع إلا فى النهار والناس فى غنى عنها!!

ضحك عالياً وهو يهتز أماماً وخلفاً ثم قال: يا له من مغفل!

قلت مبتسماً: هون عليك ولا تقس على نفسك هكذا يا جحا!

قال مبهوتاً: أنا! جحا!

قلت: وهل فعلت أنت إلا كما فعل جحا. أما ترى أنك ما زدت على أن نسبت القرآن الثابت الخالد الذى لم يتغير ولم يتبدل ولم تختلف نسخه إلى التوراة والإنجيل المتقلبة من عصر إلى عصر، المتضاربة من نسخة إلى نسخة، المجهولة المصدر فى التاريخ؟

فهل يسوغ فى العقل أن يستند القوى إلى الضعيف ويستمد المحيط من البئر؟

قال: دعك من هذا الإنشاء، فإن العقل ليقول إن التشابه بين القرآن وما جاء فى التوراة والإنجيل لابد أن يكون لأن أحدهم نهل من الآخر، فمن سبق فى التاريخ فهو النبع ومن لحق فهو الآخذ.

قلت: إنك تنسى أن القرآن نفسه لم ينكر الصلة بينه وبين التوراة والإنجيل. أليس القرآن نفسه يقول: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران: ٢ - ٤]؟

قال: وهل رأيتنى أقررت لك بعدُ أن القرآن إلهى حتى تقول لى: إن التوراة والإنجيل من الله؟ ما زدت على أن فسرت لى الماء بعد جهد بالماء! فإنك تقول لى: إنها متشابهة لوحدة مصدرها، وأنا أقول لك: إنها ما كانت كذلك إلا لأن أحدها أخذ من الآخر.

قلت: مهلا مهلا! فإنى لم أقل لك إنها متشابهة. وإنما قلت: إن بينها صلة، ليست هى التشابه بل هى هيمنة القرآن عليها مبيناً ما خفى، ومصححاً ما حرف، ومعيداً ما بدل إلى أصله وصوابه. فالقرآن الذى أقر بهذه الصلة يقول: ﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]

قال: أراك قد أعيتك الحيلة فتبحث عن منفذ تهرب منه. فدعك من هذه الهيمنة، فليست هى ما نحن فيه.

قلت: بل ليس ما نحن فيه إلا هى. أرأيت لو أخذ القرآن من التوراة والإنجيل وكانا مصدره أما كان ينبغى أن يتشابه معهما فى كل شئ بل يتطابق معهما؟

قال: فها قد حكمت بنفسك! أليس هذا هو الواقع؟ ألا ترى تشابه قصص القرآن مع ما جاء فى التوراة والإنجيل؟

قلت: ترفق ولنتأمل المسألة بروية. ما هو لب كل دين وقاعدته التى يتأسس عليها؟

قال: لا ريب هى العقائد؟

قلت: ها قد كفانا عقلك الواعى مشقة البحث وأراحنا من المتاهات التى يفضى بعضها إلى بعض ولا آخر لها. فلنجعل حديثنا فى لب كل كتاب لنرى أين هو التشابه الذى تزعمه.

أتحب أن نبدأ بالتوراة أم بالإنجيل؟

قال: بالإنجيل فهو أقرب زمنا للقرآن.

قلت: فعليك بالإنجيل وعليَّ بالقرآن.

قال في سرور وجذل: أراها ستكون موقعة مثيرة!

قلت: فانظر في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى وقل لى: بم يصف المسيح نفسه؟

قال: «قال له رئيس الكهنة: أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا: هل أنت ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت».

قلت: فها أنت ترى يسوع أقر على لسان الإنجيل أنه ابن الله.

قال: فأين الإقرار؟ إن «أنت قلت» هذه قد تعنى التبرؤ من ذلك بنسبة القول إلى الكاهن لا إلى نفسه.

قلت: لا أدرى من أى صخرة قُدت رأسك؟! فإن هذه الجملة ترد مرات عدة في الإنجيل دليلاً على الموافقة، ورغم ذلك فها هى الموافقة صريحة. فانظر فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس أو الثانى والعشرين من إنجيل لوقا وقل لى: ماذا كان رده على السؤال؟

بحلق أمامه ثم قال: «أنا هو».

قلت: فالمسيح فى الإنجيل ابن الله، فكيف يكون القرآن استمد من الإنجيل وهو ينفى عن الله - عز وجل - الولد، فهو واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويقول فى نقض ما نسبوه زوراً إلى المسيح: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، بل ويجعل هذا النفى والنقض على لسان المسيح نفسه: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي

بحقّ﴾ [المائدة: ١١٦]. فها أنت ترى أن المسيح فى القرآن ليس إلا ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال: فهذه واحدة!

قلت: نسيت أنك لا يكفيك من البينات إلا ما تعجز عن عده الحاسبات!

قال: فاسخر ما شئت. أتظن سخريتك ستجعلنى أتراجع؟

قلت: وهل جعلتك تتراجع من قبل حتى تتراجع الآن؟

فقل لى: ما الحكمة وقد جعلوا المسيح لله عز وجل ابناً فى أن ينزل إلى الأرض؟

قال: فهذه لا تحتاج إلى قراءة ولا تنقيب. ليُصلب فداءً للبشرية وتخليصاً للعالم من خطيئته.

قلت: بل أنا الذى أريدك أن تقرأ. فقد تعودت منك المراوغة والتفلت ولا أضمن أن تعود بعد حين فتقول لى: إن هذا قالوه أو اتفقوا عليه فى المجامع والإنجيل منه برئ.

قال مبتسماً: تريد أن تحيك الشبكة فلا تترك فيها ثلمة.

قلت: أليس كل منا يشحذ ما يستطيع من أسلحته؟ فاقرأ ها هنا من إنجيل لوقا.

قال: «وإن ابن الإنسان قد جاء ليصلب ويخلص ما قد هلك».

قلت: فأين الإنجيل الذى يُحمِّل المسيح أوزار البشرية كلها حتى ليهدر دمه من أجلها من القرآن الذى يجعل كل فرد مسئولاً عن نفسه لا ينفعه والد ولا يحمل وزره عنه ولد ولا يؤخذ فيه برئ بجريرة ظالم؟

وأين الإنجيل الذي يحمل كل فرد فى البشرية وزر خطيئة لم يرتكبها يولد مغلولاً بها من الفرد الذى يولد فى القرآن نقياً طاهراً ولا يحمل من الأوزار والآثام إلا ما جنت يداه.

أليس القرآن يقول: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]

قال: فهذه ثانية!!

قلت: فماذا تريد بعد هذا الاختلاف البين والمفارقة الصارخة؟!

قال: لن أتنازل عن الثالثة.

قلت: فما كان مصير عيسى عليه السلام كما يقول الإنجيل؟

قال: إنه يقول: ....

قلت: انتظر!

قال: نسيت! تريدنى أن أقرأ. وأخذ يقلب الوريقات مرددا: الصلب... الصلب... ها هو ... إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عشر: «فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع... فقال لليهود: هو ذا ملككم. فصرخوا: خذه اصلبه. فحينئذ أسلمه إليهم ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه من هنا ومن هنا ويسوع فى الوسط».

قلت: كفاك هذا. ها قد رأيت بعينيك الإنجيل يقول: إنه عذب وأهين ثم صلب. وأما القرآن فيكذب ذلك كله فى حسم قاطع ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

فقل لى: من أين تنبع مياه النيل؟

قال: وهل انتهينا من العقائد لندخل فى الجغرافيا؟!

قلت: أجبنى فقط وانتظر!

قال: من الأمطار الهائلة التى تهطل على هضبة الحبشة وهضبة البحيرات فتتدفق أنهاراً وروافد تجتمع لتكون النيل.

قلت: فإنى أخالفك وما أراه ينبع إلا من صحراء إفريقيا الكبرى!

قال: يبدو أنك بدأت تهذى! أتنبع الأنهار من الصحارى القفار؟!

قلت: فأنا لن أصدق أن القرآن والله الواحد الأحد الفرد الصمد آتية من الإنجيل الذى جعل الله - عز وجل - ينجب ويتثلث ويتأقنم ويهان ويصلب حتى تثبت لى.. إن استطعت أن النيل ينبع من صحراء إفريقيا الكبرى.

قال مبتسماً: إنك لدؤوب ماهر ولا تزال تنسج الشبكة حولى وتختار من خيوطها ما يوافقك ويعينك على حبكها ثم تطالبنى بالتسليم داخلها.

قلت: فتأمل أنت وتفكر ملياً واختر من الخيوط ما تشاء. الا ترى أن الأناجيل التى بين يديك كلها لتدور كل خيوطها وتلتقى على عقدة واحدة ليس فيها غيرها؟

قال: فإذا كان الإنجيل لا يمكن أن يكون مصدراً للقرآن للاختلاف البين فى عقائدهما، فلا أظنك تمارى فى أن عقيدة القرآن التوحيدية لتشابه عقيدة التوراة حتى ليتطابقا. وإن هذا التشابه بل التطابق لينبئ بما أصر عليه أنا وتأباه أنت من أن صلة القرآن بالكتب قبله هى صلة الآخذ بالنبع.

قلت: فأين هذا التشابه والتطابق الذى تدعيه؟

قال: أدعيه!؟ تعرف! إنك فى بعض الأحيان تثير ذهولى؛ فإنى لأراك تنكر ما يسطع سطوع الشمس!

قلت: يسطع كالشمس! هكذا مرة واحدة!

قال: أتظننى سأنساق خلف سخريتك هذه وأشغل عن خيوط الشبكة التى أراها تلتف حولك هذه المرة ولن أتركك إلا وأنت فيها.

قلت: فهيا أرنى مهارتك أيها الصائد الهمام.

قال: أليس الله فى القرآن واحداً أحداً لا شبيه له ولا نظير ولا ولد؟

قلت : بلى! هو كذلك عز وجل.

قال : اليس الله فى التوراة واحداً أحداً.

قلت : وهذه أيضا بلى.

قال فى سرور: ها قد انتهت المسألة، فعقيدة التوراة هى عقيدة القرآن، فلابد أن أحدهما نهل من الآخر.

قلت : إن ابتسامتك المشرقة هذه لتروق لى وتعجبنى. ولكن من قال إن عقيدة القرآن هى عقيدة التوراة؟

قال : أستعود فيما أقررت به ولما تنتهى منه؟

قلت : ما عدت فى شئ. ولكن أسمعت عن أحد يصنع شبكة من خيط واحد لا سواه؟

قال : خيط واحد! أما تريد أن تكف عن ألغازك هذه؟ هذه التوراة وهذا القرآن بينى وبينك.

قلت : عظيم! فلنقطع العرق ونسفح دمه كما يقولون، سيما وأنت تعشق المواقع المثيرة.

فاقرأ لى....

قال مقاطعا بسرعة : أقرأ لك! ذلك زمان قد ولى! أتريد أن تختار ما يعجبك كما تفعل فى كل مرة؟ بل اقرأ لى أنت هنا.

قلت : أين بالضبط؟

قال : الإصحاح الخامس من سفر الخروج.

قلت : فها قد اخترت ما تحب فكن أنت شاهداً على نفسك.

«وبعد ذلك دخل موسي وهارون وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب إله إسرائيل : أطلق شعبى يعبدوا لى فى البرية فقال فرعون : من الرب حتى أسمع

لقوله فاطلق إسرائيل؟ لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه . فقالا : إله العبرانيين قد التقانا » .

قال : ما رأيك في الخيط الأول؟ أليست هذه العبارة هي هي التي ترجمها القرآن ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه : ٤٧] .

قلت : وترى أنت بعبقريتك خيط الحرير الذى يبرق من كل ناحية فى عبارة القرآن كالحبل المجدول من الليف فى عبارة التوراة؟

قال : دعك من هذه التشبيهات التى لا تقدم ولا تؤخر .

قلت : بل دعك أنت من خيوطك وقل لى : أى إله يتكلم عنه موسى فى التوراة؟

قال : أى إله! ألم تقرأ أنت بنفسك؟ إله إسرائيل .

قلت : وإله العبرانيين . وهم فقط دون العالمين شعبه .

قال : آه!

قلت : أفترى أن هذا الإله الذى جعلته التوراة رباً قبلياً لليهود فقط وهو فيهم كالملك فى قومه أو شيخ القبيلة فى قبيلته هو الله رب العالمين فى القرآن، بل ورب فرعون نفسه؟ أما يقول موسى له فى القرآن ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ ؟

ثم هل نسيت أم تناسيت – عمداً – أن تكمل خيط القرآن إلى نهايته . ألم يسأل فرعون موسى في القرآن : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٩] فأجابه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠]، أفترى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ هذه تساوى « العبرانيين » أو « إسرائيل » التى فى التوراة؟ ألا ترى أن شبكتك واهية؟

قال : فذلك خيط قد فلت والخيوط كثيرة .

قلت : فهذه المرة اقرأ أنت من الإصحاح الثانى عشر .

قال: عدت لواحدة بواحدة مرة أخرى! فتذكر ذلك ولا تنساه.

«وكلم الرب موسي وهارون فى أرض مصر قائلاً: ... كلّما كل جماعة إسرائيل قائلين: فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى يوم الرابع عشر من هذا الشهر ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلون فيها... ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة الهلاك حين أضرب أرض مصر».

قلت: أتعرف ما هى هذه العلامة التى أمر إله التوراة بوضعها ليميز بيوت شعبه من بيوت أعدائه؟

قال: أنا لا أراها أمامى.

قلت: بل تراها على الأبواب أينما سرت! إنها الكف والأصابع الخمسة التى يضعها الناس على أبواب بيوتهم ليدفعوا عنها الشرور، وهم لا يعلمون أنهم يحيون بذلك سيرة اليهود وإلههم الجاهل!

قال: ما هذه التخاريف؟

قلت: الحمد لله. ها قد سبقك لسانك قبل أن يحرن عقلك. أفترى هذا الإله الجاهل الذى يحتاج إلى علامة ليعرف بها أنصاره ويميزهم من أعدائه هو هو الله الواحد فى القرآن؟

قال شارداً فى صوت خافت وهو يشخص ببصره إلى الفراغ خلفى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر: ١٩].

قلت: وأزيدك أنا حتى لا تنسى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ها! أما زلت لا تريد أن تقر أن شبكتك واهنة الخيوط واهية العقد واسعة الثقوب لا تصلح ليستقر فيها شئ؟ انتفض من شروده قائلاً: ومع ذلك فما زالت الشبكة شبكة وإن وهت روابطها ووهنت خيوطها.

قلت: فإليك الثالثة حتى تنفك عقدها وتنقطع خيوطها فلا يبقى منها إلا نتف لا تحجز ولا تمنع. هذا هو الإصحاح الثاني والثلاثون. اقرأ هذا الموقف الإغريقي المضحك.

قال: «فقال الرب لموسى... لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من مصر وزاغوا سريعاً عن الطريق الذى أوصيتهم به... فالآن اتركني ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم. فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه».

قلت: ما رأيك؟! لو تأملت هذا الموقف المأساوى الملهاوى أيمكنك أن تقول لى من فيهما العبد ومن الرب؟: موسى الذى يبكت ويوبخ ويدلل على خطأ الحكم أم الإله الذي يثور غضباً ثم يندم ويتراجع عن قراره مخافة الفضائح وكلام الناس؟!

قال مبتسماً: لولا أنى أنا الذى قرأت لظننت أن هذا فصل من إحدى المسرحيات الإغريقية. فلا يكاد يفرق الإله عن زيوس كبير آلهة الأوليمب الغضوب النزق شيئاً.

قلت: أفترى أن مثل هذا الإله البشرى الأهواء والنزعات - كما شهدت أنت - هو هو الله الواحد الأحد فى القرآن الذى ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهو الذى عنده ﴿ **خَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا** ﴾ [طه: ١٠٨]؟

أطرق صامتاً فى سكون فقلت: هل تعرف أحدث نظرية علمية معملية فذة عن مصدر مياه المحيط الصاخبة وأمواجه الهادرة؟

قال بابتسامة فيها الشك والخبث: عدنا إلى الجغرافيا مرة أخرى!

قلت: المحيط مُلاء بها من البئر بدلو!!

قال ضاحكاً في صخب: فلا يكون القرآن نابعاً من التوراة حتى تكون مياه المحيط الصاخبة وأمواجه الهادرة أفرغت فيه من البئر بدلو؟!

قلت وأنا أميل إليه وأضحك معه: عليك نور!

* * *



العرب والقرآن

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

[الإسراء: ٨٨]

قلت متبسماً: قد افتقدت عنادك ومشاغباتك وصخورك.

قال: سبقتنى! فقد كنت أوشك أن أقول: افتقدت ألغازك وأحجياتك.

قلت: قد طالت غيبتك حتى ظننت أنك اكتفيت ولن تأتى.

قال: لا أكتمك أنى قد تركتك المرة الماضية وأنا مشغول العقل مشتت الفكر قلق النفس.

قلت: ارفق بنفسك وقل لى: ما الذى شغل عقلك وشتت فكرك وأقلق نفسك هكذا؟

قال: ما زلت منذ تركتك أتفكر فى الأمر وأقلبه من جميع جوانبه فأجد ما وصلنا إليه معقولاً.

قلت: عظيم! فإن ذلك أدعى لأن يستريح عقلك وتقر نفسك ويهدأ بالك.

قال: ورغم ذلك ظللت أحس أن هناك شيئاً خافتاً يقلقنى ويجعلنى مشتتاً بلا قرار. وقد مكثت من الليالى عدداً أتطلع للسماء وأستعيد ما دار بينى وبينك، وظللت من الأيام طويلاً أقلب الكتب وأوازن إلى أن اهتديت أخيراً إلى ما سلبنى القرار وما جعلنى أحس بعدم الراحة والاطمئنان.

قلت: فإن معرفة المشكلة هو نصف حلها. فما الذى اهتديت إليه؟

قال: أليس القرآن لم يكن نابعاً من النبى كما تقول ولم يأت به من نفسه؟

قلت: بلى!

قال: وهو أيضاً لم يأت به من كتب الأمم السابقة، ولا من علمائها وأحبارها ورهبانها؟

قلت: وهذه أيضا بلى!

قال: فإن ما أرقنى غامضاً خافتاً كالشرر تحت الرماد ثم لم يلبث أن ثار واشتعل فى نفسى لهيباً لا يخبو هو أن الأمر ما زال ناقصاً لم يكتمل.

قلت : أى أمر وأى نقصان؟

قال : إن كونى لا أستطيع الوصول إلى مصدر القرآن لا يعنى أنه كلام الله. فذلك شئ تنازعنى فيه نفسى ولا يكتفى به عقلى.

قلت : فما الذى يكفيك إذاً وتطمئن إليه نفسك؟

قال : لا تطمئن نفسى إلا ببرهان لا يقبل الشك يثبت لى نسب القرآن إلى الله، برهان إيجابى يثبت المصدر الإلهى للقرآن، لا مجرد برهان سلبى ينفى عنه المصادر البشرية.

قلت : فإن هذا يقتضى أن يكون حديثنا فى إعجاز القرآن ومعجزاته. فهل أنت متأهب لهذا الحديث؟

قال : وهل أسهدنى وسلبنى النوم إلا هذا التأهب؟

قلت : فلنبدأ بتعريف المعجزة ما هى لنعرف ما نريد.

وما إن انتهيت من جملتى حتى انطلق يهز رأسه يميناً ويساراً وكأنه يردد نشيداً من محفوظات المدارس: المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يدى مدعى النبوة وفق مراده تصديقاً له فى دعواه مع عجز جميع المكلفين عن المعارضة.

ابتسمت قائلاً: إن هذه لعلامة طيبة. فها قد عادت نفسك إلى القرار وعدت معها إلى المشاغبة والعناد.

قال : إذا كنت ستنطلق فى أمثال هذه القوالب الصماء فلا فائدة فى المقال ولا أمل فى القرار.

قلت : وعدت أيضاً إلى صخبك! ها أنت تسترد عافيتك شيئاً فشيئاً.

دعك من هذه التعريفات وقل لى : ماذا تريد من المعجزة لتكون معجزة ولكى يكون لك بها الدليل الذى تريد؟

قال : أن تقصر قدرة البشر جميعاً عن محاكاتها والإتيان بمثلها مع رغبتهم

الشديدة ومحاولتهم الدؤوب، وأن لا يزيدها الزمان والأيام إلا قوة ولا يزيدهم إلا ضعفاً وقصوراً.

قلت: فذلك لك. فدعنا نبدأ بأيسر الأمور وأبينها وهو أثر القرآن في العرب.

فقل لي: ما رسالة العرب قبل نزول القرآن فيهم؟

قال: رسالة! أى رسالة؟! وهل كانوا إلا قبائل بادية فى غالبهم لا يعرفون فلاحة ولا ملاحة؟ وإنما يتتبعون الكلأ والعشب يطعمون ماشيتهم ثم يطعمون هم منها، ومن لم يجد كلأً ولا ماشية أكل الضب واليرابيع.

وهمة الهمام فيهم أن يغير فيسلب وينهب، ثم تدور عليه الدائرة فيُسلب ويُنهب وهلم جرا.

قلت: إن رأيك فيهم لشديد السوء وكأنهم أعداؤك!.

قال: وإنك لتدافع عنهم وكأنهم أحبابك! فهل قلت إلا ما ذكره التاريخ، بل أدنى مما ذكره؟ وهل ثمة بعد الإغارة على الأخ سوء؟ أليس شاعرهم يفخر بقومه حين يفخر فيقول:

أغرن من الضباب على حلال وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

أفترى الذى لم يجد ما يغير عليه فأغار على أخيه يرجى فى خير أو فلاح؟

قلت: قد كفيتنى مؤونة البحث وعناء الإقناع. فإن هذه لهى معجزة القرآن فيهم.

قال: أى معجزة؟! وما علاقة القرآن بالسلب والنهب؟!

قلت: تأمل دون أن تقلب التاريخ وتجعل رأسه على الأرض وقدميه فى السماء. هؤلاء البداة الجفاة الذين يعيشون على الإغارة والسلب والنهب كما تقول أنت، وهم إذا تغلبوا على وطن أسرع إليه الخراب كما يقول ابن خلدون،

فخربوا مبانيه لينصبوا بها أثافى القدر، ونزعوا سقفه ليعمروا بها خيامهم. فقل لى : لو هبطت بك آلة الزمن فى زمن هؤلاء أكنت ترى شيئاً يمكن أن يجمعهم أو يوحدهم أو يغير من نفوسهم الهائجة التى لا تعرف حداً ولا نظاماً إلا ما تسلب به وتنهب؟

قال : حقيقة لا أعرف شيئاً يمكن أن يجمعهم وهم إنما كانوا كذرات الرمال المتطايرة فى الريح لا يجمعها إلا تشتتها إلا أن يكون هذا الشئ عجيبة من عجائب الدهر.

قلت : أو من معجزاته.

قال مبتسماً : عدت لاستدراجي وحياكة الشباك حولي.

قلت : تعرف إني لأحسك تدفعني إلى هذا الإستدراج من طرف خفي وتعطيني الخيط لأحيك الشباك. وما أراك إلا راغباً فيها مستمتعاً بها رغم عنادك هذا الذي تصطنعه.

وقبل أن اتم جملتي أخرج منديلاً من جيبه ثم وضع وجهه فيه وكأنه يعطس ثم قال : فما زلت لا أفهم أين هي المعجزة؟

قلت : أيها المراوغ! أنقذك المنديل! فليكن! خذ فاقرأ من هنا.

قال : قصة الحضارة.

قلت : نعم فاقرأ.

قال : «وقد كان للقرآن أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى. وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية، وحضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء وبعث فى نفوس الأذلاء العزة والكرامة، وأوجد بين المسلمين.......

توقف فجأة قائلاً : ما هذا؟

قلت: هذه شهادة ول ديورانت على معجزة القرآن فى العرب ولا أظنك تكذبه.

قال: ولو! أتظن ألف خطبة عصماء يمكن أن تفتح باب عقلى مجرد فتح بله أن تدخل فيه شيئاً يقبله حتى ولو كان قائلها وحيد دهره وفريد عصره لا مؤرخا من المؤرخين.

قلت ضاحكاً: هدئ من روعك. الحمد لله. الآن تأكدت أن عافيتك قد عادت إليك تامة كاملة فقل لى أيها العنيد: من ينظر إلى العرب قبل نزول القرآن فيهم وبعد نزوله أيمكنه دون علم مسبق أن يقول: إن هؤلاء هم أولئك، أو أن يخمن أن عرب القرآن أتوا من عرب الجاهلية؟

قال: ربما! وهل توجد الأمة دفعة واحدة فى التاريخ؟ فربما كانوا فى طور من أطوارهم ينتهى بهم إلى ما انتهوا إليه.

فإن عين التاريخ لتقول إنه ما من أمة إلا وكانت متفرقة قبل توحدها وخاملة قبل ارتفاعها.

قلت: فعين التاريخ إذاً تقول إن النفس التى تغير على إخوتها وتخرب البيوت لتقيم المواقد والسقف لتنصب الخيام طور من أطوار النفس التى تقيم النظام وتشيد العمران وتنشأ الحضارة وتنشر العلم والحكمة وتنفذ فى أقطار العالم نفاذ الشمس فى الغيم، فلا يبقى شئ تحتها إلا اكتسى بضيائها؟

قال: أليس هذا هو ما تقوله عين التاريخ؟ فالحضارة أطوار تبدأ فى التراب، ثم تعلوا طوراً فطوراً حتى تصير فى السحاب.

قلت: فإنها لشهادة أشكر لك إنصافك فيها واعترافك بمعجزة القرآن فى العرب بها.

قال مستغرباً: شهادتى! ألن تكف عن ألغازك هذه؟

قلت: فإن أثر القرآن المعجز فى نفوس العرب لم يكن أطواراً أو طوراً ولا

حتى نصف طور. فلو طرفت عين التاريخ لما وجدت بين غلقها وفتحها إلا أمتين متباعدتين متباينتين، بينهما من الفرق ما بين ذرات الرمال المسفوحة مع الرياح لا تدفع الريح عن نفسها ولا تأخذ الدنيا منها إلا لسع وجهها، بين شمس السماء تبعث الحياة والنماء فى شعاعها والبصر والنور فى ضيائها.

قال: وخرجنا من الخطب العصماء إلى الشعر!.

قلت: ذكرتنى بالشعر!

قال: يا خلى النفس! أهذا وقت الشعر؟

قلت: وما عليك أن تستريح هنيهة نلتقط الأنفاس من هذه المبارزة الساخنة ونهيئ النفس بما يعيننا على إكمالها. ثم إنى لأعرفك ولوعاً بالشعر متذوقا له.

قال: أمرى إلى الله! ما هو هذا الشعر الذى هبط عليك وحيه فجأة؟

قلت: هل سمعت قول الشاعر الذى يقول:

ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعتُه ... به الذئب يعوى كالخليع المعيَّلِ

قال متبسماً: نعم سمعته ووقفت عنده. أترانى بحيث أجهل امرؤ القيس؟

قلت: فقل لى أيها الناقد الوقاف: ما الذى خرجت به منه؟

قال: ما أرى هذا الوادى الفلاة إلا نفسه والحياة والزمان.

قلت: وما شأن الفلاة بكل هذا؟

ابتسم فى سرور قائلاً: إن انهماك عقلك فى الشباك وحياكتها يجعلك لا تستطيع استجلاء الشعر ورؤية ما يحويه باطنه والوقوف على نفس الشاعر فيه. فذلك أمر عسير عليك بعيد عنك.

قلت: فكن رفيقاً بى وقربه إلىّ.

قال: سأحاول أن أُفهمك! إن الشاعر هنا ليقطع الفلاة وما به حاجة إلا قطعها والسير فيها.

قلت باستغراب: فإذا كان لا حاجة له في اجتيازها فما الذى يكلفه هذا العنت وهذه المشقة؟

قال واضعاً ساقاً على ساق: يقطعها لأن غموضها يشده لها ويجعله مجذوباً إليها.

قلت: وهل الفلاة ضريح لولى من أولياء الله الصالحين؟!

قال: لا تكن ضيق الأفق! إن العربى لينظر إلى الصحراء فلا يقطعها نظره ولا يأتى على آخرها سيره، ويرى نفسه في جوفها لا يعرف من أين ابتدأت ولا اين تنتهى ، ولا كيف وجد فيها، وأى غاية فى إحاطتها به إحاطة جوف العير بما فيه.

قلت: إن تفسيرك ممتع! فاكمل إنى لك سامع.

قال: فإذا رأى امتداد الصحراء ورهبتها وخلودها يأتى هو وآباؤه إليها ثم يذهبون وهى باقية، رأى فيها الزمان والدهر لا يعرف من أين ابتدأ وإلى أين ينتهى وفى أى مرحلة هو منه ولماذا وجد فيه، ورأى فى مسيرته فى الصحراء لا تطويها رحلةَ حياته فى الزمان لا تعرف نهايته، تفنى هى ويبقى هو.

قلت: إنك لأديب بليغ وإنك فوق ذلك لفيلسوف.

قال: وإن ترجمة ما رآه امرؤ القيس فى الوادى الفلاة من الزمان والحياة والنفس لفى قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع   وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ

....

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ألا ترى أنه ما يرى نفسه بين المولد والممات إلا كسطوع شهاب لا يلبث أن يستحيل رماداً تذروه الرياح.

وأما النجوم والجبال رفاق الصحراء وندامى الزمان فباقية خالدة أبدية؟

قلت : إن هذا كان ليصيب العربى بالحزن والأسى العميق.

قال مقاطعاً لى : وأهم من ذلك الحيرة والقلق العميق - قلق الوجود ومعناه والسؤال المرير لكل شئ حوله: يسأل ناقته فى شموخها وجلدها ووقع خطاها على رمال الصحراء، ويسأل فرسه فى كره وفره وانحطاطه من عل انحطاط نفسه كالشهاب فى الزمن. فإذا لم يجد عندها جواباً يمم شطر النجوم والجبال والوديان والقفار يسألها، فما يجد منها إلا صدى صوته ورجع خواء نفسه فيقول حزيناً كاسفاً :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صماً خوالد ما يبين كلامها

قلت : الحيرة والقلق والتمزق والتيه والتلهف عند كل شئ يطلب منه الجواب عن سؤال وجوده.

قال : نعم تلك هى خبايا نفس العربى فى شعره ووقوفه عند كل ما يحيط به إحاطة الزمان الصامت بحياته.

قلت مبتسماً : فأين هذا العربى التائه الحائر المتمزق الذى لا يعرف معنى لوجوده حتى ليسأل الجبال والنجوم والناقة والفرس عنه من العربى الذى يسيل فيه القرآن سيلاً فيحيله من بركة خاملة إلى أمواج هادرة، ومن تائه فى الزمان إلى قائد للزمان، ومن حائر فى الوجود إلى عين الوجود، ومن سائل متلهف إلى معلم لكل الكون. أليست هذه هى معجزة للقرآن فى العرب. أليست هذه.....

انتفض قائلاً : أيها المخادع! لقد أغريتنى بالشعر وأوهمتنى بالراحة حتى أترك الحذر وأنطلق على سجيتى.

وما فى الأمر إلا أنه خدعة منك. فلم أكن أنتظر منك أن تلجأ معى إلى أسلوب الضرب تحت الحزام.

قلت : اهدأ قليلاً! فليس فى الأمر خدعة ولا ضرب تحت الحزام.

أما عن الشعر فلا أخفى عنك أنى استمتعت بما قلت أيما استمتاع. وإنى لم

أكن أعلم حين بدأت أنك ستنطلق وتسترسل هكذا. على أن استرسالك ممتع وقد كشف لي فيك عن ناقد بصير وقارئ للنفس خبير.

وأما عنى، فقد كنت أرغب فى التلهى ببعض الشعر ويكون أيضاً بسبيل مما نحن فيه. فدع عنك هذا الغضب ودعنى فى متعتى بتحليلك الرائع.

قال بابتسامة شاحبة: على أنى يجب أن أحترس منك بعد ذلك وأضع فى حسبانى أنك ما تصعد بى ربوة إلا وخلفها هوة، وما تسير بى فى روضة إلا وتحت أرضها شَرَك.

قلت: فقل لى أيها الناقد البصير، العارف بالنفس الخبير: أهذا العربى التائه الحائر الممزق يمكن أن يكون هو ربعى بن عامر القادم من الصحراء ليدخل على رستم قائد الفرس مبعوثاً من سعد بن أبى وقاص فيقول له رداً على سؤاله من أنتم: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان والحكام إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة؟

قال فى هدوء: بل هو تصميم وبسالة ويقين وعزم ورسالة.

قلت مبتسماً: فما بين طرفة عين التاريخ وانتباهتها هل يمكن لشئ أن يجعل العربى التائه الحائر القلق هو صاحب التصميم والبسالة واليقين والعزم والرسالة إلا أن يكون معجزة لا ريب معجزة؟

نظر إلىَّ فى صمت ثم أطرق إلى الأرض متفكراً فى هدوء.

* * *

وما لبث أن رفع بصره إلىَّ ثم قال: إن العرب الذين حدثتنى عنهم وجعلت تحولهم حجة على معجزة القرآن فيهم هم العرب الذين خضعوا له وآمنوا به.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: فيه الكثير! فإن هؤلاء آمنوا بالقرآن إيماناً تاماً وسلموا له تسليماً

مطلقاً. وإنك لتعلم قدرة الإيمان الهائلة على شحن النفوس وتطويع القلوب وشحذ الطاقات. فكم من إيمان رفع أقواماً خاملة، وبعث الحياة فى نفوس هاملة، وفجر ما فجر من الطاقات الكامنة؟

قلت: فإن حال من لم يؤمن بالقرآن معه وشأن نفوسهم أمامه لأدل على معجزته وأبين لأثره فى نفوسهم.

قال: أين هو هذا الأثر وهم إنما كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يصدقوا أنه وحى من السماء وتنزيل من الله؟

قلت: بل كانوا يعلمون ذلك ويوقنون به، وإن اتهامهم للقرآن لدليل على تصديقهم به رغم جحودهم المعلن له.

قال: فمن أين أتيت بهذا التصديق واليقين؟

قلت: قل لى: إذا كانوا قد كذبوا القرآن ولم يؤمنوا به، فماذا قالوا عنه وما تفسيرهم له؟

قال: فذلك مشهور معروف. قالوا: إنه سحر.

قلت: وفقط؟

قال: وإنه شعر!

قلت: وماذا أيضا؟

قال: وإنه كهانة.

قلت: فانت الآن محقق مدقق.

قال مبتسماً: لك زمن لم تتحفنى بأحجياتك!

قلت: وجاءك رجل يدعى على خصم له، فإذا اتهمه بتهمة ماذا تفعل؟

قال: أستدعى خصمه وأحقق معه. وأتناول التهمة بالدراسة والتدليل لإثباتها أو نفيها.

قلت: فإذا أنت شرعت في التحقيق والاستدلال فجاءك الرجل بعد حين يتهم خصمه بتهمة أخرى ولا يذكر الأولى؟

قال: أشك في أنه كاذب.

قلت: فإذا أنت لم تكد تشرع في دراسة الثانية جاءك بالثالثة؟

قال: فهو مجنون لا محالة.

قلت: أو ....؟

قال: أو هو مفتر لا يجد في خصمه تهمة تليق به فينتقل من واحدة إلى أخرى.

قلت: فإذا كان صاحب هذه التهم المتوالية المضطربة جماعة متكاثرة على خصم واحد وكلٌ يرميه بتهمة غير الأخرى؟

قال متفكراً: لا أراه في هذه الحالة إلا خصماً بريئاً.

قلت: وهم؟

قال: هم حيارى لا يجدون شيئاً حقيقياً يقولونه فيه؛ فيرمونه بالتهمة ثم تراجعهم عقولهم فيها ويرون أنها غير قابلة للتصديق، فيبحثون عن ثانية ثم ينتقلون إلى الثالثة.

قلت: إنك لقاض نزيه! أليس هذا هو حال العرب الذين لم يؤمنوا مع القرآن؟ حيارى! يسمعون القرآن فتقف عقولهم أمامه ولا يجدون ما يقولونه فيه فيفترون عليه السحر، فتراجعهم نفوسهم وعقولهم فيه، فيرمونه بالشعر ثم بالكهانة. وهم في كل ذلك لا يعدمون من بين أنفسهم من يرد عليهم ويسفه رأيهم ويشهد للقرآن بالعلو على الشعر والسحر والكهانة.

هل سمعت عن أنيس أخي أبي ذر؟

قال: لا. ما شأنه فيما نحن فيه؟

قلت: وصف أبو ذر أخاه أنيساً فقال: «والله ما سمعت بأشعر من أخي

أنيس. لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية أنا أحدهم. وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبى ذر بخبر النبى عليه الصلاة والسلام.

قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر .... كاهن .... ساحر. لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقواء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر. وإنه لصادق وإنهم لكاذبون».

فإذا شهد عليهم من بين أنفسهم من يعرفون عقله ورأيه لم يستقر لهم حال ولا بيان، ولا يكون لهم من أنفسهم إلا العجز والخذلان؟

قال: انتظر! انتظر! إنك كعادتك تقفز من شئ إلى شئ! فما شأن اختلاف التهم وتفاوت وصفهم القرآن بالعجز والخذلان؟ وهل كل خصم يعدد التهم لخصمه صادقة أو كاذبة يكون شاعراً بالعجز والخذلان؟

قلت: بل هاك العجز والشعور بخذلان النفس صريحاً لا لبس فيه. فخذ فاقرأ.

قال: أقرأ! ألا تهدأ أبدا؟! أين أقرأ.

قلت: هاك السيرة وصحيح البخارى فاقرأ من أيهما شئت.

قال: هات! قال عتبة بن ربيعة يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

توقف فجأة قائلاً: ما هذا؟ ألا يكفيك ما أقرأه كل حين حتى أعيد ما قرأته من قبل؟

أتراهن على ضعف ذاكرتى؟

قلت مبتسماً: دع أول القصة وأكمل نهايتها التى لم تقرأها من قبل.

قال: أمرى إلى الله!! حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع منى. قال أفعل. فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. فقام عتبة لا يدرى بم يراجعه ورجع إلى قومه فقال لهم: والله لقد كلمنى بكلام والله ما سمعت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له.

قلت: ها! ألا يدلك صمت عتبة هذا وانقطاع قوله على إحساسه بالعجز أمام القرآن وقصور النفس عن أن تجد شيئاً ترميه به؟

قال: ما زال ذلك شيئاً بعيداً. فإذا كانوا - كما تقول - يحسون بالعجز والنقص والقصور أمام القرآن وارتفاعه عليهم وانخفاضهم عنه فلماذا رفعوا راية القتال أمامه؟ أهذا دليل على الإحساس بالعجز والقصور أم على القوة والأنفة فى المواجهة؟

قلت: بل هو دليل على العجز والقصور.

فقال: إن أمرك لعجيب! وإنك لتلوى عنق الحجة وتستشهد بها على خلاف ما تدل عليه وبراءة الأطفال فى عينك وكأنك لم تفعل شيئاً!

قلت: بل والأعجب أن احتشادهم لقتال القرآن وأهله ورفعهم راية الحرب أمامه لدليل على عجزهم من جهتين لا من جهة واحدة.

قال متهكماً: من جهتين مرة واحدة! فأين هى الجهة الأولى أيها العبقرى؟

قلت: شنهم للحرب واحتشادهم للقتال نفسه.

قال: لا أفهم شيئاً.

قلت: فقل لى: بم تحداهم القرآن؟: بأن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولو كأصغر سورة أم بالقتال والسلاح والمبارزة؟

قال: بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

قلت: فأنت الآن خصم عنيد!

قال: بعد أن كنت محققاً مدققاً جعلتنى خصماً عنيداً، ولا أدرى إلى أين ستنتهى بى أحجياتك؟

قلت: وخصمك يعالنك على الملأ انه سوف يقر ويسلم لك ويشهد بالهين اليسير تفعله، أتترك ما طلبه منك هيناً يسيراً وتتكلف العسير الذى يذهب مالك ويزهق روحك؟

قال: فإنى إذاً لمخبول.

قلت: أو عاجز عما دعاك إليه ولا تقدر عليه.

قال مبتسماً وهو يهز رأسه: أو عاجز.

قلت: فها أنت شهدت بنفسك أن حرب العرب لأهل القرآن إنما كان عجزاً منهم عن منازلة القرآن نفسه. فلولا هذا الإحساس منهم بالعجز عنده والتضاؤل أمامه، أما كان الأولى بهم أن ينزلوا ميدان القول ومعترك الكلام وهم حافظون لأموالهم متمتعين بأبنائهم وأنفسهم ويقضون بذلك على ما فرقهم ونغّص عليهم عيشهم وسفه أحلامهم وكفر آباءهم بدلا من أن يجمعوا أموالهم فيفقدوها، ويحشدوا أنفسهم وأبنائَهم فيفنوها وتتشتت جماعتهم ويظل العجز عن مقارعة القرآن مقروناً بهم أبد الآبدين فى أشرف ما يملكون: اللسان، ومصدر فخرهم وعزهم: البيان؟

قال: إنك لحكيم عاقل ولا تبدد طاقتك وتذهب نفسك فى منابذة خصمك بالعسير وأنت تقدر عليه باليسير. ولكن أتريد أن تلبس العرب – وهم الأميون – حكمتك هذه وتجعلهم يوازنون ويتخيرون بعقلك لا بعقولهم؟

قلت: بل هم الذين وازنوا واختاروا ما يقدرون عليه وتركوا ما أيقنوا عجزهم عنه. الا ترى ان قائلهم يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] فإذا آن أوان الجد والمنازلة ترك القول إلى السيف والكلام إلى الحشد والحرب. فلو كانوا يقدرون على الكلام لقالوا وأراحوا أنفسهم واستراحوا من هذا الذى نزل بهم وقلب حياتهم.

قال: يمكنني أن أفهم أن تركهم منازلة القرآن عجز عنه لكن قتالهم له شئ آخر. فلا أفهم كيف يكون قتال شئ وحربه دليلاً على القصور امامه وانهزام النفس عنده؟

قلت : وما العجيب في ذلك؟ فكم من خصم قاتل خصمه وهو عارف بقوته. بل وموقن بعلوه عليه وقصور قدرته عنه!

قال: وهل تكون هذه حرباً أو مقاتلة أم تكون يأساً بلا أمل وهزيمة قبل الهزيمة؟

فإن المقاتل الذى لا يثق بقوته وإنما بقوة خصمه ويرنو إليه فى إعجاب لا أمل له فى نصر ولا ثبات.

قلت: قد كفيتنى بعقلك الرشيد الجهة الثانية.

قال: أى جهة ثانية؟!

قلت: هل نسيت؟! حرب العرب للقرآن وأهله كانت دليلاً على عجزهم وخذلانهم أمامه من جهتين.

قال: آه!

قلت: انهزامهم أمامه المرة تلو المرة فى ساحة القتال بعد هزيمتهم وفرارهم من ساحة القول والبيان.

قال: إنك تخترع الحجج اختراعاً! وما كانت هزيمتهم إلا باجتماع المسلمين وتضافرهم والطاقة التى بثها الإيمان فيهم. ومن قاتل فى سبيل شئ إيماناً به هانت

عنده الحياة واستحب عليها الموت، فلا سبيل لهزيمته ولو احتشد الناس كلهم لقتاله.

قلت: إن كلامك لصحيح لا ريب فيه. فهذا سبب لانتصار أهل القرآن. ولكن الأمر لا يكتمل إلا بما جعل محاربيهم ينكصون فلا يثبتون، وينتقلون من هزيمة إلى هزيمة، ويتفرق عنهم أعوانهم ويخسرون أنصارهم يوماً بعد يوم.

قال: وما هو هذا الذى لا يكتمل الأمر إلا به؟

قلت: سُئل على بن أبى طالب: لماذا صرت بطلاً لا تلقى رجلاً فى قتال إلا صرعته، ولا بارزت خصماً إلا غلبته؟ أتدرى ماذا قال؟

قال: لا أدرى. ربما افتخر بقوته أو شجاعته.

قلت: لا. بل قال: لأنى كنت ألقى الرجل فأُقدر فى نفسى أنى أقتله ويقدر هو فى نفسه أنى أقتله، فأكون أنا ونفسه عليه.

قال: إنها لمقولة خبير بالنفوس بصير بالحروب. ولكن مالها وهزيمة العرب أمام القرآن؟

قلت: بل هى تفسير هزيمتهم. فإنهم كانوا يخرجون لقتال القرآن وهم موقنون بعجزهم أمامه.

قال ساخراً: فذلك عجز ألسنتهم . وهل رأيت أحداً يمسك سيفه بلسانه حتى تقول لى إن عجز لسانهم عن منازلة القرآن أوهن سيوفهم فى الميدان؟!

قلت: بل هو عجز ألسنتهم وعقولهم يتسرب إلى نفوسهم بالضعف والعجز، وإلى إرادتهم بالوهن، وإلى جوارحهم بالشلل واليبس فيتقدمون وهم يريدون الإحجام، ويحلمون بالنصر وهم موقنون بالهزيمة، ويشعلون نار الحرب وهم يتمنون خمودها، فيقفون فى ميدان القتال وقد احتشدت أنفسهم قبل المسلمين لهم فيكون المسلمون وأنفسهم عليهم، فما يصمدون فى قتال ولا يثبتون فى ميدان.

قال : أتظن هذا التفلسف يجدينى شيئاً؟ وكل ما قلته لايفسر شيئاً ولا يشهد بما تريد . هب أنهم عجزوا عن القرآن وهزموا فى ميدان اللسان، أما كان ذلك داعياً وحافزاً لأن يحشدوا طاقتهم فى ميدان القتال كما قلت أنت لينتصروا فيها ويغطوا بنصرهم فى الميدان على فرارهم من ساحة اللسان؟

قلت : فقد أجبت أنت نفسك على نفسك .

قال مبتسماً : ظننت أن ألغازك قد مضى زمانها .

قلت : فقل لى : أى شئ نبغ فيه العرب وبلغوا المدى؟

قال : وهل جنى علينا وأوردنا ما نحن فيه إلا ما نبغوا فيه ولم يعرفوا غيره؟!

قلت : وما هو هذا الذى جنى علينا؟

قال : الكلام وشقشقة اللسان . وهل كانوا ولا يزالون يعرفون غيره؟ فسلمهم كلام وحربهم كلام، وعملهم كلام وعلمهم كلام .

قلت مبتسماً : إنك لحانق على الحاضر يائس منه حتى لتسقطه على التاريخ كله . وربما يحسن الأمر فى زمان ويعاب فى غيره . فدع عنك بؤس الحاضر وخلّنا فيما نحن فيه .

قال متنهداً : كما تحب! نعم . نبغ العرب فى الكلام وإدارة اللسان وسحر البيان، يكون المعنى أمام المرء منهم واحداً فيقول فيه من البيان ما يسحر الألباب، ويتفننون على البديهة فى القول، ويخترعون الكلام العجيب فى الجليل والخطير وفى الدقيق والحقير . وهل هناك أعجب من أن يقيم قوم أسواقاً للكلام والمبارزة والتصارع بالقول والبيان؟ لعمرى إنها لنادرة عجيبة فى الأمم!

قلت : والأعجب منها أن الكلمة البليغة من أحدهم لتقتحم النفوس وتهز الوجدان؛ فتجرئ الجبان وتثبط همة المقدام، وترفع الخامل وتهوى بالعلى الرفيع . وإن بيتاً واحداً من الشعر ليهزم قبيلة بأكلها فيسيرهم جميعا مطأطأى الرؤوس وقد عجزت أن تنال من إباء نفوسهم وشموخ أنوفهم الرماح والسيوف .

قال مندهشاً: بيت من الشعر يهزم قبيلة بأكملها؟!

قلت: نعم فإن قبيلة من العماليق كانت تفخر على العرب جميعاً بطول عودها وفراعة أجسامها ويمشون يتهادون على الأرض اختيالاً حتى هجاهم حسان ابن ثابت في الجاهلية ببيت، فصاروا بعده يمشون منكسي الرؤوس يتوارون من الناس ويستخفى أحدهم حتى لا يُعلم أنه منهم.

قال: فما هو بيت الشعر الأعجوبة هذا الذى جعل مصدر عزهم سبب ذلهم؟

قلت:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

قال ضاحكاً: إن قوماً يفعل بهم بيت من الشعر هذه الأفاعيل لقوم نصف عقولهم فى ألسنتهم ونصفها فى آذانهم.

قلت مبتسماً: وهل نسيت نفوسهم؟

قال: عدت لما بدأنا منه.

قلت: فالسنتهم هى عقولهم وهى نفوسهم وهى مصدر طاقتهم وهى مكمن عزتهم ومعين قدرتهم.

قال: فإذاً؟

قلت: فإذاً قد بان لك لماذا هزموا ولم يثبتوا أمام القرآن فى قتال بعد أن فروا من معركة القول والبيان، فإن القرآن هزمهم فى ألسنتهم وبلاغتها، فكأنه بذلك هزم عقولهم وهزم نفوسهم وضرب مصادر الطاقة التى يستمدون منها العزيمة للقتال، فكانوا فى بلاغتهم وتنازع البيان فى أسواقهم ومحافلهم كمصابيح تتنازع الضوء والنور فلما طلعت عليها شمس القرآن كسفت وانطمست جميعاً.

قال: فلذلك كانوا يقاتلون ونفوسهم واهنة وعزائمهم خائرة وإرادتهم مهزومة؟ فما يثبتون فى ميدان ولا يصمدون لقتال؟

قلت: وهل تصمد مصابيح الأرض أمام شمس السماء؟!

قال: ما زلت أحس بعدم الراحة والاطمئنان.

قلت: ولم؟ أما زال في نفسك شك في إعجاز القرآن للعرب وإفحامه لهم؟

قال: إنى كلما قلبت الأمر من وجوهه ورضيت عن وجه ظهر لى من وجه ما يقلقنى ويجعل نفسى غير راضية وعقلى غير مكتف ولا قانع.

قلت: فما الذى ظهر لك جديداً؟

قال: إشهار العرب للسيف أمام القرآن وشنهم الحرب على أهله.

قلت: أما اتفقنا أن ذلك كان عجزاً منهم عن منازلة القرآن نفسه، وإيقاناً بقصورهم عنه وارتفاعه عن طاقتهم؟

قال: اتفقنا؟! أنا لم اتفق على شئ! أنت الذى اتفقت مع نفسك!

قلت: أيها المشاكس! ماذا تريد إذاً؟

قال: لا يرضى عقلى حتى أزيل كل الشكوك من نفسى.

قلت: فإذاً؟

قال: إنى تفكرت فرأيت هؤلاء العرب لُسن بلغاء فصحاء، وما أماريك فى سمو بلاغتهم ولا علو فصاحتهم.

قلت: فأين هى المشكلة؟

قال: المشكلة أن هؤلاء البلغاء الفصحاء جفاة بداة أميون لا يزنون الأمور بميزان الحكمة ولا قسطاس العقل. ومن أين لهم العقل والحكمة فى هذا التيه النفسى والاجتماعى والأخلاقى الذى كانوا يعيشون فيه؟!.

قلت: وما حاجتك إلى حكمتهم؟ أكنت تريدهم فلاسفة؟

قال: لا. ولكن افتقادهم للعقل والحكمة وميزان الأمور ليفسر انصرافهم عن الحجة إلى إشهار السيف، وعن المعارضة إلى رفع راية الحرب.

قلت: كيف أيها الحكيم؟

قال: إن هؤلاء قوم يعيشون بين الصحراء والجبال فلم يصقل عقولهم علم ولم تهذب أرواحهم معرفة. وإن أيديهم إلى السيوف لأسرع من الأفكار إلى عقولهم، وإن أحدهم لتسبق يده إلى السيف عقله إلى الحجة.

قلت: كيف وهم كانوا يتحاجون فى الأسواق ويقوم بعضهم لبعض معارضة ومقارعة؟.

قال: فذاك سوق مقام للحجة وقد أهبوا أنفسهم له وعلموا وهم مقدمون عليه أن المقام فيه تحد وأن الغلبة لصاحب البيان واللسان. وما فى الأمر مساس بدينهم ولا آباءهم وآلهتهم.

قلت: فتسفيه القرآن لأحلامهم وتكفيره لآبائهم وتفريقه لعشيرتهم ليجعل شأنه عندهم أمعن فى التحدى وأولى بالمعارضة.

قال: بل هو حجة لى لا لك. ألا ترى أن القرآن لما سفه أحلامهم وكفر آباءهم وفرق عشيرتهم أشعل عواطفهم وثارت جوارحهم وفارت حميتهم وعصبيتهم؟

قلت: بلى!

قال: فإن اشتعال عواطفهم وثورة جوارحهم وفوران حميتهم وعصبيتهم لكفيل أن يُذهب كل عقل ويحجب أى حكمه. ففى أتون العاطفة وفورة الحمية لا مجال للعقل والحكمة.

قلت: ألم تكن تكفيهم هزيمة واحدة ليعلموا أن اجتماع أمرهم وذهاب خصمهم فى أن ينازلوا القرآن نفسه؟

قال: نعم لم تكن تكفيهم. وإن هزيمة لتشعل نار الثأر فتجر هزيمة فهزيمة، كحبات العقد ما إن تسقط واحدة حتى تسقط الباقية تباعاً.

وما أرى إلا أن همتهم انصرفت إلى القتال وحشد الحشود فشغلهم ذلك عن منازلة القرآن نفسه ولم يفطن عقلهم إلى الميدان الذى يجب أن يكونوا فيه.

قلت: وكيف لا يفطنون والقرآن ينخزهم كل حين ويصفعهم ويلوى أعناقهم لياً ويحشدهم حشداً ويدفعهم دفعاً إلى هذا الميدان؟

قال: ينخزهم؟ ... ويصفعهم؟!

قلت: نعم. وهل بعد التحدى على الملأ وإهانتهم فى مصدر عزهم وإذلالهم وتذكيرهم كل حين وآن بخزيهم وعجزهم وهم أرباب الفصاحة والبيان صفع أو نخز؟

فانظر إلى القرآن يتحداهم فى علو وهيمنة فيقول لهم:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]. الا ترى المذلة والمهانة فى أن يتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من الإنس، وإن استطاعوا فمن الجن، فلا ينطقون مع افتخارهم بالبلاغة وعلو بعضهم على بعض بالفصاحة؟

قال: فذلك القرآن كله. فلعلهم انصرفوا عنه لعلمهم بما فيه معارف تقصر عقولهم دونها ومعرفتهم عنها.

قلت: فإنه نزَّل هذاالتحدى درجة فقال لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

[هود: ١٣]

أما ترى كيف خفَّض التحدى من أن يأتوا بالقرآن كله إلى أن يأتوا بعشر سور، ثم أمعن فى إذلالهم وبيان عجزهم فجعلها مفتريات، فكأنه يقول لهم: إن عجزتم عن أن تأتوا بعشر سور من مثل هذا القرآن فى معانيه ومعارفه، فافتروا عشر سور مثل لفظه وكلامه وضعوا فيها ما شئتم من معان صحيحة أو باطلة، أصلية أو مفتراة. فهل استطاعوا أن يقولوا عشر سور ولو اختلاقاً؟

قال: وعشر سور كثير!

قلت: فيا أيها العنيد! ها قد تحداهم بسورة واحدة أن يأتوا بمثلها ولو كأصغر سورة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

فلو كانوا يقدرون أتراهم كانوا يتركون هذه الفرصة فلا يهتبلونها والقرآن ينزل التحدى فى كل مرة درجة ودرجات. ومع كل درجة ينزلها التحدى يزداد خزيهم ويتأكد عجزهم ويستطير فى الآفاق عارهم حتى يصير راية يعرفون بها وتعرف بهم.

فقل لى: أنت مصارع قدير.

قال ضاحكاً وهو ينظر إلى ذراعه: يا ساتر!

قلت: وجاءك خصم يتحداك أن تصارعه وتكون بطلاً للعالم، أتقبل؟

قال مبتسماً: تنبئك عظامى عن الخبر.

قلت: فلو أعلن خصمك على الملأ أنه سوف يصارعك بيديه دون رجليه.

قال: حقيقة لن أصارعه وإن كان خجلى من الناس سيدفعنى لذلك مخافة الوصم والعار.

قلت: تذكر أنك لست أنت ولكنك مصارع قدير مشهود له. فإذا أعلن خصمك أنه سينازلك بيد واحدة وأنت حر طليق فيما تقاتل به.

قال: إذا لأطبقت عليه بيدىّ ورجلى. وإن يداً واحدة لا تفعل شيئاً ولو كان صاحبها شمشون.

قلت: فإن لم تفعل؟

قال: وكيف لا أفعل. وإلا فإنى عاجز.

قلت: فهل فعل القرآن إلا أن تحداهم أن ينازلوه كله، فلما لم يجرؤوا تحداهم أن ينازلوه بعشر سور. ولما أبان لهم هيمنته وعجزهم دعاهم للنزال بسورة

واحدة لكى تكون فضيحة لهم فى العالمين. فلولا أنهم عاجزون أمامه يائسون من مطاولته لنطقوا. وما نطقوا.

ثم انظر إلى هذه الآية العجيبة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة: ٢٣ - ٢٤]

فتأمل ﴿ لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ و ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ هذه التى تصمهم بالعجز وتهيجهم وتثير فيهم التحدى إلى أقصى طاقة يملكونها فلو كانت بهم قدرة على تحدى القرآن ومنازلته لتفجرت ألسنتهم شلالات هادرة يدفعون بها عن أنفسهم هذا الوصم والاستهزاء والفضيحة التى نزلت بهم حالاً ومستقبلاً.

قال: فلم يقولوا شيئاً؟ أى شئ؟!

قلت: وهل يجد السراب من نفسه جرأة يطاول بها الماء وهو يعلم من قدر الماء ما يعلم من نقصه فى نفسه؟

* * *

قلت: أولا أدلك على شئ أدل على إعجاز القرآن لهم من عجزهم عن تحديه لهم؟

قال: وهل هناك ما هو أدل من عجزهم عن هذا التحدى وخذلانهم فى نفوسهم وفرارهم من الحرف إلى السيف مع ما فيه من إهلاك أموالهم وإفناء أرواحهم؟

قلت: نعم! هناك ما هو أبين لإعجاز القرآن وعجزهم.

قال مستغرباً: وما هو؟

قلت: عجزهم عن نقده. فتأمل معى: هم قد عجزوا عن معارضة القرآن والإتيان بمثله ولو كأصغر سورة من مثله، ولو جاءوا بها لانتهت مشكلتهم

وحُلت عقدتهم وتفرق خصمهم. ولكن الا ترى انهم إذ لم يستطيعوا ذلك لو قام قائم منهم وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان فقال: إن هذه الكلمة تنبو عن موضعها، أو هذا الحرف لا يناسب مكانه وهناك ما هو أولى به منه، أو هذه الآية تنافر ما قبلها أو ما بعدها لانتهى الأمر وواروا عجزهم عن المعارضة بقدرتهم على النقد، ولتداركوا فضيحتهم وخزيهم بادعاء انصرافهم عن معارضة القرآن لعيب فيه لا لعجزهم عنه.

قال: أفلم ينقدوا أى كلمة فى القرآن؟

قلت: ولا حرفاً واحداً. وإنما أخذ القرآن نفوسهم من اقطارها وجمع ألسنتهم فى قبضته فلا تستطيع فكاكاً ولا تفلتاً.

ها! ما رأيك أليس عجزهم هذا عن نقد القرآن ولو كلمة واحدة فيه ينهون فيه هذا النزاع المرير لبرهان على إعجاز القرآن لهم ونزوله منهم منزلة القدر من رب القدر لا يُصد ولا يُرد؟

قال مبتسماً: انتظر لحظة وتمهل. فما زال فى الأمر شئ!

قلت: وأى شئ بعد ذلك؟

قال: إن هؤلاء العرب كانوا أرباب فصاحة وبيان، وأهل شعر ومقال، وأصحاب بلاغة ولسان ولكنهم بعدُ أميون. والأمى قد يقول لكنه يعجز عن النقد، لأن القول من شأن اللسان يأخذه بالفطرة ويأتى به على البديهة. أما النقد فمن شأن العقل ولا يتأتى إلا بالمران الشاق والممارسة الطويلة والمعرفة المتراكمة والعلم بالفروق بين الألفاظ والحروف.

قلت: بل إن فطرة اللغة فيهم – وهم أهلها وأرقى الناس فيها كمالاً – لتقوم فى الواحد منهم مقام العقل فى ألف من غيرهم.

قال: هذا كلام يصلح للإنشاء. فكيف تقوم الفطرة مقام العقل؟ وهل يتعلم الناس ويدرسون إلا ليرفعوا سذاجة الفطرة إلى مقام العقل؟

قلت: بل هم فى العربية ما يتعلمون إلا ليرفعوا العقل واللسان بالممارسة والمران إلى منزلة الفطرة فى أهل اللغة الخلصاء.

قال: أتظن قلبك للأمور هكذا يُدخِل منها شيئاً فى عقلى؟ وإن كلامك لا يستقيم مع نظر سديد وما عليه من دليل.

قلت: الحمد لله! قد أنهيت هذا الجدل العقيم. فهاك الدليل:

وقف حسان بن ثابت فى الجاهلية ينشد فى عكاظ:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدْنا بنى العنقاء وابن محرِّق فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

قال: فأين هذا الدليل وما فيه إلا فخر كفخر الجاهلية لا يعدوه؟

قلت: تمهل يا قليل الصبر! فإنه ما إن أنهى شعره حتى قامت له الخنساء فقالت له: ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع. قال: وكيف؟ قالت: قلت: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشر فقلّلت العدد، ولو قلت: الجفان لكان اكثر. وقلت الغرة، والغرة البياض فى الوجه، ولو قلت: البيض لكانت أكثر اتساعاً. وقلت: يلمعن، واللمع شئ يأتى بعد الشئ، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالعشية لكان أبلغ فى المدح لأن الضيف أكثر طروقاً فى الليل. وقلت: أسيافنا، والأسياف دون العشرة، ولو قلت: سيوفنا كان أكثر. وقلت: يقطرن، فدللت على قلة القتل ولو قلت: يجرين كان أكثر لانصباب الدم. وقلت: دماً، والدماء أكثر. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدوك.

قال منبهراً: يا لها من ناقدة رائعة بارعة! فلو عرض هذا الشعر على ناقد من عصرنا لاحتاج أياماً طويلة من الغوص والاستقراء ومراجعة المعاجم حتى يصل إلى ما وصلت إليه.

قلت مبتسماً: ووصلت إليه على البديهة وفي سوق عامة للكلام. ثم انظر معرفتها الدقيقة على الفطرة لكل كلمة ومعناها وما هو أحق منها بموضعها وأكثر إبانة فى مكانها منها.

أرأيت كيف أن فطرة هؤلاء هى ما يصول العقل ويجول ويجد ويجتهد ويروح ويجئ لكى يصل إليه إن استطاع.

قال: حقاً إن براعة الخنساء وملحظها الدقيق فى الفروق بين الكلمات لتحيرني.

قلت: فما تقول فى أن الذى حيرك أنت هكذا وجعلك مذهولاً من براعته ودقته هو الذى أصابه العى أمام القرآن فلم ينطق، والحيرة فلم ينقد؟

الا يدلك عجز من تجد العقول وتكد لتصل إلى فطرتهم على أن الذى أعجزهم معارضته وأعياهم نقده مع إهاجته وإهانته لهم وإلهابه لنفوسهم هو شئ فوق طاقة البشر وقدرتهم؟!

قال: فإذا كان هذا شأنهم معه فلم اتهموه بالشعر والسحر والكهانة؟

قلت: إن هذه لتهم لهم وهى للقرآن لا عليه.

قال: كيف تكون تهمهم عليهم وللقرآن؟

قلت: ألا ترى أن هذه التهم لا تقدح فى القرآن كلمة ولا تعيب حرفاً، وإنما هى أقوال بينة الكذب يصرفون بها الناس عن سماع القرآن. فهى دليل على كذبهم واضطرابهم وما فيها من نقد القرآن شئ. وإن شهادتهم من أنفسهم لرد عليه.

قال: هذا عجيب! كيف يشهدون للقرآن وهم يتهمونه؟ وكيف يمدحونه وهم يعيبونه؟

قلت: فانظر إلى هذه القصة: دخل جبير بن مطعم وهو فى أسرى بدر المسجد قال: سمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ

هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قوله ﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] كاد قلبى يطير إلى الإسلام.

قلت: فانظر إلى قوله: كاد قلبى يطير، وما توحى به من غلبة القرآن لنفسه عليه وضمها إليه رغماً عنه وارتفاعها وفرارها منه إلى القرآن كالطير يفر من جاذبية الأرض إلى آفاق السماء.

قال: جميل. ولكن ذلك رجل أسلم!

قلت: فذلك كان قبل إسلامه. ومع ذلك فهاك الشهادة الصريحة وإنها لأجمل شهادة من قمة البلاغة والبيان البشرى فى معجزة البلاغة والبيان الإلهى.

قال: شوقتنى!

قلت: فخذ فاقرأ ليجتمع لسانك وعينك مع أذنك.

اختطف الكتاب من يدى وهو يقول أرنى: «جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى عليه الصلاة والسلام فلما قرأ عليه القرآن رق له. فبلغ ذلك أبا جهل فقال له: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه. فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله. قال الوليد: لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره. قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر لا برجزه ولا بقصيده، ولا أشعار الجن. والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال متوقفاً: ما أجمل هذه العبارات وأروعها!

قلت: فماذا إذاً يكون رأيك فى الذى قيلت فيه والذى قالها مشرك مناهض رأس قومه فى العداء والمحاجة، ومات وهو على ذلك؟

قال: إن هذا لشئ عجيب!

قلت : بل إنها المعجزة . فإن الذى أنطقه بهذا الثناء وهذه الشهادة على ضغنه وحقده وشدة عداوته لا يمكن إلا أن يكون معجزة .

اتعرف الأعجب من ذلك؟

قال : وهل هناك ما هو أعجب من ذلك؟

قلت : أبو جهل . هذا الذى أخذ على الوليد رقته للقرآن .

قال : وما العجب فيه وإنى لأراه حانقاً شديد الحنق حديداً فى عداوته لا يعرف مهادنة ولا مهاونة .

قلت مبتسماً : فما قولك فى أن هذا الحانق الشديد الحنق الحديد فى عداوته حتى ليلوم من يرق للقرآن أو يسمعه قد غلب القرآن عليه نفسه حتى لتهفو للقرآن وتتطلع إليه ويسترق السمع لتلاوته .

قال باستغراب : لا أصدق أن هذا العدو اللدود الرافع لراية الحرب أمام القرآن الحامل للواء محاصرته وإبادة أهله بهفو للقرآن ويتطلع إليه ويسترق السمع لتلاوته وهو يسبه جهاراً نهاراً .

قلت : بل صدق ، فخذ فاقرأ .

قال : « خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر ، فتفرقوا فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق .

قلت: ها! ما رأيك؟ ألا ترى كيف غلب القرآن نفس هذا العدو الحديد العنيد وغزاه حتى ساقه إليه فى ظلام الليل سوقاً يتسمع له؟

قال: هذا غريب! فإذا كان القرآن قد غلبه وتولهت نفسه به حتى ليغامر بشرفه في قومه ويتلصص على الجدران لعل أذنه تلتقط القرآن، ويظل لابثاً فى ليل مكة القار، فلم يعاديه كل هذه العداوة فى النهار علانية؟

قلت: قد كفانا هو تفسير ذلك. فإن الأخنس بن شريق ذهب إليه يسأله عن رأيه فيما سمع فقال: «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء. فمتى ندرك مثل هذا الشرف؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه».

أما ترى أنه لم يعب فى القرآن شيئاً ولا حرفاً مما سمعه، فهو جاحد بما يعلم أنه صادق، معاند لما هو موقن بإعجازه له إعجازاً يغلب نفسه عليه حتى لا يجد مهرباً منه إلا أن يغلق أذنه ويتحاشى سماع القرآن بها، وإلا لفتح بها مغاليق نفسه وقلبه وعقله ولسقط جحوده وعناده صريعاً أمام سحر القرآن.

فهل يمكن أن يفعل شئ فى نفس هذا الجاحد المعاند الشديد الأنفة والعصبية مثل هذه الزلزلة، ويأتى به راكعاً متلصصاً على غير إرادته وهواه إلا معجزة خضعت لها نفسه وبادت أمامها إرادته.

قال متفكراً وهو ينهض من مجلسه: حقاً! إن هذا لشئ عجيب!

* * *

قلت: أراك مجهداً!

قال وهو يغلق الكتاب فى يده: اجلس فإنى متشوق للقائك .

قلت ضاحكاً: قد جلست. أراك بت ليلتك فى أحضان كتبك هذه المتناثرة فماذا كنت تفعل؟

قال: كنت أراجع ما تحدثنا فيه.

قلت: وهل رابك فيه شئ حتى تراجعه؟

قال: لست بحاجة إلا أن يريبنى شئ. وما تطمئن نفسى إلا بمراجعة ما تقول والتثبت منه وتقليب وجوه النظر فيه، ولا أخفيك: إنى أسجل ما يدور بيننا وأراجعه من حين لآخر لأنظر فيه بروية وأتأمله على مهل.

قلت: وإنى لكذلك أسجل ما يدور بيننا وأراجعه، فلا أعرف أنفسك منى أم نفسى منك!

قال متبسماً: بل نحن نفس واحدة فى لسانين وقلمين.

والآن قل لى.

قلت: ماذا أقول لك؟

قال: أما قلت لى: إن العرب عجزوا عن محاكاة القرآن ومعارضته رغم تحديه وإهاجته وإهانته لهم ولو بسورة كأصغر سورة؟

قلت: بلى قلت هذا!

قال: فإذاً! ما هذا الذى وجدته من معارضات للقرآن وسور كسوره؟

قلت: ليست سوراً كسوره. فقل لى: ماذا وجدت؟

قال: فما رأيك فى ما قاله مسيلمة: «الفيل ما الفيل. وما أدراك ما الفيل. له مشفر طويل وذنب أثيل. وما ذلك من خلق ربنا بقليل».

قلت: وهل تجد فى هذا السخف شيئاً يشبه القرآن ويقف له جلالاً وروعة وامتلاكاً للسمع وأخذاً للنفس؟

قال فى حذر: أليس هذا القول من مسيلمة يقوم لفاتحة سورة القارعة ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١ - ٣] فهو على نمطها ويسير على أوزانها ويحاذى إيقاع كلماتها؟

قلت: إنك لبارع! فقد وصلت إلى الإجابة بنفسك وكفيتنى عناء التفسير والمقارنة.

نظر إلى مستغرباً ثم أشار بالاستمرار.

قلت: ألا ترى أن مسيلمة لم يفعل إلا أن أتى بسورة من القرآن راعه فيها وزنها والموسيقا التى تنبعث من إيقاع كلماتها وتجانس حروفها، ثم ما كان منه إلا أن نزع كلمة ووضع مكانها كلمة ليحتفظ بالوزن والإيقاع الذى يأخذ الأذن؟

قال: وماذا فى ذلك؟

قلت: فيه كثير. فهو لم يأت بشئ على الإطلاق. أتعرف الفسيفساء؟

قال: نعم أعرفها. تلك الوحدات الزخرفية الصغيرة التى يرتبها صانعها فى تناسق بديع وائتلاف رائع يأخذ بالأبصار، وتذهب فيها العين بين أولها وآخرها، وتعجب النفس من دقة صنعها، ويقف المرء أمامها ساعات لا ينقضى إعجابه بها ولا عجبه من مهارة اليد التى أخرجتها.

قلت: فإنه رأى إيقاع القرآن وموسيقاه أول ما يخطف الأذن العربية ويخترق نفوس العرب، فما كان منه إلا أن وضع القرآن أمامه وأخذ يتبع نظم القرآن ووزنه وإيقاعه تبع المقهور للقاهر؛ فينزع الكلمة ثم يبحث عن مثيلة لها ليضعها فى مكانها دون أن يدرك علاقة الكلمة بأختها فى جملتها والائتلاف بينها وبين المعنى والنظم. فكان ما فعله كمن يأتى لفسيفساء بديعة التناسق رائعة الإحكام يروعه خطفها للأبصار واستيلاء جمالها على العيون، فينزع وحدة زخرفية ويضع مكانها اخرى، ويبدل لوناً هنا بشبيه له هناك، ثم لا يكون من استيلاء الألوان والوحدات الصغيرة على بصره إلا أن يذهل عقله عن تركيب هذه الوحدات الزخرفية المتجانس فى منظومتها، فيحيل الأصل البديع الرائع فوضى متناثرة تهرب منها العين وتمجها النفس بعد أن قطع أوصالها وشتت ألوانها.

قال: صبراً صبراً! وفسر لى هذه التشبيهات الغامضة.

قلت: فتأمل معى. إذا سمعت قوله تعالى ﴿ **الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** ﴾ وبعد أن تسلب أذنك حلاوة النظم وتستولى على نفسك موسيقا الإيقاع، ما الذى يقع فى نفسك من هذه المقدمة؟

أطرق إلى الأرض متفكراً ثم رفع بصره وقال: يقع فى نفسى أن القول

وتكرار ﴿ مَا ﴾ فيه وتكرار كلمة ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ هو مقدمة لأمر جلل وخطب عظيم سوف يحدثنى عنه، فينبهنى إليه ويشد ذهنى وعقلى ويهيئ نفسى لاستقباله.

قلت: وهذا ما حدث، فإن القرآن بعد هذه المقدمة الهائلة أتى بما يليق بها وما يستأهل أن يُشحذ العقل والذهن وتهيئ النفس لاستقباله: فيوم القيامة وبعث الناس من مماتهم قد حل، وحُشر الناس، واندكت الجبال، وجاء أوان الحساب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والخلود الذى لا موت بعده فإما نعيم مقيم وإما عذاب أبدى.

قال: إن بدنى يقشعر وأنا أتفكر فى هذه الأمور.

قلت: فتعال إلى مسيلمة وانظر وقل لى: إذا سمعت قوله «الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل» فماذا يرد على نفسك وعقلك؟

قال: إنه سوف يحدثنى عن خطب عظيم أو هائل أو انقلاب وكارثة. وإن كنت لا أعلم ما هذا الانقلاب أو الكارثة التى يمكن أن تكون فى الفيل؟!

قلت: فربما قلت لنفسك: لعله سيأتى فى الفيل بما لا أدركه. فانظر إليه بعد هذه المقدمة المروعة ماذا قال؟ أشعرك أنك مقدم على نبأ يتزلزل به كيانك حتى ليتوحد عقلك وذهنك مع نفسك فى نقطة واحدة تهيئاً له، ثم إذا هو يهبط بك من هذا الهول العظيم إلى تافه الأمور وهزل الكلام؛ فيصف لك الفيل. ويا ليته أتى بمعنى جديد أو عبرة فى طريقة عيشه أو حكمة فى صبره أو حدة ذاكرته.

قال ضاحكاً: ما أرى إلا أنه وصف ذيله ومشفره. ربما كانت له فى ذلك حكمة سامية لم تصل إلى علمنا بعد!

قلت: فكأنه وضعك فى طائرة وجعلك تستشرف الآفاق والتحليق فى العلى ثم بدلاً من أن يصعد بك خسف بك وبها. فقل لى بالله عليك: إذا ذهب بضعة من تلاميذ المدارس إلى حديقة الحيوان ورأوا الفيل فطلبت منهم وصفه، أكان يقصر وصفهم عن وصف مسيلمة شيئاً؟! فالذنب هو الذنب والمشفر هو المشفر.

قال: فكيف يقول رجل مثل هذا الكلام ويرجو أن يصدقه الناس ويتابعوه؟

قلت: ومن أدراك أنه كان يريد منهم تصديقه؟ فإنه يعلم وهم يعلمون أنه كذاب، وما تجرأ إلا بعصبية قومه الجاهلية له، لا رضاهم ولا اقتناعهم بسخفه هذا. أما ترى أن طلحة النمرى دخل عليه وسمع كلامه فلم يحتمل وهو الرجل الفصيح العربى البليغ هذا السخف حين قرنه بالقرآن - رغم متابعته لمسيلمة عصبية وأنفة - فقال له: أشهد أنك كاذب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

قلت: ولا تدرى لماذا أولع مسيلمة بالحيوانات والدواب فجعل جل قرآنه المزعوم فيها وفى أوصافها. ويبدو أنه لم يجد شيئاً يصح فيه المعنى وإن كان تافهاً ويواتيه عنده القول وإن كان سخيفاً إلا الحيوانات والدواب.

قال: فهل قال فى حيوانات أخرى غير الفيل؟

قلت: الضفدعة!

قال ضاحكاً: الضفدعة؟!

قلت: نعم الضفدعة. «يا ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين».

قال: لا أراه قال شيئاً يربو على كلامه فى الفيل؛ فليس فى كلامه معنى جميل ولا حكمة سامية ولا عبرة تؤخذ ولا إشارة إلى بديع يُتأمل فيه. وما أرى فيه إلا السجع فقط.

قلت: نعم السجع فقط. أو إن شئت الدقة الموسيقا التى رآها تسلب أذن العربى منه وتغزو نفسه رغماً عنه فأراد تقليدها، فوضع كل عقله ولسانه فيها فأذهله ذلك عن بلاغة المعنى وجزالة البيان وائتلاف موسيقا النظم مع الغرض منه.

ولو أنه وجد بلاغة المعنى وفصاحة البيان لضاع منه الإيقاع وفقد الموسيقا. فهذه خصيصة القرآن وحده.

قال: يبدو أن أنغام الإيقاع القرآنى سلبت لُبه وجذبت عقله ونفسه إليها حتى لم يعد يدرك غثاثة كلامه وسماجته.

قلت: والأدل على عجزه أنه حين أراد محاكاة موسيقا القرآن كان آخر ما وصلت إليه قدرته متابعة الفاصلة فى الياء والنون دون أن يفطن إلى مصدر الموسيقا الداخلية التى تنبعث من نظم حروف القرآن وكلماته، فينتقل اللسان من صوت إلى صوت فى تناسق بديع، ومن مخرج حرف إلى آخر فى سهولة ويسر. فاقرأ ما قاله بصوت عال لترى.

قال: يا ضفدع بنت ضفدعين. ثم سكت وقال: إنى لا أستطيع نطق هذه الحروف إلا بصعوبة وأحس لسانى يتعثر ويكاد يشتبك ويدخل الحروف بعضها فى بعض خاصة ضفدع هذه التى تخرج دالها كالضاد لتزيد الطين بلة فتصبح الجملة كلها ضادات.

على أن هذا عجيب! فإن ضفدع هذه موجودة فى القرآن.

قلت: لا. وهذا هو إعجاز القرآن والفرق بينه وبين سخافة مسيلمة. ففى القرآن ضفادع لا ضفدع.

قال: وما الفرق بينهما؟

قلت: الفرق بينهما هو ألف المد هذه التى تفصل بين طرفى الكلمة فهى سر إيثار القرآن للجمع على المفرد، فهى بمثابة المهلة التى يلتقط اللسان فيها نفسه ويجد فسحة يتحرك فيها ويستريح فى الانتقال بين الحروف وبدونها – كما فعل مسيلمة – يضيق اللسان ويصيبه القلق والعثار وهو ينتقل بين هذه الحروف المتتالية القريبة المخارج حتى يكاد يدخل أحدها فى الآخر، فلا يمكن قراءتها إلا بتمهل شديد يفصل بين حروفها فصلاً واضحاً يتمهل فيه اللسان ويأخذ راحته.

قال: إن كلامك لممتع! ومع ذلك ففيه عسر وأشياء لا أستطيع هضمها.

فما هى هذه المخارج المتوالية التى تتحدث عنها؟

قلت: الأمر يسر لا عسر فيه. فالضاد تخرج من بين جانب اللسان من أقصاه إلى أدناه وبين ما يقابل ذلك من الأضراس العليا، والفاء تخرج من الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، والدال ما بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا.

قال : أظن الأمر أيسر الآن قليلاً . فهذه حروف تكاد تدور مخارجها كلها بين طرف اللسان والأسنان العليا .

قلت : ولذلك يحتنق اللسان فى حركته فيها وهو مقيد بضيق المساحة التى يتحرك فيها . فإذا ترك مخرج الضاد إلى الفاء ثم أراد الانتقال إلى الدال عاد إلى الضاد التى ألفها ولم يكد يتركها، تماما كالمرء يُطلب منه أن يدور حول نفسه فى دائرة لا تتعدى اتساع رجليه فلا يمكنه إلا أن يتعثر ويتخبط ويقع، ولا يخرجه من هذا التعثر والتخبط إلا توسيع الدائرة الذى هو ألف المد فى القرآن، والتى لم يفطن لسرها مسيلمة .

قلت مبتسماً : ها! أيبقى فى نفسك الآن شك فى أن هذه المعارضات إنما كانت سخفاً إذا وضعت بجوار القرآن كانت كمن يريد معارضة الشمس بعود كبريت؟

هز رأسه موافقاً فقلت : والأهم هل ما زال عندك شك أو تخالط نفسك ريبة فى أن القرآن معجزة إلهية قصرت عنها طاقة العرب أجمعين وهم أهل البيان وأرباب الكلام مع تحفزهم وشديد رغبتهم ودؤوب محاولتهم؟

قال فى هدوء : لا أخفيك أنى الآن أقرب لأن أصدق بإعجاز القرآن وأنه وحى إلهى ومعجزة من السماء .

ولكن .....

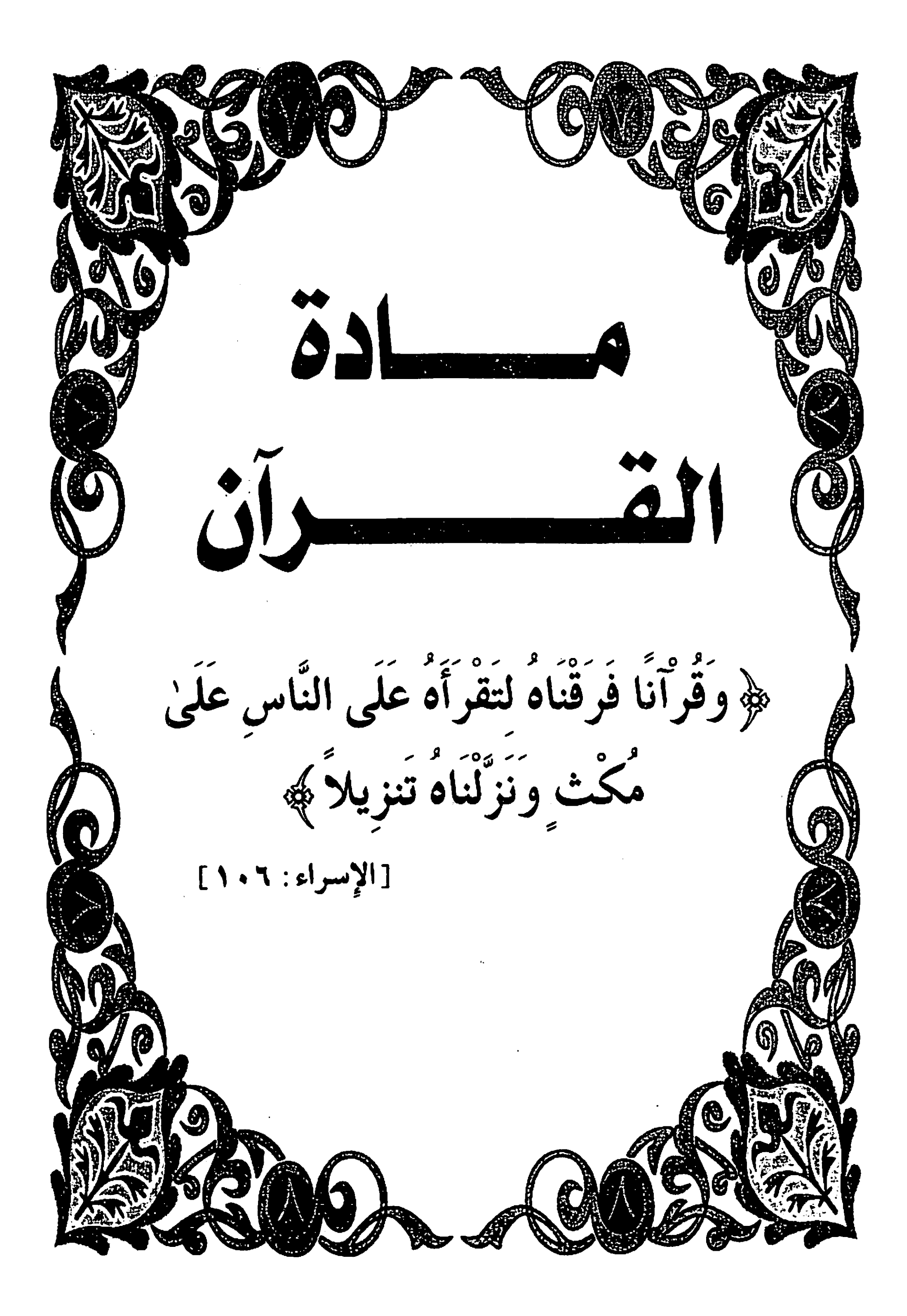
قلت : أقرب؟ ...... ولكن؟! ماذا تخفى وتخبئ؟

ازدادت ابتسامته اتساعاً وقال : لا تكن سئ الظن هكذا! فإنى لا أخفى ولا أخبئ شيئاً، وإنما أرى اننا سرنا مسيرة طويلة ممتعة حتى أشرفنا على تخوم الإعجاز ولما ندخل فيه، فأنا الآن أراه من بعيد وأريد أن أدخل وأسير فيه بنفسى .

أمسكت كتفيه بين يدى وقلت : فإذاً سندخل فيه ونسير معاً .

فوضع كفه فى كفى ونهضنا معاً .

* * *



مادة القرآن

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾

[الإسراء: ١٠٦]

قلت: أهلاً بك ومرحباً. اجلس فقد أوحشتنى.

قال: وأنا مشتاق للولوج والسير. أما اتفقنا أن نلج باب الإعجاز ونسير فيه بعد أن أشرفنا على تخومه؟

قلت: بلى. وإنى لأشد منك رغبة فى الولوج وأكثر شوقاً للسير.

فما باب الإعجاز الذى تريد أن تلج منه إليه؟

قال: مادة القرآن.

قلت: مادة القرآن؟!

قال: نعم. فأنا الآن أصدق أن القرآن معجزة ولكنى لا افهم كيف يكون الكلام معجزة فو طاقة البشر وقدرتهم وكل الناس يقول، وكلهم يمكنه الكلام ويأتى فى كلامه بالبليغ الساطع وبالمبين الناصع؟

قلت: أما أن كل الناس تتكلم فنعم .. ولكن ليس كل كلام ككل كلام، وإلا لاستوى شعر أمير الشعراء مع مبتذل الكلام فى الأسواق من أحقر الحقراء. أليس هذا كلام وذاك كلام؟

قال: ما زلت غير مطمئن.

قلت: فلنتأمل المسألة بروية. قل لى: كم يوجد من العناصر فى الأرض؟

قال: فذلك شئ كثير لا أحصيه وتنوع وتعدد لا يخفى.

قلت: فكم يبلغ الاختلاف بينها؟

قال: يبلغ ما بين السماء والأرض. فمنها الردئ الذى لا قيمة له والنفيس الذى يتقاتل الناس من أجله، ومنها الهش المتكسر والصلب، ومنها الرقيق والصلد، ومنها الخامل والمشع .

قلت: فمم تتكون كل هذه العناصر على تباينها واختلاف ما بينها؟

قال: من الجزيئات.

قلت: ومم تتكون الجزيئات.

قال: من ذرات والذرات من نواة وكهارب (إلكترونات).

قلت: أتختلف الكهارب فى الذهب عنها فى الرصاص؟

قال: لا تختلف فى نفسها ولكن تختلف فى عددها وترتيبها حول النواة فى مدارتها، وعدد المدارات فى ذراتها، والعلاقة بين الذرات فى جزيئاتها.

قلت: إذا فمادة الرصاص الأولى هى هى مادة الذهب.

قال: نعم.

قلت: ومع ذلك فإن كون مادة الرصاص كمادة الذهب لا يرفع الرصاص إلى الذهب ولا ينزل بالذهب عن عرشه إلى رداءة الرصاص.

ابتسم قائلاً: إذاً فالذى يهب القرآن إعجازه هو وضع حروفه فى كلماته فى جمله فى سوره فيه كله.

قلت: تماماً كما يهب الذهب بريقه ونقائه وصفاءه وسلبه لعقول الناس وضع كهاربه فى مداراته فى ذراته فى جزيئاته.

قال: ومع ذلك فهناك من البلغاء والفصحاء من يأتى فى كلامه بالعبارة النفيسة والكلمة البراقة التى تبرق كبريق الذهب.

قلت: نعم! فمن البشر من يأتى فى كلامه بالعبارة البليغة والجملة المبينة التى تبرق كالذهب، ولكنك إذا تفصحتها بعناية ووضعتها تحت مجهرك لبانت لك حقيقتها من حقيقة الذهب الخالص. فإن أوفت بالمعنى فاتها إيجاز اللفظ وجمال المبنى، وإن كانت موجزة قصرت فى المعنى، وإن أمتعت وجدانك استنكفها عقلك، وإن رضى عنها عقلك جفتها نفسك، وإن اجتمع فيها كل هذا: المعنى فى إحكامه، واللفظ فى جماله، والوجدان فى متعته، والعقل فى حكمته، والبريق من كل جهة لكانت جملة واحدة أو اثنتين أو بضع جمل على الأكثر فى الكلام كله أو الكتاب كله، ولن تكون بعد ذلك إلا كالنحاس يملك من الذهب بريقه ولا يملك معناه، ويفقد يوماً بعد يوم نقاءه وصفاه.

ولن تجد كلاماً أو كتاباً يجتمع فيه من أوله إلى آخره إحكام المعنى وجمال المبنى وموسيقا النظم والأثر فى النفس وإشعاع المعانى من كل وجه فى انسجام وفى غير تضارب بين أول وآخر إلا القرآن؛ فكأنه سبيكة واحدة من الذهب الخالص نفاسة وقيمة، وجمالاً وبريقاً، وخلوداً وبقاءً، أو كأنه على اختلاف معانيه وتباين مراميه وسعة كلماته وتعدد أغراضه وتباعد ما بين نجومه جملة واحدة قيلت مرة واحدة أقيمت على ميزان دقيق؛ إن غيرت فيها أو بدلت، أو قدمت أو أخرت اختل واضطرب. فكل حرف وكل كلمة فى مكانها إن بدلتها أو أسقطتها تغير المعنى أو اهتز المبنى ولا يسكن موضعها ويطمئن إلا بعودتها إليه.

قال: ربما كان كلامك صحيحاً. ومع ذلك فمادة القرآن التى هى حروف وكلمات هى مادة مبسوطة أمام العرب جميعاً بل أمام أهل الأرض قاطبة يؤلفون بينها كيف شاءوا ويأتون بالبليغ والمبين مما قد يحمل الجاهل المعاند على وضعها إلى جوار القرآن ويزرع الهواجس والوساوس فى نفوس أهل الإيمان.

قلت: عدت إلى ......

قاطعنى قائلاً: دعنى أتم كلماتى. فلو كانت المعجزة من مادة لا يقدر عليها أهل الأرض ولا يصل إليها علمهم لارتاحت النفس من الوساوس وشفيت من الهواجس.

فتأمل معى وانظر: إن المرء إذا رأى الناقة تخرج من صخرة أو العصا تنقلب حية أو الميت يقوم من موته أيقن أن ذلك شئ فوق طاقة البشر أجمعين، ولا يكون إلا بقدرة مطلقة لا يحدها قانون ولا يعطلها ناموس. فلا يمكن لبشر أن يخرج حياة من جماد أو يعيد الحياة بعد الممات مهما كان علمه وقدرته، ولا يمكنه أن يطاول مثل هذه المعجزة ولو من بعيد، لا ولا يدعى مجرد الاقتراب منها. فهذه معجزة لا يملك إنسان مادتها ولا تنتاب النفس الهواجس والوساوس فى حقيقتها.

وأما القرآن فإن العقل يرى العرب شهدوا له وعجزوا عنه وخضعوا له فيوقن

بإعجازه ثم لا تلبث النفس أن تنتابها الهواجس وتتنازعها الوساوس إذا تفكرت في مادة هذه المعجزة التي هي مبذولة في يد البشر جميعاً لا يقصرون عنها ولا ترتفع عنهم.

قلت: هون عليك. فلو تفكرت في الأمر وتدبرته ملياً لرأيت المعجزة ومادتها بين يدي البشر وأمام أنظارهم وطوع ألسنتهم أثبت للإعجاز وأبين للقصور وأذهب للوساوس والهواجس من النفس.

قال متلهفًا: كيف؟ كيف؟

قلت: أولاً: إن القرآن مؤلف من مادة بين أيديهم هي الحروف والكلمات والعبارات.

قال: نعم!

قلت: فإن ذلك أثبت لإعجازه وأبين لقصورهم. ألا ترى أنه لو كانت المعجزة من غير حروفهم وكلماتهم لقالوا: هذا شئ لا نملك مادته ولا نعرف كيف الوصول إليها. فلو امتلكنا وعرفنا لجئنا بمثل ما به جئت.

ولوجدوا حينئذ من اللجاجة ما ينفرون به من الإقرار بالعجز كما قال القرآن: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت: ٤٤]. أما والمعجزة من حروفهم وكلماتهم ومادة اللغة التي هم أهلها وأرقى الناس فيها كمالاً فإن ذلك أفحم لهم وأدل على أن علو المعجزة وقدرتها إنما جاءت ممن ألف بين حروفها وأودع الإعجاز في كلماتها وآياتها. فكأنه يقول لهم: هذه حروف كحروفكم وكلمات ككلماتكم، فألفوا بينها كالقرآن إن استطعتم. فإن لم تفعلوا فاعلموا أن السر ليس في الحروف والكلمات وهي مادة لا تتغير، ولكن السر في الذي اختار لكل حرف موضعه ولكل كلمه مكانها.

فالمعجزة في القرآن وائتلاف مادته لا في المادة نفسها.

قال: كلامك وهبني بعض الراحة.

قلت: فإليك ثانياً: أرأيت إلى ما ذكرت من معجزات، فإن قلت لامرئ بها وحدثته عنها فقال لك: إني غير مصدق لما تقول ولا أومن به حتى أراه بعيني فماذا تقول له؟

قال وهو يمرر أصابعه في رأسه: أقوله له: تلك معجزة حدثت وانتهت وإنما انتهى خبرها إلينا.

قلت: فإن قال لك: ومن أدراني أن هذا خبر صادق؟ إني لا أصدق حتى أرى الناقة تخرج من الصخرة بعيني وأرى العصا تنقلب حية أمامي؟

قال: فذلك معاند لا سبيل لإقناعه ولا أمل في إيمانه. فكيف أريه حدثاً وقع من آلاف السنين؟

قلت: تذكر أنك أنت كنت معانداً ولم تزل إلا قليلاً.

ابتسم، فقلت: أرأيت كيف أن المعجزة حين تكون حدثاً تنحصر بزمان قوعها ومكان وقوعها ومن شاهدوها، ثم تصير بعد ذلك خبراً يُروى يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، ولا تبلغ ممن تريد إقناعه وتطلب إيمانه بها إلا أن يعجزك هو بدلاً من أن تعجزه أنت؟

قال: هذا طبيعي. فكيف يمكن لي أو لغيري أن يحتفظ بحدث ويجعله يتكرر عبر آلاف السنين أمام عيني كل من يريد رؤيته؟

قلت: فإذا نظرت إلى القرآن وتأملت ما بث الهواجس والوساوس في نفسك لرأيته هو سبب الاطمئنان وباعث الإيمان، فإن مادة المعجزة في القرآن حروف وكلمات من حروف البشر، فهي باقية خالدة عبر الدهور والعصور. فمعجزة الحس فانية ومعجزة القرآن باقية، ومعجزة الحس بائدة وحروف وكلمات القرآن خالدة.

وأما ثالثاً.

قال: وهل هناك ثالثاً؟

قلت: نعم هناك ثالثاً ورابعاً وكما شئت.

فأما ثالثاً: فانظر إلى ما ذكرت من معجزات وقل لى: لو ذكرتها هذه المرة لا لمعاند كما تقول، بل لعالم فلم يعاند أو يجحد، ولكنه قال لك: فإنى أريد أن أتأمل هذه المعجزة وأخضعها للدراسة وأختبرها بعقلى.

فربما كانت حدثاً طبيعياً وألبسه الناس ثوب المعجزة، فالناس فى تلك العصور الخوالى لم تكن تملك من العلم والعقل ما تحكم به على ما تراه من أحداث وظواهر، فيحيلون كل ظاهرة معجزة ويُلبسون كل حدث إعجازاً.

قال: فتلك أصعب من سابقتها. فإذا كنت لا أستطيع أن أجعل المعاند يرى المعجزة، فكيف آتى بها للعالم ليتأملها ويضعها تحت منظار علمه وعقله؟

قلت: فهات مادة القرآن التى بثت فى نفسك الهواجس والوساوس وتأمل الحكمة فى أنها من حروف وكلمات البشر، فستعرف - عندها - أنها ما كانت كذلك إلا لتظل متدفقة بالإعجاز فى كل عصر؛ يتأملها المتأمل، ويخضعها للدراسة والاستقراء العالم المؤمن ليزداد يقيناً والمعاند الشاك ليهتدى، فتُرى الناظرين إليها فى كل عصر وجهاً جديد من الإعجاز لم يدركه سابقه، ويقصر فهم السابق فيها عما يستنبطه منها لاحقه. ولو كانت مادة القرآن - المعجزة من غير الكلمات والحروف لكانت صماء جامدة، لا جديد منها ولا سبيل للعقل إليها. وهل للعقل سبيل إلا لما يخضعه لنظره ويكون من مادة البشر. فمعجزة الحواس واحدة قاصرة ومعجزة القرآن متفجرة متجددة بتجدد العقول ورقيها.

ها! أما زالت تنتاب نفسك الوساوس وتساورها الهواجس؟

قال: فماذا عن رابعاً؟

قلت: رابعاً: حين تنقلب العصا حية أو تخرج الناقة من الصخرة أو غيرها مما ذكرت فبم يدرك الإنسان مثل هذه المعجزة؟

قال: بعينه وبصره.

قلت: أى بحواسه؟

قال: نعم.

قلت: وما الذى يدركه منها بحواسه؟

قال: يدرك أنها خرق للناموس الكونى ومعجزة لا يقدر عليها البشر.

قلت: ومع ذلك فأنت ترى أن العلم تقدم وصار يأتى كل يوم بالعجائب تبهر الأبصار والأسماع حتى لم يعد الإنسان يعجب لرؤية جديد لم يألفه أو غريب لم يعرفه. بل أصبح الإنسان ينتظر كل يوم عجيبة ويتوقع كل ليلة نادرة.

قال: ذلك صحيح. فإن البشرية بلغت من تقدم العلم ورقى العقل ما يأتى لكل جيل بما لو رآه سابقة لعده خرقاً لكل ناموس، فهو عجيبة من العجائب أو غريبة من الغرائب.

قلت: لذلك فمعجزة الحواس وإن ظلت معجزة لارتفاعها عن طاقة البشر وقدرتهم إلا أن بريقها فى النفس ورنينها فى السمع والبصر يخفت كل يوم لأن الغرائب أصبحت من العادات والعجائب أصبحت من المتوقعات.

فقل لى: بم تدرك معجزة القرآن وتعرفها؟

قال: أضعه أمامى وأنظر فيه وأحاول أن أتلمس وأخلص إلى سر الإعجاز فيه.

قلت: إذاً فأنت تدرك المعجزة فى القرآن بعقلك، بل تدركه بشحذ عقلك واستثارته وتنبيهه واستنفاره إلى أقصى طاقته والوصول به إلى غاية كماله.

وعقل الإنسانية يترقى عصراً بعد عصر، فكلما مر عصر زاد درجة، كان التاريخ سلم يرتقى العقل درجاته. وهو يزداد كل يوم نضجاً وكمالاً، فكلما ازداد نضجاً وكمالاً ازداد قدرة على استقراء معجزة القرآن وفهمها، واستكشاف أسرارها وإدراك سر إعجازها. فمعجزة العقل ما يزيدها رقى البشرية إلا كمالاً ولا يزيدها رقى العقل إلا إعجازاً.

وإليك ملحق رابعاً.

قال ضاحكاً: ملحق رابعًا: وهل انتهت الأعداد حتى تجعل لها ملاحق؟

قلت: فإن معجزة القرآن لما كانت تخاطب عقل الإنسان، به يدركها وبه يفهمها، فالقرآن معجزة تخاطب الانسان بما شرف به على سائر المخلوقات، فهى تخاطب الإنسان حال رقيه إلى مرتبة الإنسان الكامل أو المخلوق الكامل.

وأما ما ذكرت من معجزات تخاطب حواس الإنسان وتبهرها فإنها تخاطب ما يملكه الإنسان وما يملكه غيره ويشترك فيه مع بقية خلق الله الأدنى.

فقل لى: كيف كان للعقل أن يدرك المعجزة أو يفهمها إلا لأنها من مادة يستطيع أن ينظر فيها ويتأملها؟ وهذه المعجزة التى تتفجر ينابيع من الإعجاز فى كل عصر برقى العقل وتقدم البشرية، كيف كان يمكن أن تكون متجددة متدفقة تزداد كل يوم بريقاً وإعجازاً إذا كانت من مادة لا تصل إليها معرفة البشر؟ فيكون رقيهم فى واد والمعجزة فى واد آخر، وغايتها أن تكون - حينئذ - كتحفة على الرفوف؟

فما أخبار الهواجس والوساوس الآن؟

قال فى سعادة: قد رضيت.

قلت: فإليك خامساً!

قال: خامساً! أليس لأعدادك من نهاية؟

قلت: أرايت إلى ما ذكرت من معجزات أهى دليل وبرهان أم منهج وشريعة؟

قال: بل هى دليل وبرهان على منهج وشريعة؟

قلت: فإذاً المنهج والشريعة شئ والمعجزة الدليل شئ آخر منفصل عنهما.

قال: نعم.

قلت: وأما القرآن فإنه منهج وشريعة، وهو أيضا دليل هذا المنهج ومعجزة

هذه الشريعة. فالقرآن هو المنهج ودليله، وهو الشريعة ومعجزتها. ففيه توحيد بين الشريعة والمعجزة، وفيه صلة رابطة بين المنهج ودليله. وما كان ذلك إلا لأن مادته من حروف وكلمات. فأيهما أرقى فى ميزان العقل وأجمل فى ميزان النفس: انفصال المعجزة عن شريعتها أم توحدها؟

قال مفكراً: إن الفلاسفة يقولون: إن التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية. والعلماء يقولون: إن التوحيد له جمال فى النفس حتى إن علماء الفلك والطبيعة ليسعون جاهدين – من أجل الراحة النفسية والكمال العقلى – إلى توحيد الكون بإيجاد قانون واحد يفسرون به حركة الكون كله وقوة واحدة تنبثق منها القوى الأربع المشهورة فى الطبيعة.

قلت: فمادة القرآن التى وحدت بين الشريعة والمعجزة والمنهج ودليله هى سبب كماله فى العقل وجماله فى النفس.

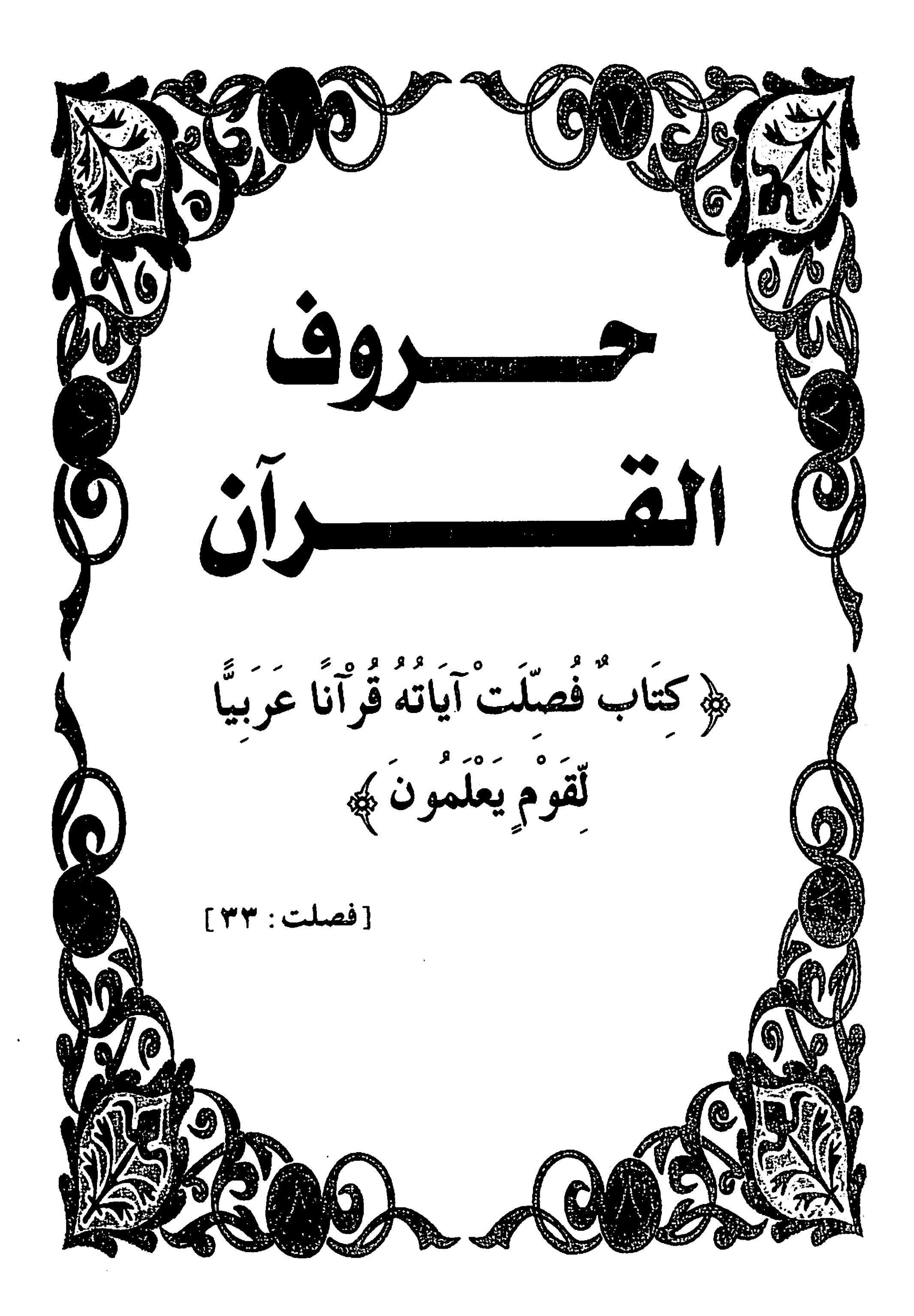
قال: فمادة القرآن هى معجزته وسر إعجازها فى توليفها وتأليفها؟

قلت: نعم.

قال: إذاً فهيا بنا! فإنى أرانا قد اجتزنا الباب وقد اشتقت للنظر فيما وراءه، والسير فى أنحائه وأبهائه، ومعرفة السر فى بنيانه، وفهم المخبوء فى لبناته.

قلت: فهيا بنا نتأمل لبناته يا صديقى العزيز.

* * *



حروف
القرآن
﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
[فصلت : ٣٣]

قال: أريد أن نبدأ من البداية؛ من اللبنات الأولى فى إعجاز القرآن.

قلت: فإن لبنات القرآن الأولى هى حروفه فلنبدأ بها.

قال متعجباً: وهل فى الحروف إعجاز؟! كنت أحسب اللبنة الأولى فى الإعجاز ستكون على الأقل الكلمة لا الحرف.

قلت: بل إن سر الإعجاز الأول فى الحروف.

قال: فكيف يكون للحرف سر فى الإعجاز والحروف فى الكلمة هى هى فى القرآن وفى غيره من الكلام والكلمات؟ فلا أعرف أن القرآن أتى بحروف جديدة فى الكلمات.

وإنى قد أفهم أن فى إختيار الكلمات وتآلفها وإعادة تركيبها وصياغتها لتكون جملاً وعبارات وآيات غير مسبوقة وتركيباً فريداً لا يُقلَّد ما يعطى من إبداع المعنى وإحكام المبنى وإمتاع الوجدان وإقناع العقل والنفاذ فى النفس ما تقصر عن الوصول إليه مدارك البشر وما تعجز عن الإتيان به طاقاتهم. ولكنى لا أفهم كيف يكون قصورٌ عن الحروف، وإنما الكلمة واحدة من حروف لا تتغير لا فى القرآن ولا فى غيره.

قلت: تماماً كما أن لبنات أى بناء واحدة لا يرى أحد - إذا نظر إليها مفرقة - فرقاً بينها فى بناء وآخر. ومع ذلك فإن اختيار نوع اللبنة فى البناء وحجمها وترتيبها وإعادة تنسيقها وهندستها يعطيك من الفرق بين بناء وبناء ما بين بيوت الطين والتراب وبين الشاهقات وناطحات السحاب.

فاللبنات الصغيرة المتشابهة قد يرص بعضها رصاً فما تكاد تمنع عن صاحبها حراً ولا برداً، وأخرى تحكم إحكاماً فتعطيك سكينة وأماناً، وثالثة تنسق وتزخرف فتمنحك راحة وجمالاً، ورابعة تشاد وتشدد فتريك عظمة وجلالاً، وخامسة تجمع ذلك كله فتكون عجيبة من عجائب الدنيا.

قال: يبدو أنك كنت تريد دراسة الهندسة فلما فاتتك استعضت عن هندسة البنيان بهندسة البيان.

قلت مبتسماً: وكذلك الحرف فى القرآن؛ اختار له العليم الحكيم من الكلمات وصيغها ما يودع سر الإعجاز فيه وفيها. فكل حرف فى مكانه الدقيق الذى يبين من المعنى مالا يفى به غيره، ويهبك من التأثير فى عقلك ونفسك ما يخفق ويخبو إذا بدلته، ويمنحك من جمال النظم وتناسق الإيقاع والنظم ما يختل إذا أسقطته، ويجرى اللسان به فى مخرجه فى يسر بين إخوته. فاللسان يتدفق إليه فيه منه فى بساطة آسرة وسهولة ساحرة.

والأعجب أن يكون إعجاز الحرف وسره فى حذفه؛ فيزيد حذفه المعنى بياناً واللحن جمالاً والأثر اكتمالاً.

قال وهو يتنهد بارتياح: أرحتنى.

قلت: وراحتك هذه هى سر القرآن، فكلما أمعنت فيه نظراً ازددت به إيماناً؛ فنفسك وعقلك فى طريق واحد لا فى اتجاهين متنافرين.

فلنتأمل حروف القرآن لنرى كيف يكون فى الحروف واختيارها ما يكون إعجازاً تحسه ويمكنك بعقلك أن تكشف سره.

تثاءب قائلاً: قد مر الوقت سريعاً وسجى الليل ولا أحب أن أبدأ حديثاً كهذا إلا وأنا فى كامل يقظتى وأوج لياقتى، فسأودعك الآن إلى لقاء.

قلت: فإلى لقاء.

* * *

قلت: مرحى مرحى! تقرأ القرآن؟

قال: بل أتأمله وأتفحصه وأحاول أن أرى أين يكمن فيه سره.

قلت: وما هذا الرص من الكتب القابع أمامك؟ أقررت بيعها؟

قال: بل اشتريتها.

قلت: كل هذا؟!

قال: نعم. فإنى أجمع الكتب وأقرأ ما فيها وإن كان كثير منه عسيراً، ثم أتأمل الآيات فى ضوئه وأحاول رؤية ما فيها بنفسى.

قلت: هذا بديع! فلنكمل حديثنا عن الحروف لنرى كيف إعجازها.

قال: انتظر قليلاً وتمهل قبل أن تُوغل فى الحروف وأسرارها! هناك شئ لا أفهمه وتفكرت فيه طويلاً فلم أستطع الوقوف على سره.

قلت: ما هو؟

قال: الحروف المقطعة.

قلت: فى أوائل السور؟

قال: نعم. فإنها نبهتنى وأثارت عقلى فتفكرت فيها طويلاً.

قلت: وما الذى وصلت إليه فيها؟

قال: لم أصل إلى شئ. وكلما قلبتها من وجوهها زاد لى غموضها. فلا هى كلمات وجمل فى ترابط واتصال، ولا هى بالتى تعطى معنى هكذا وهى فى تقطع وانفصال.

قلت: وإذاً؟!

قال: وإذاً فإنها حيرتنى. وما لبث ان خفت صوته وقال فى حذر: وربما كانت هكذا لتهول على السامع والقارئ وتحيطه بأجواء من الغموض والطلاسم لتُظهر القرآن فى مظهر عميق مخيف.

قلت: هيه! أهذا من كلامك وعقلك أم مما قرأته فى الكتب؟!

قال: لن يفرق كثيراً أن يكون هذا أو ذاك. المهم...

قلت: فقل لى: وأنت تقرأ هذا الكلام الأعمى كصاحبه ثم تتأمل القرآن فى ضوئه - كما قلت - أيطمئن قلبك ويرضى عقلك وتصدقه؟

قال مبتسماً: حقاً! لا اصدق. ومع ذلك فانا لا افهم ولا تكتمل راحتى إلا بالفهم.

قلت: فهذا أمر يسير يا صديقى. فلنتامل هذه الحروف لنرى أغامضة هى أم مبينة، وأهى طلاسم للغلق أم مفاتيح للفهم.

فقل لى: حين قرأت هذه الحروف أراعك شئ فى عددها أو صفاتها أو السور التى جاءت فيها؟

سكت قليلاً مطرقاً إلى الأرض ثم قال: قد نظرت إليها كلٌ فى سورته ولم يدر بخلدى أن أجمعها كلها معاً لأنظر فيها مجتمعة، وما سبق إلى ظنى إلا أن الذى جاء منها فى أوائل السور إنما جاء اتفاقاً وعرضاً.

قلت: فإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً. فأخبرنى أولاً: ما هى هذه الحروف التى جاءت مقطعة فى أوائل السور؟

قال: انتظر. ثم أخذ يقلب فى المصحف ويقف عند الأوراق التى دسها ليميز بها الصفحات وهو يقول: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون.

قلت: فكم حرف هذه؟

قال: أربعة عشر حرفاً.

قلت: ألم ينتبه عقلك إلى أن هذه هى نصف حروف الهجاء العربية بالضبط؟

قال: لا. على أنه ربما كانت هذه مصادفة.

قلت: فما رأيك إذا كانت هذه الحروف تحتوى على نصف الحروف المهموسة [1] فى لغة العرب وهى الصاد والكاف والهاء والسين والحاء؟

قال: فتلك مصادفة بعيدة. لكنها محتملة.

قلت: فإذا كان بها نصف الحروف الجهرية [2] أيضا وهى الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء؟

---

(١) الهمس: هو جريان النفس عند النطق بحروفه، وحروفه عشرة وهى: الفاء - الحاء - الثاء - الهاء - السين - الشين - الخاء - الصاد - الكاف - التاء وهى المجموعة فى قول: فحثه شخص سكت.

(٢) الجهر: ضد الهمس، وهو انحباس النفس عند النطق بالحرف وحروفه هى الثمانية عشر الباقية من حروف الهجاء.

قال : فهذه مصادفة أبعد!

قلت : أما زلت ترى أنها مصادفة؟ فما تقول إذا علمت أن هذه الحروف المقطعة تحتوى أيضاً نصف الحروف الشديدة (١) وهى الألف والكاف والطاء والقاف، ونصف الحروف الرخوة (٢) وهى اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والنون، ونصف الحروف المُطبقة (٣) وهى ....

قاطعنى قائلا : كفى كفى!

قلت : انتظر فقط! ونصف الحروف المنفتحة (٤) ونصف الحروف المستعلية (٥) ونصف الحروف المنخفضة (٦) ونصف حروف القلقلة (٧).

قال : قد سلمت قد سلمت! ليست مصادفة. ومع ذلك فأنا لا أفهم السر فى أن هذه الحروف المقطعة تأخذ من كل صفة نصف حروفها وتترك النصف الآخر.

قلت : فإن السر فى ذلك هو ما قلته أنت تواً.

قال : الألغاز ثانية.

---

(١) الشدة : هى انحباس الصوت عند النطق بالحرف، وحروفها ثمانية هى : الهمزة – الجيم – الدال – القاف – الطاء – الباء – الكاف – التاء.

(٢) الرخاوة : ضد الشدة وهى جريان الصوت عند النطق بالحرف.

(٣) الإطباق : هو إطباق اللسان والشفة عند النطق بالحرف، وحروفه : الصاد – الضاد – الطاء – الظاء.

(٤) الانفتاح : ضد الإطباق وهو خروج الحرف من غير إطباق بين اللسان والشفة، وحروفه الأربعة والعشرون الباقية.

(٥) الاستعلاء : هو ارتفاع اللسان إلى الحنك الاعلى عند النطق بالحرف، وحروفه سبعة وهى : الخاء – الصاد – الضاد – الغين – الطاء – القاف – الظاء.

(٦) الانخفاض أو الاستفال : ضد الاستعلاء وهو انخفاض اللسان عند النطق بالحرف، وحروفه الباقية من حروف الهجاء.

(٧) القلقلة : هى اضطراب اللسان عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية، وحروفه خمسة : القاف – الطاء – الباء – الجيم – الدال.

قلت : فالسر في هذا التنصيف واحتواء هذه الحروف نصف حروف اللغة العربية على أى وجه من الوجوه هو إثارة العقل وتنبيهه .

أولاً : إلى أن هذه الحروف لم تأت هكذا مصادفة عارضة واتفاقاً، وأنها إنما جاءت إحكاماً وقصداً واتساقاً .

وثانياً : إلى أنه لا يمكن لبشر أن يكون أتى بها على هذا الميزان الدقيق ومن أى وجه نظرت إليها، وهى بعدُ متناثرة فى سور القرآن ونزلت نجوماً مفرقة . ولن يكون هذا البشر - إن وجد - محمداً عليه الصلاة والسلام، وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف الحساب والعد .

قال : إن عبارتك أغلقت نوافذ الشك وفتحت لى أبوابه . فإذا كان محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكنه أن يأتى بهذه الحروف على مثل هذا الميزان الدقيق، فما الذى يمنع أن تكون بشرية الوضع والذى وضعها قارئ كاتب، عادٌّ حاسب ؟ .

قلت : وهذه أيضا مستحيلة .

قال : مستحيلة ؟ ! قل صعبة فأوافقك . فما الذى يمنع بشراً أن يأتى بالحروف كلها ويختار منها نصفها، ويختار هذا النصف محتوياً نصف الحروف من كل صفة ؟

قد تكون عملية شاقة ذهنياً ولكنها ممكنة بالتبديل والتوفيق .

قلت مبتسماً : ولا حتى بالتبديل والتوفيق . لأنه لكى يوجد هذا البشر الخارق لا بد أن تكون له القدرة لا على هذا الحساب المعقد والتوازن الدقيق فقط، ولكن على النفاذ فى غيوم القرون واجتياز حجاب الزمان .

قال : لا أفهم .

قلت : ستفهم حين تعلم أن إحصاء حروف العربية ومعرفة مخارجها وترتيب صفاتها لم يحدث إلا بعد قرون طوال من عصر نزول القرآن، وخلال زمن

ممتد وعلى يد كثرة كاثرة من العلماء أذهبوا أعمارهم وأفنوا أقلامهم فى تتبع حروف العربية واستقرائها وتحديد مخارجها وصفاتها؛ يستدرك اللاحق منهم ما فات السابق، ويأتى المتأخر بما لم ينتبه إليه المتقدم حتى أتموا معرفة بناء اللسان العربى وإحصاء حروفه ومخارجه وصفاته على ما خُلقت عليه.

قال فى ذهول: أتعنى أن هذه الحروف المقطعة قد جاء فيها نصف الحروف من كل صفة من صفات اللسان العربى قبل أن توجد هذه الصفات نفسها؟!!

قلت: نعم! والأدق أنها جاءت هكذا قبل أن تُعرف هذه الصفات ويُهتدى إلى تصنيفها.

فتأمل هذه الحروف وقل لى: ألا تشير لك الآن أنه لا يمكن لأحد أن يأتى بها على هذا الميزان الدقيق إلا أن يكون عالماً باللسان وبنيته، والحرف وصفته، وكل مخرج على دقته؟

قال: ماذا أقول؟ فهل يمكن لأحد أن يرتب شيئاً ويضع له مكانه ويجعله على ميزان دقيق وكأنه يراه بين يديه يصنفه ويختار منه قبل أن يوجد إلا من لا يحد علمه زمان ولا تقاس قدرته بنقص الإنسان؟

قلت: إذاً فهو الله عز وجل؟!

قال: آمنت بالله.

ولكن قل لى: أنا الآن أفهم أن هذا التوزيع الدقيق لهذه الحروف المقطعة إنما كان لينفى عنها العشوائية والمصادفة العارضة، ويشير إلى إحكامها ودقة نظامها وقصور قدرة البشر عنها، ولكن إلام تشير هى نفسها، وما سر وجودها فى أوائل سورها؟

قلت: فهذه تحتاج إلى تمهل وتدبر.

فانظر عندك وقل لى: السور التسع والعشرون التى جاءت فيها هذه الحروف المقطعة أمكية هى أم مدنية.

قال : انتظرني قليلاً، وأخذ يقلب المصحف فى مكان الوريقات ثم قال : كلها مكية إلا البقرة وآل عمران والرعد فهى مدنية.

قلت : إذاً فمعظمها مكية . حتى السور الثلاث التى ذكرت فإنها من أوائل ما نزل بالمدينة، فيمكن أن نقول إنها خاتمة سور الحروف المقطعة .

قال : فليكن! هى خاتمتها .

قلت : إذا فجُل هذه الحروف فى سورها إنما جاءت فى أتون المعركة المحتدمة بين الإسلام والكفر فى مكة، وفى أوج عناد المشركين وتكذيبهم بالقرآن؟

قال : نعم .

قلت : ومن ثَم فهى قد جاءت فى ذروة تحدى القرآن وإهاجته لهم، وفى قمة إثبات إعجازه وقصورهم .

قال : وهذه أيضاً نعم . وما زلت لا أفهم ما هى العلاقة بين هذه الحروف وبين التحدى والإعجاز؟

قلت : نسيت ما قلناه .

قال : وكيف أنسى وأنا أسجل؟! فأى ما قلناه تقصد؟

قلت : مادة القرآن .

قال : آه!

قلت : فإن الله قد وضع لهم هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور التى يتحداهم فيها ويصمهم بعجزهم وإعجاز القرآن لهم ليقول لهم : إن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف التى كحروفكم ويتألف منها كلامكم . فهى مادة فى أيديكم وطوع ألسنتكم، فإن استطعتم فألفوا بينها مثل القرآن وسوره، فإن عجزتم فاعلموا أن سر الحروف فى الذى ألف بينها واختارها واختار لها أماكنها .

ثم ألا ترى أن تذكيرهم بهذه الحروف ونصبها أمام عيونهم وهى مادة الكلام أبلغ لهم فى التحدى والإهاجة وإثبات إعجاز القرآن . فهى كعلم المنتصر المرفوع فوق عاصمة الخصم إثباتاً لعجزه ورمزاً لقهره .

قال: وأى علم والحروف مقر دولتهم وحصن عزتهم!

قلت: ورفعاً لعلم النصر إلى عنان السماء حتى يراه القاصى مع الدانى، فإنه ما من سورة جاءت فيها هذه الحروف المقطعة إلا وجاء فيها ذكر القرآن بعدها والانتصار له أو التحدى به. فيضع القرآن بذلك من ينظر إليه أمامه وأمام العرب وأمام هذه الحروف، فيحكم والخصمان حاضران والشاهد موجود!

قال: فكأنها محاكمة منصوبة وهذه الحروف هى الدليل والشهود؟

قلت: نعم. فعليك بالدليل والشاهد، وعليَّ بما يدل عليه ويشهد له.

قال وهو يفتح المصحف عند أول ورقة: ﴿الٓمٓ﴾ . البقرة.

قلت: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]

قال: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران]

قلت: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٢-٣]

قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف]

قلت: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]

قال: ﴿الٓر﴾ [يونس]

قلت: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [هود]

قلت: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [يوسف]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١]

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]

قال: ﴿ الٓمٓر ﴾ [الرعد]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾

[الرعد: ١]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [إبراهيم]

قلت: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [الحجر]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

قال: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم]

قلت: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [مريم: ١٦]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]

قال: ﴿ طه ﴾

قلت : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه : ٢-٤]

قال : ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء]

قلت : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء : ٢]

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥]

قال : ﴿طسٓ﴾ [النمل]

قلت : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل : ١]

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل : ٩٣]

قال : ﴿طسٓمٓ﴾ [القصص]

قلت : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص : ٢]

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾

[القصص : ٨٦]

قال : ﴿الٓمٓ﴾ [العنكبوت]

قلت : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت : ٤٥]

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٨]

قال : ﴿الٓمٓ﴾ [الروم]

قلت : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم : ٥٨]

قال : ﴿الٓمٓ﴾ [لقمان]

قلت : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان : ٢]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [السجدة]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [السجدة: ٢-٣]

قال: ﴿ يسٓ ﴾ [يس: ١]

قلت: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس: ٢]

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]

قال: ﴿ صٓ ﴾

قلت: ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١]

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [غافر]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢]

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾

[غافر: ٤]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [فصلت]

قلت: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢-٣]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]

قال: ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى]

قلت: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]

قال: ﴿حمٓ﴾ [الزخرف]

قلت: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الزخرف: ٢-٣]

قال: ﴿حمٓ﴾ [الدخان]

قلت: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾

[الدخان: ٢-٣]

قال: ﴿حمٓ﴾ [الجاثية]

قلت: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]

قال: ﴿حمٓ﴾ [الأحقاف]

قلت: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ٢]، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

[الأحقاف: ١٢]

قال: ﴿قٓ﴾

قلت: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]

قال: ﴿نٓ﴾

قلت: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

[القلم: ١-٢]

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[القلم: ٤٤]

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]

قال وهو يضع آخر ورقة فى مكانها ويغلق المصحف : يبدو أن كلامك صحيح . فما من سورة جاءت فى أوائلها هذه الحروف إلا وذكر بعدها مباشرة القرآن وتنزيهه والإشارة إلى علوه ورفعته.

قلت : وحتى السور الثلاث التى لم يذكر الكتاب والقرآن فيها بعد هذه الحروف مباشرة، وهى مريم والعنكبوت والروم، فإن التحدى بالقرآن وتبكيت منكريه مبثوث فى السورة ينبهك إليه فى موضعه منها العلم المنصوب فى أولها.

قال : قد نبهتنى الآن ولم أنتبه إليه من قبل أن هذه الحروف تنطق بأسمائها، فإذا كان المقصود هو تنبيه العرب إلى أن القرآن مؤلف من حروف كحروفهم ليكون أمعن فى التحدى وأبين للإعجاز، فلماذا جاءت بأسمائها : ألف ولام وميم وكاف وها ويا وعين وصاد، ولم تأت بذواتها فتكون ا ل م ، ك هـ ى ، ع ص ، ح م؟

قلت : ففى هذا العدول إشارة وسر آخر.

قال : سر آخر ؟! يظهر أن هذه الحروف التى رأيتها لأول وهلة غامضة هى ينبوع للإشارات والأسرار!

قلت : والسر هو تنبيه أنظار العرب وعقولهم وكل من يأتى بعدهم إلى أن هذه الحروف فى أوائل السور هى بأسمائها تماماً كما تنبه عقلك.

قال : فهب أنهم تنبهوا إلى ذلك ، وها أنا قد تنبهت ، ومع ذلك لا أفهم السر فى أن تكون بأسمائها .

قلت : السر أن النبى عليه الصلاة والسلام كان أمياً فهو...

ابتسم فجأة ثم قاطعنى قائلاً : انتظر! فقد ومض فى عقلى معناها . هو عليه الصلاة والسلام كان أمياً، فلا يمكن أن يعرف أسماء الحروف . وإذاً فلا يمكن أن يكون هو الذى أتى بها.

قلت : بارك الله لنا فى عقلك . فها هو قد فهم الإشارة فى أسمائها، تماماً كما فهمها العرب وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام لم يمسك ورقة ولا قلماً فى حياته ولم يجلس إلى معلم يعلمه وهو بين أيديهم وأمام سمعهم وبصرهم.

قال: فإذا كان عليه الصلاة والسلام بين أيديهم وأمام سمعهم وبصرهم وهم يعلمون علم اليقين أنه لم يعلمه بشر، ففى هذه الحروف أيضا إشارة إلى نبوة النبى عليه الصلاة والسلام ودليل على أن علمه إنما جاء من مصدر غير بشرى.

قلت: فها أنت قد فطنت إلى إشارة ومعنى آخر فيها. فكأن هذه الحروف تقول لهم: إذا رأيتم أسمائى وسمعتم الذى يقولها لكم هو محمد الأمى، فتيقنوا أنى لست من عنده، فهو لا يعرفنى وإنما عرَّفه بى وعلمه إياى العليم الخبير.

قال: حقاً إن هذه الحروف لعجيبة!

قلت: والآن ما رأيك فيها: أغامضة هى أم مبينة؟ طلاسم أم مفاتح؟

وأهى مصادفة واتفاق، أم إعجاز وإحكام واتساق؟

قال: وهل بعد هذه الخبايا التى تطل منها؛ كلما أديرت على وجه كشف عن كنز مخبوء فيه اتساق وإعجاز؟!

قلت: وأما نكتة إعجازها أنك لو أتيت بهذه الحروف لتؤلف منها جملة مبينة تجمعها لكانت: نص حكيم قاطع له سر!

* * *

قال وهو يجلس: تعرف! إن هذه الحروف مملوءة بالأسرار!

قلت: أما زلت تفكر فيها؟

قال: إنما كنت أسجل ما دار بيننا عنها وأقلب وجوه النظر فيه وأتأمل هذه الحروف فى ضوئه وضوء ما أقرأه.

قلت: وهل اطمأن قلبك الآن تماماً؟

قال: إنها لعجيبة الشأن! فهى تثير الذهن وتنبهه، وتجذب الأذن وتسلبها، وفى تنصيفها الدقيق إيحاء بمصدرها الإلهى. وفيها الإعجاز وعَلم منصوب

للتحدى، ودليل النبوة فى أسمائها. ثم هذه الجملة التى تتكون بها. فكأن هذه الحروف العجيبة جوهرة تشع من كل وجه.

قلت متبسماً: والأهم أن قد عرفت كم هى مبينة ومعجزة، وأن ليس فى القرآن حرف إلا وقد أعد له موضعه ومُكِّن فيه تمكيناً فلا يمكنك أن تستغنى عنه ولا أن تستبدل به غيره فيعطيك معناه، فلو أنك - مثلاً - نزعت واحداً من هذه الحروف المقطعة ووضعت آخر مكانه لكان أقل ما يحدث أن يختل التنصيف الدقيق التى هى عليه ويضيع السر المخبوء فيه ولا ......

قاطعنى قائلاً: قف! قف! فأنا الآن أريد حل هذا اللغز.

قلت: أى لغز؟!

قال: هذا اللغز الذى ذكرتنى به هذه الموازنة الدقيقة والحساب المعقد الذى أتى بنصف حروف كل صفة فى لسان العرب فى نصف حروف لسان العرب.

قلت: وما علاقة التوازن والحساب بالألغاز؟

قال: خذ فاقرأ! ها هنا من سورة فصلت:

قلت: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [فصلت: ٩-١٢]

قال: كفى! كفى!

قلت: ها قد قرأت. فماذا بعد؟!

قال: ماذا بعد؟! احسب معى: ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ فِي..........** ﴾.

قلت: يومين.

قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي.......﴾.

قلت: أربعة أيام.

قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي ....﴾

قلت: يومين . ها!

قال: ها! أتراوغنى؟! كم يكون جمع هذه الأعداد؟

قلت: ثمانية!

قال: وتقولها هكذا ببساطة وكأنه لا شئ فيها.

قلت: فماذا تريدنى أن أفعل؟!

قال: يا مثبت العقل! أليس القرآن فى مواضع عدة يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]

قلت: بلى!

قال: فكيف يقول فى مواضع عدة إنها ستة أيام، ثم يأتى بها مفصلة فيكون مجموعها ثمانية؟!

أتضحك؟!

قلت: يا قليل العقل! أتظن الذى يأتى بمثل هذا الحساب المعقد والتوازن الدقيق يمكن أن يخطئ فى حساب بضعة أيام؟!

تراجع إلى الوراء فى هدوء فقلت: الأمر أيسر كثيراً مما تظن وليس فيه لغز ولا حتى رائحة لغز.

وضع أصابعه فى شعره وأخذ يعبث فيه مفكراً ثم قال: ولا حتى رائحة اللغز!!

قلت : قل لى : ماذا تعنى الواو؟

قال : العطف .

قلت : فقط؟!

قال : نعم . فقط!

قلت : إذاً لو قلت : جاء محمد وعلى فإنك لا تعنى بذلك ترتيباً ولا وصفاً لكيفية المجئ ولا تتابعه، فليس الترتيب أو التتابع هو القضية أو الشئ الذى تريد أن تخبر عنه .

قال : هذا صحيح، فقد يكون محمد جاء أولاً أو على أو جاءا معاً فى وقت واحد، ولكن ما علاقة هذا بالآيات وخلق السموات والأرض والحساب؟

قلت : معنى الواو هذا هو حل اللغز العويص الذى صنعه عقلك .

قال : كيف؟

قلت : إنك أتيت للآيات وأعطيت الواو معنى من عندك ليس لها فى الحقيقة، وهو معنى ترتيب مراحل الخلق المذكورة فى الآيات وتعاقبها .

قال : آه!

قلت : فانتهيت بذلك إلى أن جمعت الأيام المذكورة فى الآيات جمعاً حسابياً : يومان + أربعة + يومان لتصبح ثمانية .

قال : ما زلت لا أفهم .

قلت : الواو – كما قلت أنت – تعطى معنى العطف فقط دون الترتيب والتعاقب، فوجودها يعنى أن الله ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ** ﴾ ، ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** ﴾ و ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ . ولأن الواو ليس لها إلا معنى العطف فقط، فقد تكون هذه المراحل متزامنة أو متعاقبة أو متداخلة بعضها فى البعض الآخر . ليست هذه القضية التى تخبرك عنها الآيات .

قال : إذاً!

قلت : إذاً افترض عقلك المحلق أن هذه المراحل منفصلة متعاقبة من عنده دون أن يوجد فى الآيات ما يعطى هذا المعنى.

وإذاً حل لغزك العويص هو أن الله عز وجل خلق الأرض فى الوقت الذى جعل فيه الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، فاستغرق الخلق يومين واستغرق وضع الرواسى والبركة وتقدير الأوقات أربعة أيام من أيام الله. وهذا متداخل بذاك.

قال : فوضع الرواسى والبركة والتقدير بدأ مع الخلق وانتهى بعده بيومين، ثم جاء خلق السموات فى يومين.

قلت : فيكون المجموع ستة أيام وتُفك عقدة لغزك العويص.

قال : يالغفلتى! حقاً إن الأمر يسير هين. الواو لا تعنى ترتيباً ولا تتابعاً، فقط العطف المجرد.

قلت : ألم أقل لك من قبل إن كل حرف فى القرآن فى موضع لا يمكنك أن تغيره أو تسقطه وإلا اختل كل شئ ووجدت نفسك فى متاهة وعماء.

فلو وضعت أى حرف مكان الواو كالفاء أو ثم، لتضاربت الآيات التى لا اتساق بينها ولا إحكام إلا بهذه الواو.

* * *

قال : إنك طالما قلت لى : إنه ما من حرف فى القرآن يصلح غيره مكانه معنى وإبانة وأثرا ونظماً.

قلت : نعم.

قال : ومع ذلك فإنى وأنا اقرأ وأتأمل رأيت من الحروف ما لو استبدل به غيره لم يفرق المعنى ولم يختل المبنى.

قلت : فأنا بالقرآن أوثق منى بتاملك، فقل لى : ماذا وجدت؟

قال: إن القرآن يقول على لسان فرعون فى السحرة: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]

فلو تأملت ﴿ فِي ﴾ هذه ثم نزعتها ووضعت مكانها على لتكون: «ولأصلبنكم على جذوع النخل» لما كان هناك فرق. فالصلب هو الصلب لم يتغير، والنخل هو النخل لم يتبدل، والسحرة هم هم مصلوبون بـ «على» أو ﴿ فِي ﴾.

قلت: أتعرف من الذى يتغير ويتبدل لو وضعت «على» مكان ﴿ فِي ﴾ كما تريد؟

قال: من؟! وهل ثَم (من) آخر غير المصلوبين؟

قلت: نعم. فرعون.

قال: وما شأن ﴿ فِي ﴾ أو «على» بفرعون؟

قلت: أليس هو الآمر بالصلب؟

فقل لى: هؤلاء السحرة لِمَ أمر فرعون بصلبهم؟

قال: لأنه جمعهم ليستعين بهم فى مواجهة معجزة موسى عليه السلام كما يقول القرآن: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس: ٧٩]

قلت: فهل أعانوه بعد أن جمعهم كما كان يرجو؟

قال: لا. بل خذلوه وآمنوا بموسى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٦ – ٤٨]

قلت: ولم يخذلوه فقط وهو الذى كان يعدهم لنصره وبعث حاشرين لجمعهم، بل ناصبوه العداء فى شموخ وعزة وتحد: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢]؛ فكأنهم يقولون له: أعلى ما فى خيلك اركبه، وهو الذى كان يقول فيُسمع ويستخف فيطاع وشعاره: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤].

فتأمل هذا الذى تراه وقل لى : ما تكون نفس الرجل وما يكون بداخله إزاء هؤلاء الذين خذلوه بعد أن سعى فى جمعهم، وتحدوه على الملأ بعد أن كان يرجو نصرهم، وأذلوا كبرياءه فى قومه بكفرهم به وإيمانهم؟

قال : لا بد أنه كان حانقاً يكاد ينفجر من الغيظ بعد أن هُزم على الملأ من مكمن قوته، ومرغت فى التراب عزته. ولو استطاع لأنشب أظافره فى أعناقهم، ومزق بأسنانه أجسادهم.

قلت : فهذا سر ﴿فِي﴾ الذى تبوح به ولا يكشفه غيرها.

فهذا الحرف يدلك على أن أجسام السحرة لم تربط وتعلق على جذوع النخل فقط، ولكنها شدت شداً وثيقاً حتى غارت الحبال فى أجسامهم وصيرتهم وجذوع النخل شيئاً واحداً لا مجرد شئ معلق على شئ.

قال : فما علاقة ذلك بغيظ فرعون؟

قلت : إن القرآن بـ ﴿فِي﴾ هذه ومعناها هذا يكشف من نفسية الفرعون ما يختفى ويضيع لو لم تكن موجودة، فهو مغتاظ حانق منتفخ الأوداج محمر العينين يكاد يتميز من الغضب ويريد شيئاً يُخرج فيه غيظه ويُفرغ فيه غضبه، فلم يجد أمامه إلا إصدار هذا الأمر. فقوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ هو أمر ومنفذ لتفريغ الغيظ والغضب.

ولو أردت تمثيل فرعون وهو يصدر هذا الأمر لما كان إلا رجلا يجز على أسنانه من الغيظ ويضم قبضته فى عنف وكأنه يضمها على رقاب السحرة حتى تتغرس أظافره فى يده فتدميها، ويهتز كله من التوتر ويصدر أصواتا مدمدمة، فيكون أمره عندها صورة من نفسه. فهو يأمر بتصليبهم لا صلبهم، فكأنه من شدة غيظه يريد صلبهم عشرات ومئات المرات بما يكفى لتفريغ غضبه. ثم وهو يأمر بتصليبهم فى النخل كأنه وهو يصدر الأمر بـ ﴿فِي﴾ يرى الحبال فى يده هو، وهو الذى يشدها ويخرج كل غيظه فى أطرافها، فلا تهدأ ثورته الجامحة إلا

وقد غيبتهم الجبال التى يسكنها غيظه ويُفرغ فى أطرافها طاقة غضبه فى جذوع النخل فلا يبقى لهم أثر.

قال: ياه! كل هذه المعانى والدلالات والإيحاءات من حرف واحد!!

قلت: وأما «على» فإنها لو كانت فى هذا الموضع لما زادت على أن تجعلك ترى فرعون يصدر أمراً كأى أمر بصلب أو قتل مجموعة من الرجال ارتكبوا جناية، ولا يلزم أن يكون على معرفة بهم، فانفعاله ومشاعره ونفسه ليست ذات صفة فى الأمر الذى أصدره. فبـ«على» يكون الأمر عادياً بعقوبة عادية ربما كانت تطبق عليهم وعلى غيرهم.

ولو تمثلت الفرعون يصدر الأمر بـ«على» لكان على خلاف الصورة الأولى: حاكم ظالم يجلس على عرشه وتعرض عليه قضية ضمن أخريات، فلا تمس نفسه وإن كانت تمس حكمه، فيصدر فيها أمراً كغيره من الأوامر فى غيرها من القضايا. وربما تصورته يأكل أو يشرب وهو يلهو بين ندمائه ويقول فى لامبالاة: اصلبوهم على جذوع النخل. ثم ينسى الأمر كغيره من الطغاة.

قال وهو يعبث بأنامله فى شعره: حقاً إن الصورة تغيرت تماماً فما بين ﴿فِي﴾ و«على» نفس ونفس، وأمر وأمر، وقضية وقضية.

قلت: أرأيت كيف دقة ميزان القرآن المعجز، وحرف يضعه القرآن فى الموضع فيعطيك صورة نفسية كاملة تحتاج فى وضعها إلى عشرات السطور وفى تصورها إلى مشاهد ومواقف وشخصيات وتفاعلات؟

قال: بل قل إنها تحتاج قبل كل هذا إلى خبير نفسى.

قلت: أتعرف أن ﴿فِي﴾ هنا لها سر آخر.

قال: وهل بقى فيها أسرار؟

قلت: نعم فيها. فلو نطقت حرفيها لجاء الصوت الخارج كدمدمة الغيظ وزمجرة الغضب.

قال وهو يجز على أسنانه : فى ى ى .

قلت : أرأيت كيف تخرج ﴿ فِي ﴾ وأنت تجز على أسنانك فيعطيك صوتها صوت الغضب، وجزك على أسنانك وتوتر عضلات الفك وتقلصها بهذا الجز إحساس الغيظ وصورته . ومن تقارب الشفتين فى الفاء مع الصوت المضغوط القادم من أعماق الجوف فى الياء ماراً بين الأسنان المغلقة تسمع وترى الكمد الكامن فى أعماق فرعون والضيق الذى يتدفق من داخله، فلا يجد وسيلة يشفى بها غليله إلا أن يمزق الصوت بأسنانه ويخنقه بحنجرته .

قال : إن الإحساس الذى تقذفه فى نفسى ﴿ فِي ﴾ هذه وأنا أتأملها الآن وأراها بوجدانى ونفسى إلى جوار عقلى ليجعلنى أرى فرعون وكأنه قنبلة لو امتلكت أن تنفجر لانفجرت .

قلت : وأما « على »، فلو نطقتها لرأيت حروفها تخرج والحنجرة متسعة والشفتان مفتوحتين والأسنان متباعدة وعضلات الوجه منبسطة، فيعطيك مرور الهواء وانفتاح الفم على آخره وارتخاء العضلات شعوراً بالراحة لا بالضيق والكمد، فتكون « على » عندها نشازاً فى النظم وفى عدم تلاؤم صوتها مع صوت النفس بعد تنافرها مع المعنى .

قال : يا لها من معجزة! فكأن الحرف يعطى الدلالات النفسية والانفعالية بمعناه ثم يؤكدها بالصوت الذى يمثله وحركة الأسنان والفم التى تصاحبه .

إن عقلى يكاد يذهل من هذا التناسق الخارق بين معنى الحرف وصوته وطريقة نطقه . ثم بين هذا كله وبين مكانه فى الآية .

قلت : فهل يمكن لحرف أن يوجد وفيه كل هذا التناسق والتجانس والتوازن الدقيق كأنه فُصِّل على مكانه وفصل مكانه عليه إلا وهو معجزة من رب الحروف وخالق اللسان ومقلب النفوس؟

وما لبث أن قام ماشياً وسلم على وهو يردد هامساً : نص حكيم قاطع له سر!!

* * *

قلت: ماذا تفعل؟

قال: غارق في الحروف أبحث عن أسرارها.

قلت: فهماً أم ريبة؟

قال: وهل بعد عجائب ﴿فِي﴾ ريبة؟!

قلت: إذاً فقد تأكدت واطمأن قلبك إلى أن القرآن لا يضع حرفاً إلا في مكانه، بل في قراره المكين، فلا يمكن أن تنزعه ولا تضع آخر مكانه فيقوم مقامه.

قال: نعم. ولكن .....

قلت: ماذا ولكن؟!

قال: انظر. ثم أخرج ورقة مطوية من بطن الكتاب الضخم الموضوع أمامه وفردها.

قلت: ما هذا؟ وما هذه؟

قال: هذا المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. وهذه آيات استخرجتها.

قلت: ماذا تريد منها؟

قال: أرى القرآن تكون فيه الجملتان أو الآيتان متشابهتين بل متطابقتين في كل كلماتهما ثم يضع حرفاً في واحدة وآخر في أخرى.

قلت: وبعد؟!

قال: وبعدُ فقد أمسكت الآيات وقلبتها علّي أصل إلى السر في أن يكون حرف هنا وآخر هناك والآية تكاد تكون هي هي، فلا المعنى يختلف بهذا الحرف ولا البناء يهتز بذاك.

وكيف يختلف أو يهتز والقرآن نفسه استخدم هذا مرة وذاك مرة؟ فهما لا بد متماثلان. وبعد طول عناء لم أهتد إلى شئ إلا أن يكون ذلك للتنويع.

قلت: ثق أولاً أن القرآن لا يضع حرفاً فى مكان إلا وفى الحرف معنى لا يعطيه أبداً غيره. فهناك فرق بينهما لا محالة.

قال: وثانياً؟

قلت: وثانياً: الفرق فقط يحتاج لتدبر بميزان حساس كميزان الذهب ليريك بعد ما بين حرف وحرف.

وثالثاً: من لا يملك الميزان الحساس الذى يعرف به ما بين حرف وحرف فيدعى أنهما سواء هو كمن يزن الذهب بميزان الطماطم فيستوى عنده منه الجرام والاثنين والعشرة والمائة، ثم يحمل الخطأ على الميزان أو على الموزون بدلاً من عقله الذى اختار للموزون مالا يوزن به.

قال: هيا أكمل! ورابعاً.

قلت: ورابعاً: قل لى: ما هى الآيات التى وجدتها متشابهة والحروف فيها مختلفة؟

قال وهو يفرد الورقة أمامه: فى سورة البقرة: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦]

وفى سورة آل عمران: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٤]

فالآن ألا ترى كيف تتشابه الآيتان حتى لتتطابقا. بل تكاد تكون آية واحدة هى هى، فلماذا هنا ﴿**إِلَيْنَا**﴾ وهناك ﴿**عَلَيْنَا**﴾؟

قلت: فافتح المصحف واقرأ الآية التى بعد آية البقرة.

قال وهو يفتح المصحف: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]

قلت: فالأمر فى الآية ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ هو أمر بتبليغ الرسالة وحمل الأمانة؟

قال وهو يتأمل فى الآيات: نعم. لأن الآية بعدها تدل على وصول الرسالة وتبليغها ليؤمن من يؤمن ويتولى من يتولى.

قلت: وأيضاً لأن الآية قبلها ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] فهناك باطل يقال وبهتان يُدَّعى، فجاء أمر بنفى هذا الباطل والبهتان ثم توضيح الحق وتبليغه ليؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر.

قال: هذا صحيح.

قلت: إذا فهذا مقام تكليف وأمانة تُستودع ورسالة تُستأمن.

قال: بدأت الصورة تتضح أمامى لكنها غائمة.

قلت: فلأنه تكليف وأمر يتبعه جهد ومسؤولية تحمل قال لهم: لقد وصلت الرسالة إليكم أى: تامة كاملة وأصبح منتهاها إليكم.

قال: وما دامت وصلت إليكم فقد كُلِّفتم بها وجاء دوركم فى تبليغها كما وصلت الرسالة إلى من قبلكم وكلفوا بها.

قلت: تماماً. فالأمر فى ﴿إِلَيْنَا﴾ نظر للرسالة من جهة من كلفوا بحملها وأرسل إليهم.

قال: فماذا عن آية آل عمران؟

قلت: تماماً كما فعلنا مع آية البقرة. فانظر واقرأ الآية بعدها.

قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

قلت: إذاً فهناك أديان باطلة يميل عن الإسلام إليها قوم زائغون خاسرون.

قال: نعم، وتؤكده الآية قبلها في استنكار وتوبيخ ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ** ﴾ [آل عمران: ٨٣]

قلت: فما زلت لا تفهم لماذا لو جاءت «إلى» لكانت نشازاً في مكان هو قرار «على».

قال: بدأت أفهم قليلاً، فهناك أديان مدعاة تستوى جميعاً في مصدرها الكاذب وبطلان حقيقتها. والمح «على» في الأمر بها تعطى إشارة إلى علو الإسلام بمصدره وحقيقته.

قلت: فلذلك أمره عليه الصلاة والسلام أن يقول عنه وعن أمته: ﴿ **آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا** ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ليعلن لهم سفل أديانهم الباطلة وعلوية هذا الدين بمجيئه من أعلى من السماء ممن ﴿ **لَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فبهذا امتاز واستحق الاتباع، وبهذا يعلو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته فوق دعاة الأديان. فكأنه يقول لهم: كلها سواء حذوك النعل بالنعل إلا هذا الدين الذي جاء من أعلى.

قال: فلو جاءت «إلى» لما بان تميز هذا الدين بمصدره العلوي في موضع تتبارى فيه الأديان ويُخدع بباطلها من يخدع.

قلت: فهذا مقام إعلان لشرف هذا الدين على غيره من الأديان وتشريف لمن أُنزل عليه باتصال السماء به ورعايتها لأمته.

أرأيت إلى النسيج القرآني المتآلف المتجانس المتشابك في كل خيوطه، فلو نزعت خيطاً واحداً لتهلهل النسيج واختل ميزانه الدقيق.

قال: لا أعرف كيف أصف هذا التقدير الخارق. إن كل حرف في الآية والآيات التي هو فيها مع بعض التأمل يبدو وكأنه لا يمكن أن يكون إلا كما هو. وكأن الحرف قدر الآية المحكم والآية قضاؤه المبرم.

قلت: فذلك تفصيل الحكيم الخبير. فإنك لو أتيت «بإلى» مكان «على» أو العكس لجعلت الحرف نشازاً فى موضعه تعرفه أذن العربى الخالص وعقل المتأمل الفاحص كما تعرف الأذن اليقظة نشاز النغمة فى مقطوعتها.

ولو جعلتها كلها «إلى» فقط أو «على» فقط لما كان للآيات معنى إلا تكرارها الذى لا فائدة فيه، ولما كان القرآن مشعاً ببريق أخاذ فى كل آية غير الأخرى.

قال: أتعرف وأنا أتأمل معك هذه الحروف فى كل آياتها ليأخذنى العجب كل مذهب كيف واتت هؤلاء العرب الجرأة أن ينسبوا القرآن لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ويلقى القرآن شفاهة فلا يمتلك الوقت ولا القدرة على الكتابة ثم تحبير ما كتب واختيار الحروف له والموازنة بينه.

قلت: ولو كان يمتلك هذه القدرة أترى بشراً يستطيع أن يمتلك هذه الموازنة والقدرة على الاختيار الدقيق فى كل جملة يكتبها على تباعد الزمن ما بين الجمل والنجوم، واختلاف معانيها، واتساقها وانسجامها من أولها إلى آخرها؟.

والآن أظنك اكتفيت وتريد النوم .....

وما إن نطقت حتى أسرع لالتقاط ورقته وفردها أمامه مرة أخرى وقال: الوقت لم يتأخر بعد وما زال عندى ما أريد أن أفهمه. ثم ابتسم قائلاً: أم تريد الهروب؟

ثم نظر إلى الورقة يتأملها وقال: إن هذه الآيات لغريبة؟!

قلت: أى آيات هذه الغريبة؟

قال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ

هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]

سكت فقلت: مالك سكت؟!

قال: إن هذه الآيات بها عبارة واحدة تكاد تكون هي هي ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾.

قلت: وماذا في ذلك؟

قال: ليس فيه شئ، ولكن الذي فيه شئ وأشياء لا أفهمها أن تأتي أربع آيات بالترتيب نفسه والأمر نفسه والحروف نفسها، ثم تأتي آية واحدة وحيدة فتباين أخواتها وتقف وحدها منفردة ولا أفهم سبباً لانفرادها.

قلت: فما هي هذه الآية؟

قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]

فإني لا أفهم لماذا كانت الآيات الأربع ﴿سِيرُوا .... فانظُرُوا﴾ وهذه وحدها ﴿سِيرُوا .... ثُمَّ انظُرُوا﴾، ثم لماذا كانت هذه واحدة وتلك أربع؟.

قلت: واحدة واحدة. فلنتامل أولا الفرق بين ﴿فَـ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾.

قال: فهذه يسيرة لا تحتاج إلى كثير تأمل. الفاء تعطي معنى الترتيب الفوري بلا مهلة ولا فاصل زمني أما ثم فإنها تعطي معنى الترتيب مع المهلة وفاصل الزمن بين الأمرين.

فإذا قلت جاء محمد فعلى فمعناها أن علياً جاء بعد محمد مباشرة. أما إذا قلت جاء محمد ثم على فمعناها أن علياً جاء بعد محمد بزمن.

قلت: فلسنا أيها الأستاذ فى العربية البارع بحاجة لأكثر من هذا.

قال: فإنى لا أفهم بعدُ شيئاً أفرق به بين معنى الأمر بحرف هنا ومعنى الأمر بآخر هناك.

قلت: حسب ما تعرف عن الفاء، ما الذى تفهمه من ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾؟

قال: لا أفهم شيئاً غير أنه أمر بالنظر بعد السير مباشرة أو معه.

قلت: فهو أمر بالسير والنظر معاً في وقت واحد مع تقدم السير لأنه لا نظر إلا به. فماذا عن ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ﴾؟

قال وهو يعبث بشعره: هو أمر بالسير والتمهل والأناة فى النظر.

ومع ذلك فما زلت لا أفهم ما الفرق بين الأمر بالنظر مع السير والأمر بالنظر بعد التمهل والأناة. ففى كل الأحوال هو نظر واعتبار.

قلت: ولكن ليس كل نظر واعتبار ككل نظر واعتبار.

قال: لا تحيرنى.

قلت: انظر يا عزيزى. إن الأمر ﴿سِيرُوا .... فَانظُرُوا﴾ هو كما قلت أنت أمر بالنظر مع السير، فهو نظر فى أثناء السير والحركة لا تمهل فيه ولا مهلة للاستقراء، وإنما هو نظر لرؤية آثار الأمم المعاندة المكذبة والاعتبار الآنى بها وقت رؤيتها والوقوف أمامها.

فكأنه عز وجل يقول: سيروا فى الأرض، فعند سيركم سترون آثار الأمم السابقة، فانظروا إليها لتروا فيها بقاءها وذهاب من بنوها، وتعتبروا بشهادتها بنفسها على من كذبوا من أهلها، ولتتعظوا بمصارعهم وهلكتهم بعد علوهم وتجبرهم.

قال : فكأنه أمر بالسياحة فى الأرض والوقوف أمام الآثار والبقايا للاعتبار والعظة.

قلت : تماماً.

قال : فماذا عن ﴿ثُمَّ﴾؟

قلت : الأمر هنا وكما قلت أنت أيضاً هو أمر بالسير، لكنه هذه المرة أمر بالسير الطويل المتأمل وجمع الشواهد والقرائن والتنقيب عن مصارع السابقين والبحث عن آثارهم، ثم تأملها واستقرائها معا بصبر ودقة لمعرفة سنة الله فى خلقه وما يحكم حركتهم ومصارعهم من قانون لله لا يختلف، والوصول إلى سر ارتقائهم وإلى أسباب انكسارهم وفنائهم.

قال وهو يسترخى فى مقعده : فكأنه أمر بالسير للعلم والتنقيب، ثم الاستقراء والمقارنة والتأمل والفحص والخروج بمنهج جامع.

قلت : وهذا الاستقراء والمقارنة والمنهج الجامع لا يمكن أن يكون عند السير نفسه، بل بعد السير طويلاً وفى أماكن متباعدة ورؤية آثار أقوام متعددة. فهناك زمن طويل بين السير والنظر للخروج بنتيجة من هذا السير.

قال : فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ التى تدل على المهلة والأناة لتكون هى الإشارة إلى هذا الزمان الطويل.

قلت : نعم، لتدل على هذه المهلة والأناة بمعناها، وبزيادة حروفها عن الفاء، وبزيادة زمن تلاوتها، بل ولتشير إلى الدقة والضبط المطلوب فى هذا السير بحاجة القارئ إلى التمهل والدقة لإخراج الثاء من مكانها الصحيح، وتشير إلى زمن التأمل والمهلة الذى يحتاجه بغنة الميم المشددة التى تُلزم القارئ التمهل والأناة عندها.

أرأيت إلى بديع إحكام القرآن؟ فلو جاءت الفاء الخاطفة السريعة فى هذا الأمر لكانت الآيات كلها واحدة، ولكان الأمر فيها جميعاً لعوام الناس، ولما كان

للعلماء المنقبين الفاحصين الذين إن ساروا فنظروا لم يفرق نظرهم عن نظر العامة كثيرا - لما كان لهم نصيب من الأمر القرآنى . ولو جاءت كلها بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ لكان الأمر للعلماء الأثبات والمدققين والثقاة، ولما كان لعامة الناس نصيب من أمر القرآن لمشقته وثقله إلا على أهله وخاصته . ولو كان الأمر بهذه أو تلك فى كل الآيات لما كان القرآن هو القرآن .

قال : ياه! إن هذا التناسق لبديع وهذا الإحكام ....

ثم قطع كلامه فجأة وقال : الآن فهمت .

قلت : فهمت ماذا؟

قال : فهمت لماذا جاء الأمر بالفاء فى أربع آيات وبـ ﴿ ثُمَّ ﴾ فى آية واحدة .

فالأمر ﴿ سِيرُوا .... فانظُرُوا ﴾ للعامة وآحاد الناس وهم كثير . أما العلماء وأصحاب الاستقراء والعكوف والتأمل الطويل والمنهج المدقق فقليل . لذا أمرهم بالسير ثم النظر مرة واحدة .

قلت : بل هناك سر آخر فى تكرار الأمر بالفاء وكونه مرة واحدة بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ ، فالعامة شأنها الغفلة وآحاد الناس يرون وينسون، فهم يحتاجون للتذكير بالسير وتكرار النظر مع السير حتى لا تفوتهم العبرة بالغفلة .

أما الخاصة فالسير دأبهم وديدنهم، وسيرهم طويل متأمل، فيغنيهم عن تكرار الأمر بالسير طوله وصبرهم، وعن تكرار الأمر بالنظر دقته وعكوفهم الكامن فى ﴿ ثُمَّ ﴾ .

قال وكأنه يحدث نفسه :

الفاء	﴿ ثمّ ﴾
نظر عابر	ونظر متأمل
أربع مرات	ومرة واحدة
عامـــة	وخاصـــة

ثم انتبه من شروده ووضع كفيه على جبهته واستلقى إلى الخلف مغمضاً عينيه وهو يهمس: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]

* * *

قال فى اندفاع وحدة: كيف طاوعتهم أنفسهم؟ كيف؟

قلت: اجلس واهدأ قليلا وقل لى: ماذا حدث ومن هم هؤلاء؟

قال: العلماء.

قلت: العلماء؟!

قال: كيف طاوعتهم عقولهم ونفوسهم أن يقولوا أن هذا الإحكام الرائع فيه حروف زائدة؟ زائدة؟! هذا النسيج المتآلف يمكن أن يكون فيه حروف زائدة؟!

قلت: هدأ من روعك ولا تظلم العلماء.

قال: أظلمهم؟! ماذا لو وقع أحد على هذا الكلام فبث الشك فى نفسه وتوهم أن فى القرآن حروفاً للحشو ولا فائدة فيها؟

قلت: ومع ذلك فالعلماء لم يخطئوا.

قال: لم يخطئوا؟! هل تريد أن تقول لى أنت أيضاً إن فى القرآن حروفاً زائدة وبلا فائدة؟

قلت: لا. فأنا لم أقصد ذلك، وهم أيضا لم يقصدوه، وهم الذين أفنوا أعمارهم وأذهبوا أبصارهم فى خدمة المعجزة الخالدة.

لكن هم لم يخطئوا لأنهم فى سبيل بيان هذه المعجزة وتقريبها للناس وفهم أسرارها وضعوا العلوم واستنبطوا القواعد لتكون ضابطاً للفهم ومعيناً على الرؤية.

قال: فإذا كانوا قد وضعوا القواعد، أفلم يجدوا لهذه الحروف قاعدة إلا أن يجعلوها زائدة؟

قلت: الأمر ليس يسيراً كما يبدو لأول وهلة. فالقرآن معجزة. والمعجزة لو كانت تسير على قواعد مطردة لا تتخلف ويحتويها قانون يضعه البشر لما كانت معجزة.

قال: فكيف إذاً يكون القرآن معجزة العقل؟

قلت: هو معجزة العقل لأن العقل يستطيع أن يتدبره فيصل إلى سره ومكمن إعجازه، لكنه لا يقدر أبداً أن يضع له نسقاً ثابتاً وقواعد جامدة صماء، وإلا لسار عليها كل أحد وأمكنه محاكاتها. فالقواعد تُضبط على القرآن ولا يقيد بها القرآن.

بل القرآن يضع لك الحرف في موضع ليعطيك من المعنى ما يتهدم بإزالته، ويحذفه من موضع آخر لاحتوائه من المعنى ما يغنى عن هذا الحرف. وقد تستقرئ آياته فتراها على قاعدة واحدة فى حرف ثم يغيرها فى آية أو اثنتين. ولو بحثت وتأملت لاهتديت إلى السر فى ذلك ولعرفت أن المعنى لا يكون محكماً بلا خلل ولا طول إلا هكذا.

قال: فما السر فى هذه الحروف التى يقولون إنها زائدة؟

قلت: هى ليست زائدة. وإنما العلماء جعلوها زائدة حسب قواعد النحو التى وضعوها لتيسير التعليم والتعلم.

قال: إذاً هى ليست زائدة فى معناها؟

قلت: بلى. فكل حرف منها ركن ركين فى آيته لو نزعته لتصدع بنيانها واهتز باقى أركانها.

قال: فلماذا يقولون إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] معناه ليس مثله شئ والكاف زائدة؟ فإذا كانت هذه كتلك والكاف زائدة كما يقولون فما فائدة وجودها؟

قلت: فائدتها أنها حمى مقام الألوهية والحاجز بينه وبين الخلق.

قال: حماه؟! كيف؟

قلت: لو قلت: «ليس مثله شئ» لنفيت أن يكون لله فى كمال صفاته وطلاقه قدرته وتمام علمه وإحاطته مثل، ولكن ربما توهم متوهم أن يكون هناك من يقترب منه عز وجل فى هذه الصفات وإن لم يماثلها تمام المماثلة. فجاءت الكاف لتنفى المثل عن الله عز وجل فى صفاته وتحجز العقل أن يتوهم وجود مقارب له فى هذه الصفات وإن لم تكن هى بعينها.

قال: فهذه الكاف والتى يقال إنها زائدة هى لبيان الفرق الهائل والبون الشاسع بين مقام الألوهية ومقام الخلق فلا تقترب صفاتهم من صفاته بله تماثلها. أى تنزيه صفاته عز وجل.

قلت: هذه واحدة.

قال: والثانية.

قلت: لو قلت ليس مثله شئ لوضعت مقام الألوهية على قدم المساواة مع مقام الخلق، لأن المقارنة لا تكون إلا بين متشابهين والتفاضل لا يكون إلا بين متقاربين يُتوهم اختلاط الأمر بينهما، ولو كان لتعظيم أحدهما على الآخر. فلو قرنت مقام الألوهية بمقام الخلق دون هذه الكاف الحاجزة لنزلت بمقام الألوهية من حيث أردت تعظيمه، ولماثلته عز وجل بخلقه من حيث أردت نفى هذه المماثلة.

قال: آه! كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

قلت: وكذلك ينقص مقام الألوهية لو ذكرته إلى جوار مقام الخلق ولو من باب تعظيم الخالق على الخلق. فبهذه الكاف تكون المماثلة والمقارنة بعيداً عن مقام الألوهية بل خارج سورها وحرمها.

قال: فالكاف هى هذا الحرم الذى جاء ليحصن مقام الألوهية ويجعل الخلق دونه وتحت أسواره.

قلت : فهذه الثانية .

وأما الثالثة .

قال : أما زال هناك ثالثة ؟!

قلت : ألم أقل لك إن الحرف فى موضعه كالجوهرة يبرق من كل وجه ؟

ثالثا : الإله الحق هو الأزلى الأبدى الذى خلق وأوجد، وهو واجب الوجود فى ذاته وكل خلقه مفتقر إليه . وواجب الوجود لا يتوقف وجوده على شئ ولا علة، ولو وجد منه اثنان لفقد الوجوب والذاتية وصار ممكناً لأن الخلق لا يتوقف عليه وحده، ولو صار ممكن الوجود لماثل خلقه وانتفت عنه الألوهية .

قال : وما علاقة ذلك كله بالكاف ؟

قلت : الكاف جاءت لتقول : إن مقام الألوهية الحقة لا يكون له مثل . فلو كان له مثل لصار ممكناً، ولو صار ممكناً لما كان إلهاً حقاً . ولكن لأنه إله حق فهو واجب الوجود، ولأنه واجب الوجود فلا مثل له . ولأنه يستحيل أن يكون له مثل فلا بد من الكاف لتعرف بها أن الألوهية والمثلية نقيضان لا يجتمعان .

قال : إن الحرف فى موضعه فى القرآن يبدو لأول وهلة فريد المعنى وما إن يتأمله المرء حتى يعطي من المعانى كألوان الطيف .

قلت : والإعجاز أن المعانى التى تخرج لك كلما تأملت الحرف من وجه تتعاضد وتترافد ثم تتحد كاندماج ألوان الطيف لتعطيك من الحرف فى موضعه ضوء مبيناً ونوراً متلألأً .

قال : كأن الحرف ينبوع من الضوء يتفجر بألوان من المعانى .

قلت : وألوانها تتداخل لتعطيك نوراً فى البصيرة وبهجة فى النفس وراحة فى العقل .

قال : انتظر قبل أن أنسى ! هناك حرف آخر قرأت أنه زائد .

قلت : ما هو ؟

قال: الباء في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فما زلت أذكر أننا فى المدارس كنا نتعلمها ونكتبها فى فصول الدرس وفى الامتحانات أنها زائدة.

قلت: فما رأيك فيها الآن؟

قال: إننى لا أثق إلا بالقرآن. ولا أرى الآن من يقول عنها إنها زائدة إلا أنه هو الناقص.

قلت ضاحكاً: ما زلت كما أنت حاداً حاسماً في يقينك كما أنت فى شكك.

قال: ومع ثقتى هذه فإننى لا أبغى بالفهم بديلاً. فهو يمنحنى متعة وجمالاً، ويزيد القرآن فى عقلى ونفسى عظمة وجلالاً.

قلت: فإذاً انزع هذه الباء واجعل الكلام بدونها لتعرف سرها.

قال: أليس الله أعلم بالشاكرين؟ أليس الله كافياً عبده؟

قلت: فلو تأملت ما قلت الآن لوجدت أنه دون هذه الباء لكان أول ما يرد على عقل السامع أو القارئ أن هذا سؤال يُسأل ويُطلب له إجابة. فهو سؤال واستفهام كأى سؤال واستفهام.

ولو سألت هذا السؤال دون الباء لعربى لما كان منه إلا أن يرد عليك بالنفى أو الإثبات ليجيبك عما سألت عنه. وأبلغ منه من إذا سمعك تلقى عليه هذا السؤال نكرك واستنكر سؤالك؛ لأنك تسأل وتستفهم عما لا يُسأل عنه. فكيف يحتمل أن لا يكون أعلم بالشاكرين وكافيا عبده - حتى تسأل وتستفهم - وهو الله عز وجل؟!

قال: فهمت، فالباء جاءت لكى تصرف العقل عن أن يفهم أن هذا استفهام وتساؤل إلى معنى آخر مخبوء فى الآية.

قلت: تماماً. فإذا قرأت الآية التى جاءت فيها هذه الباء لعرفت هذا المعنى الجديد الذى جاءت لتشير إليه.

قال وهو ينظر إلى الورقة الأولى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والثانية: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣٦]

قلت: ففي الآية الأولى شك في علم الله وتشكيك في حكمته وعطائه ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾.

قال: وأحس فيها سخرية واستهزاء.

قلت: وفي الآية الثانية شك وتشكيك في قدرة الله ونصرة نبيه: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾.

قال: لذلك كان رد وتعقيب القرآن الحاسم الجازم الذى يزيل الشك ويقطع التشكيك ويمنح اليقين فى ثقة وتحد.

قلت: فهذه هى مهمة الباء التى تعطى هذا الحسم والجزم والثقة والشدة فى الرد، وبها يكون الرد على قدر الشك وجلال من يشككون فى قدرته، وبدونها يكون الرد ليناً مائعاً يحتمل الإثبات ويحتمل الاستفهام. وعندها يكون الميزان مختلاً بين التهمة ووقاحتها وبين الرد ولينه.

قال: فالحسم على قدر الشك والرد على قدر التهمة.

قلت: فهذه الباء هى التى يتزن بها الميزان. ولو تأملت هذه الباء المكسورة فى نطقها لرأيتها تخرج والشفتان مضمومتين مزمومتين وعضلات الخد تتوحد لتدفعها من خلال الشفاه، فتعطيك إحساس الحسم والجزم بصوتها وهيئة نطقها بعد أن أعطتك إياه بدلالتها ومعناها.

ابتسم سعيداً ثم قال: الآن اطمأن قلبى.

* * *

قلت : ما المخبوء - يا ترى - في عينيك؟

قال : عتاب .

قلت : فالعتاب رسول النفوس المتآلفة . فاجلس وقل لى : ماذا حدث؟ وعلام العتاب؟

قال : لقد رأيت من عجائب حروف القرآن ما جعلنى أتشوق لمعرفة أسرار كلماته، وأقول لنفسى : إذا كانت الحروف هى لبنة القرآن الأولى وفيها من الأسرار ما فيها، فلا بد أن تكون الكلمات ينبوعاً من الأسرار والإعجاز المتدفق.

قلت : وإنها لكذلك .

قال : وقبل أن أشرع فى القراءة والتأمل فى الكلمات أخذت أراجع ما كتبته .

قلت : وماذا وجدت يجعلك عاتباً على؟

قال : إنك لتعطينى نوراً ثم تطفئه، وتقول الكلام ولا تتمه وكأنك تضن به .

ولقد تأملت ما كتبت فرأيتك لا تخوض فى حديث حتى أكون أنا البادئ به، ولا تسير فى طريق إلا بعد أن أشير لك إليه .

قلت : كل هذا؟! لو تأملت بعناية لرأيتك أنت الذى لا تترك لى فرصة للاختيار، وكلما جئتنى أو أتيتك انهلت على بأوراقك وتأملاتك . وإن ما تختاره وتتأمل فيه ليمتعنى ويروق لى . وإنك لتظلمنى .

قال : انتظر أيها المحامى البارع قبل أن تتفلت منى وأصبح أنا المطلوب لا الطالب . ألم تقل لى من قبل إن إعجاز القرآن فى الحرف ليكون بحذفه فيزيد حذفه المعنى إحكاماً والنظم جمالاً وأثره اكتمالاً؟

قلت : بلى قلت هذا .

قال : فلا أعرف كيف مرت على هذه العبارة ولم أنتبه إليها من قبل .

قلت: فها قد انتبهت وذكرتني. ويمكننا أن نستدرك ما فات ونعود إليه.

قال: " فكيف يكون الإعجاز في حذف الحرف؟ وما حذف حرف إلا أنه غير موجود، فكيف يكون إعجازه في عدم وجوده؟

قلت: تماماً كما يكون إحكام البناء بفضائه كما هو بلبناته، وبتنسيق مساحاته كما هو بتشييد أركانه. فالعبارة تنظر إليها في غير القرآن فتراها محكمة المعنى جميلة المبنى تامة كاملة لا ينقصها شئ، ثم ترى القرآن حذف الحرف فإذا بالمعنى يزداد إحكاماً والمبنى جمالاً مع لطيف الإشارة وبديع الدلالة.

قال: شوقتني. فدعك من هذا الكلام ودلني على هذا الحرف الذي يكون الإعجاز في حذفه.

قلت: ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٣].

قال: فأين هو الحرف؟

قلت: كاف قلاك. فقل لي: لو كانت عبارة كهذه في كلام البشر وتسير على نسق حديثهم وتتوخى إحكام معانيهم كيف كانت تكون؟ ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أم «وما قلاك»؟

قال متفكراً: المعتاد أن نقول: ما ودعك وما قلاك حتى تتناسق الضمائر وتعود على شخص واحد.

قلت: فهذا إعجاز القرآن في الحرف بحذفه.

قال: أنا معك أن حذف الكاف يزيد عبارة القرآن جمالاً وروحاً عن عبارة البشر. لكن أحسب هذا إنما يكون لتشابه الفاصلة مع الحذف: ﴿ وَالضُّحَىٰ ..... سَجَىٰ ...... قَلَىٰ ﴾، وما تعطيه من إيقاع موسيقي يختل بوجود هذه الكاف.

قلت: هذا صحيح. ولكن الإعجاز ليس فقط فى أن حذف الحرف يزيد الإيقاع تناسقاً وجمالاً، وإنما لأنه أيضاً يزيد المعنى روعة وكمالاً.

فيكون حذف الحرف جمالاً فى الإيقاع، وعلواً فى المعنى، وتجانساً فى الفاصلة، وتناسقاً فى النغم، ويكون إعجازه هو كل ذلك. وهو عدم وجوده فى مكان لا يرد على ذهن البشر فيه إلا وجوده.

قال: فما هو المعنى الذى يزيد كمالاً وعلواً بحذف الكاف؟

قلت: أتعرف ما هو القلى؟

قال: البغض والكره.

قلت: فلذلك حذف القرآن الكاف التى هى خطاب النبى عليه الصلاة والسلام. فلا يكون هناك بغض من الله لنبيه المصطفى المختار ولو على سبيل النفى، ولا تكون إشارة ثم إلى كره من الله لخير خلقه ولو لاستبعاده.

قال: ﷺ. فكأن الله عز وجل يحنو عليه ويرفق به فلا يشير له بكره ولا بغض ولو من بعيد. إنى لأحس مزيجاً من الراحة والسمو والتحليق فى الملكوت يغمرنى بهذا الحنان وهذا الرفق المتناهى.

قلت: وفى هذه الكاف جمال آخر.

فإن هذه الآيات ما جاءت إلا لتبث الطمأنينة فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام وتنزل السكينة عليه؛ أن ربه لم يتركه ولم يبغضه كما قال له المشركون حين تأخر عنه الوحى.

قال: أعلم هذا.

قلت: فلو قال ما ودعك وما قلاك لنفى أن يكون عز وجل أبغضه وكرهه، ولكن لم يثبت له الحب والود والعناية.

قال: فلو جاءت هذه الكاف لذهب الكره والبغض وما جاء الحب والود ولا العناية.

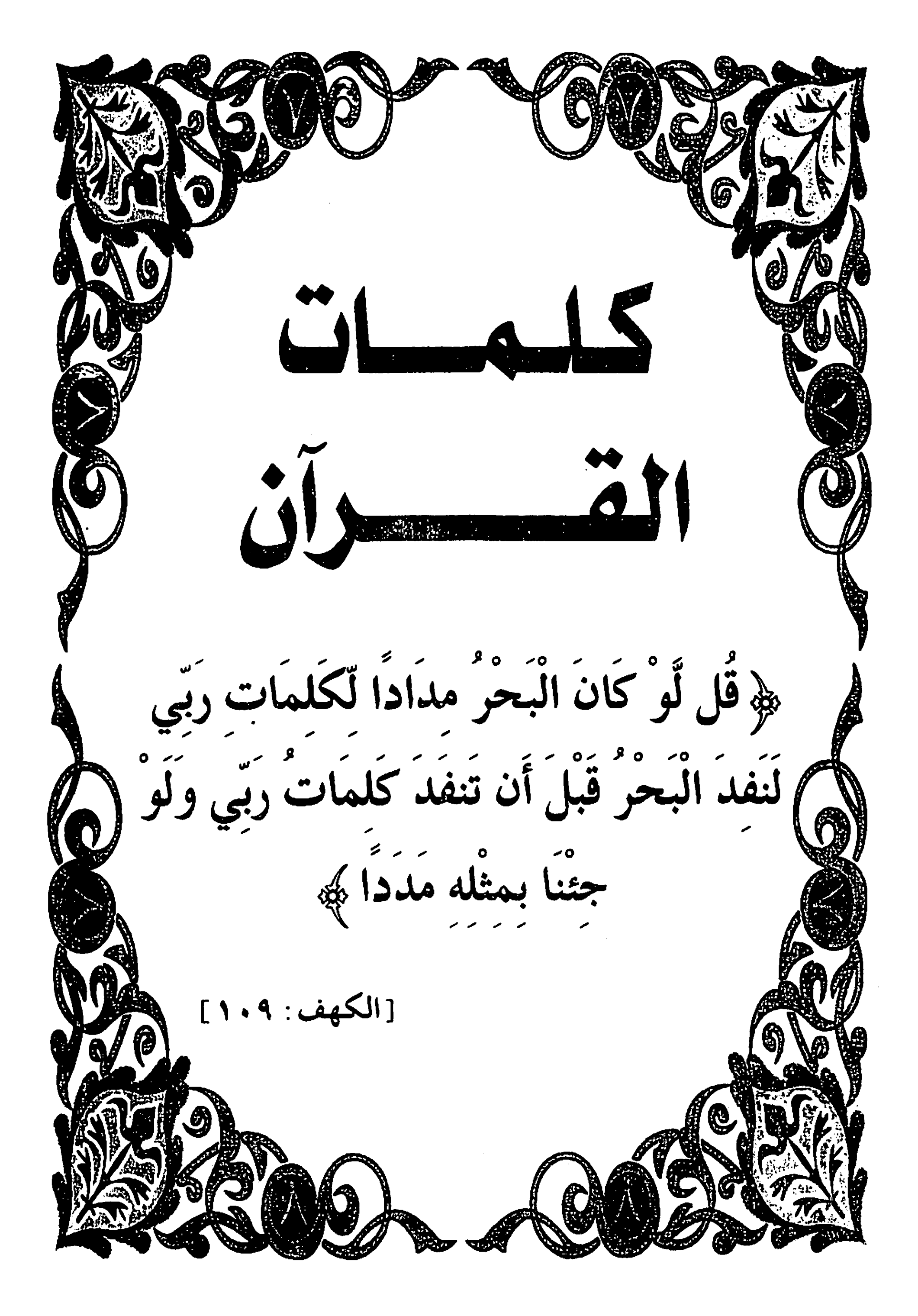
قلت: فتكون الكاف في موضعها حينئذ متنافرة مع الحنان والرفق فى ودعك قبلها، ومع العطاء حتى الرضا بعدها، ويكون وجودها جالباً للفزع إلى نفسه عليه الصلاة والسلام بدل الطمانينة، والخوف محل السكينة؛ أن تكون هذه هى منتهى درجته عند ربه: عدم البغض لا الحب، وعدم الترك لا الرعاية والعناية. فلو لم يحذف القرآن هذه الكاف من آياته لكانت فزعاً فى ثوب طمأنينة وخوفاً فى لباس سكينة.

قال: إن هذه الدقة البالغة لتذهلنى وأحس عقلى يكاد يذهب وأنا أتأملها وأتأمل كيف يكون الحرف فى مكانه وكيف لا يكون، وبأى ميزان معجز فى مكان وُضع وفى آخر رُفع.

قلت: إنه الميزان الإلهى.

قال: إن ميزان الذهب والدر إلى جواره لثقيل ثقيل ثقيل!!

* * *



كلمـــات القـــرآن

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

[الكهف: ١٠٩]

قلت: لعلك قد رضيت وزال وجدك على؟

ابتسم قائلاً: وكيف أجد عليك وإنما أنت أنا؟! على أن لا تقتر فى حديثك - كعهدى بك - فلا يخرج من مكمنه إلا بعد لأى واستثارة.

قلت: وإنى لا أرضى من نفسى إلا أن تكون راضياً. وها أنا ذا لن أنتظرك حتى تشير إلى أو تقترح على، إن إعجاز القرآن بعد حروفه لفى ألفاظه وكلماته.

قاطعنى قائلا: ألفاظه وكلماته! انتظر قليلاً.

قلت: أنتظر؟ ماذا أنتظر؟!

قال: كدت أنسى! تلك الكلمات الغريبة!

قلت: أى كلمات غريبة تعنى؟!

قال: هذه الكلمات التى حيرتنى وذهبت فيها وجئت، وما اهتديت فيها إلى شئ يرضينى.

قلت مبتسماً: تالله ما رأيت أعجب منك! ما انتهيت من عتابك لى حتى عدت لسابق عهدك تبادرنى ولا تمهلنى! فكن شاهداً على نفسك.

قال ضاحكاً: تجاوز لى عن هذه! آخر مرة!

انظر إلى هذه الآية فى سورة النساء: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٢]، وإلى سورة المائدة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩]

بل دعك من هذه الآيات وتأمل هذه الآية العجيبة فى سورة طه: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] [١].

قلت: فما هو الغريب الذى يحيرك فى هذه الآيات حتى تذهب فيه وتجئ؟

قال متعجباً: الا تعرف حقاً أم تتظاهر انك لا تعرف؟ ظننت لها تفسيراً عندك ثم ابتسم قائلاً: يبدو أنك قد وقعت هذه المرة!

قلت مبتسماً: لا. ولا هذه المرة أيضاً.

قال: فإذا أخبرني: فى آية النساء: ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿الْمُؤْتُونَ﴾ و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ كلها مرفوعة فى سياق واحد لا شذوذ فيه. وبينها تصطدم العين ويقف العقل فى ﴿الْمُقِيمِينَ﴾ المنصوبة هذه لا أدرى أم المجرورة.

لقد وقفت عندها عيناى وأبى عقلى أن يتزحزح. الأسماء قبلها مرفوعة وبعدها مرفوعة، وهى وحدها تخالف ما قبلها وما بعدها. لقد جعلت أُقلِّب الآية واتأمل الكلمة وأتركها ثم أعود إليها وما وجدت شيئاً يفسرها لى.

قلت: وإذاً؟

قال: وإذاً قلت: أيعقل أن تكون خطأ فى النحو ولحناً فى الإعراب؟

قلت: فإذا قد عاودك الشك. وأنا الذى كنت أحسبك قد برئت من دائك.

قال: لا. لا تعجل علىَّ وتلوى عنق الأمر هكذا. فليس هذا بداء. ولو لم أقف أنا أو غيرى لنسأل فما فائدة العقول إذاً؟

قلت: غلبتنى! أتعرف يا فصيح اللسان ما فائدة هذا التغيير فى هذه

---

(١) رواية حفص عن عاصم الكوفي فى المصاحف بتخفيف النون ﴿إِنْ﴾، وهي ايضاً قراءة ابن كثير المكى مع إشباع مد الف ﴿هَذَانِ﴾ وتشديد نونها. والقراءة بالتشديد ﴿إِنَّ﴾ هى رواية أبى بكر شعبة عن عاصم، وهى قراءة عامة القراء.

الكلمة ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ ومخالفتها في الإعراب لكل الصفات قبلها وبعدها؟

قال: لو كنت أعرف فلم سألتك؟

قلت: فائدة هذه المخالفة العظيمة هي أن تأسر البصر وتستوقف العقل فيها، تماماً كما فعلت بك.

قال: فليكن! قد أسرت البصر بغرابتها واستوقفت العقل بمخالفتها، فماذا بعد؟

قلت: فإذا أسرت بصرك واستوقفت عقلك توقفت عندها لتسأل عن علة هذا التغيير وحكمة هذه المخالفة ولماذا انفردت هذه الصفة بإعراب خاص وحدها، تماماً كما فعلت.

قال: فما هي هذه الحكمة؟ ولماذا هذا الانفراد؟

قلت: لأن هذه الصفة هي ﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾، فأفردها القرآن وخصها بصيغة إعراب وحدها ليعرفك رفعة منزلتها وجليل قدرها، وأنها واسطة العقد في هذه الصفات والمعين الذى تأخذ منه والمدد الذى تستمد منه. ألا ترى أن الصلاة هي الصفة الوحيدة التي ذكرها الله عز وجل في سورة «المؤمنون» مرتين؛ فبدأ بها صفات المؤمنين وختمها بها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ .... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون ١-٩].

فهذه صفة لها شأن وقدر يجعل القرآن في أي موضع يذكرها يفردها دون باقي الصفات ويضعها في موضع خاص ينبه القارئ إليها ليقف عندها ويتمهل.

قال: فلذلك بدأ بها صفات المؤمنين وختم بها.

قلت: ولذلك وضعها في عرش من الإعراب ليس لصفة غيرها لتبرز فيه وتراها وتستوقفك عنده فلا تمر عليها عينك في غفلة عنها.

قال: إذاً فهذا الإعراب المتفرد للكلمة الذى يبدو شاذاً وسط أخواتها مقصود مراد؟

قلت: نعم! مقصود ومراد لأنها صفة خاصة فلا بد أن توضع فى صورة خاصة لتقف عندها وقفة خاصة. أرأيت كيف....

قال مقاطعاً: الأمر لم ينته بعد، فكل ما قلته لا يساوى شيئاً إذا كانت الكلمة بعرشها هذا لا وجه لها فى الإعراب والنحو.

قلت: بل إن لها وجهاً، ووجهها فى صورتها المخالفة لأخواتها هذه لأجمل وأحكم؛ لأنه وجه يتمم المعنى والحكمة من هذه المخالفة وينسجم معها، فيصبح المعنى المراد مخبوءً فى الإعراب، والإعراب هو عينه المعنى المراد، وهما معاً سر المخالفة وبيان إعجاز القرآن فى تصريفه للكلمة فى مكانها يجعلها درة متلألأة.

قال: شوقتنى!

قلت: ﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ هنا منصوبة على الاختصاص، فيكون المعنى: وأخص المقيمين الصلاة، أو على المدح فيكون المعنى: وأمدح المقيمين الصلاة.

قال جذلاً: يا لله! وفى الحالين الإعراب يعنى أن هذه صفة خاصة متفردة خصت بالنص فى أخص، وخصت بالمعنى فى أمدح.

قلت: وخصت بموقعها المتفرد وعرشها الإعرابى الفريد بين أخواتها الذى هو الياء والنون، والذى لا يمكن أن تمر عليه دون أن تتوقف عنده.

ها! أرضى عقلك الآن؟

قال: لا. ليس بعد. ماذا عن آية المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿ الصَّابِئُونَ ﴾ هذه لماذا جاءت مرفوعة والآية تبدأ بإنَّ مخالفة إعراب ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ و﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ و﴿ النَّصَارَىٰ ﴾؟

قلت: أولاً: أأنت أعلم بالعربية وصحة الإعراب وموافقة الكلام لصحيح اللسان العربى أم العرب الخُلَّص الذين نزل فيهم القرآن؟

قال وهو ينظر إلى بشك: بل العرب الخلص الذين نزل فيهم القرآن.

قلت: فإن أحداً منهم لم تواته الجرأة أن يفتح فمه ليصف كلمة قرآنية بالخطأ ومخالفة اللغة، وهى لغتهم وهم أربابها وأعلم بما يوافقها ويخالفها. ولو رأوا فى كلام القرآن لحناً لما سكتوا عليه، بل لأشاعوه وأذاعوه وجعلوه عَلماً وراية يحاربون بها هذا الذى نزل بهم فشتت شملهم وفرق جمعهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم وآباءهم. فهل سمعت عن أحد منهم قام ليقول: هلموا واسمعوا وتعجبوا من هذا الذى يعاجزنا بقرآنه وفيه من اللحن والخطأ ما فيه؟

قال: لا. ومع ذلك.....

قلت: ومع ذلك تريد أن تفهم.

قال: وهل آتيك وتأتينى إلا من أجل هذا؟!

قلت: سنحاول!

أما خطأ الإعراب فلا. وهى مرفوعة بوجه من الإعراب صحيح. فالآية تقديرها: «إن الذين آمنوا والذين هادوا - والصابئون كذلك - والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر» فهى مرفوعة على تقدير أنها مبتدأ خبره محذوف، ونظائرها فى العربية كثير.

قال: آه! هذا وجه صحيح حُلت به مشكلة الإعراب، ولكن يبقى المعنى والتفسير. فلماذا كانت ﴿ الصَّابِئُونَ ﴾ وحدها هى التى انفردت بهذا التقدير والرفع؟ ولماذا لم تكن كذلك ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أو ﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أو ﴿ النَّصَارَىٰ ﴾؟

قلت : فكر أنت وقل لى .

أطرق رأسه مفكراً ثم رفعها قائلاً : لا بد إذاً أن فى ﴿ **الصَّابِئُونَ** ﴾ شيئاً ينفردون به عن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى جعل القرآن يفردهم بإعراب خاص ليستوقف البصر وينبه العقل .

قلت : إنك لرائع .

قال : ولكن ما هو هذا الشئ الخاص وكلها فرق عقائدية ؟

قلت : ها قد وضعت يدك على مفتاح السر .

قال : مفتاح السر ؟!

قلت : نعم ! فالذين آمنوا هم المسلمون، والذين هادوا هم اليهود، والنصارى هم النصارى، وكل منهم عقيدة منفصلة وملة قائمة بذاتها .

قال : والصابئون ؟!

قلت : أما الصابئون فإنهم ليسوا عقيدة قائمة بذاتها ولا ملة منفصلة، وإنما هم فرقة صبأت، أى خرجت عن أصل ملتها وعقيدتها وانفصلت عن أس فرقتها . وأصل ملتها اليهودية وأس فرقتها اليهود، خرجوا عليهم وعبدوا الكواكب والنجوم يرونها قد حلت فيها الملائكة النورانية التوراتية .

قال : بابل ؟!

قلت : تماما أيها الألمعى اللوذعى . فهذه فرقة انشعبت من اليهودية فى السبى البابلى وخرجت منها وخلطت عقائدها بعقائد البابليين، فعبدوا النجوم التى يعتقدونها الملائكة . ومن آثار أصلهم ومنبتهم اليهودى فى عقائدهم وطقوسهم إيمانهم بانهم شعب الله المختار (بهيرى زدقا)، واتخاذهم هيكلاً كهيكل اليهود يبنونه من الخيام والقصب، وطرائقهم وطقوسهم فى ذبح القرابين وتقديمها للإله .

قال : فلذلك جاء بهم القرآن فى صيغة إعرابية تختلف عن الصيغة التى وضع فيها باقى الفرق لتشير إلى انفرادهم بكونهم فرعاً من اليهودية لا ملة قائمة بذاتها .

قلت: نعم. ولذلك أيضا جاء بها عقب اليهود مباشرة. فهم فرع منهم وتابع فى أصل نشأتهم لهم. فالذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا يحزنون. والصابئون - بتبعيتهم لليهود وأصل منشأهم - كذلك.

قال: إن ما قلته لبديع. ولكن أمامك حجرة عثرة، بل حجرتا عثرة.

قلت: اللهم سلم من حجارتك!

قال: إذا فلماذا جاءت ﴿ الصَّابِئِينَ ﴾ منصوبة ومفصولة عن اليهود في آية البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]؟

ولماذا جاءت منصوبة وهى متصلة بالذين هادوا فى آية الحج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]؟

فإذا كان القرآن رفع ﴿ الصَّابِئُونَ ﴾ فى آية المائدة ووصلهم بالذين هادوا لأنهم انشعبوا منهم فهم لهم تبع، فلماذا نصبهم فى آية الحج، ونصبهم وفصلهم عن اليهود فى آية البقرة؟

هل هؤلاء «صابئون» وأولئك «صابئين» غيرهم أم ماذا؟

قلت: الصابئون فرقة يهودية انشعبت من اليهود واختلطت عقائدهم بعقائدهم البابليين. فهم فى أصلهم تابعون لليهود، ولكنهم انفصلوا عنهم وخرجوا على سلطة الكهنة والأحبار وعلى العقائد اليهودية، وهجروا المجتمع اليهودى وسلطان الكهنة الذى يحكمه وانعزلوا عنه، بل وناصبوا اليهود العداء عقائدياً، فهم يكرهون رب الجنود التوراتى (يهوه العبرى - أدوناى المندائى) لأنهم يرونه رباً لليهود فقط ولا يضمر للصابئة وداً ولا يخرج منه إلا الشر ولا يحابى إلا اليهود.

ولذلك نصبهم القرآن بحكم ما صاروا إليه واستقروا عليه.

قال: فآية تصفهم من جهة أصلهم ومنشاهم، فرفعتهم تبعية لليهود، وآية تصفهم من جهة مآلهم وما انتهوا إليه، فنصبتهم بياناً لاستقلالهم عنهم.

قلت: تماماً. فآية المائدة المرفوعة تعرفك أنهم فرقة نشأت من اليهودية، وآية الحج المنصوبة تعرفك أنهم انفصلوا عن اليهودية وصاروا فرقة مستقلة أعطتهم الآية حكم الملة القائمة بذاتها.

قال: تبقى المشكلة الكبرى. هم شعبة من اليهود انفصلت عنها واستقلت بذاتها، فلماذا جاءت بهم آية البقرة مفصولين عن اليهود مخالفة آيتى المائدة والحج وهم فيهما متصلون بهم رفعاً ونصباً؟

قلت: المشكلة الكبرى هى فقط فى زاوية رؤيتك للأمر!

قال: زاوية رؤيتى! كيف؟

قلت: آية البقرة لم تفصلهم عن اليهود لكنها أدخلت بينهم وبين اليهود النصارى.

قال: وما الفرق؟

قلت: لتكمل لك آية البقرة تاريخ الصابئة وتأتيك به تاماً. فهم نشأوا من اليهودية، ثم انفصلوا عنها واختلطت عقائدهم بعقائد وطقوس البابليين، ثم استقروا فى بابل ملتقى العقائد وطريق القوافل، فأخذوا من النصارى بعض عقائدهم وطقوسهم وجعلوها جزءً من عقائدهم وطقوسهم. فمن آثار النصرانية فى الصابئة إيمانهم المطلق بالتعميد. وهو عندهم طقس يومى ولا يكون إلا فى ماء جار، ولذلك يسكنون دائما قرب الأنهار. ومما بقى من آثار اختلاطهم بالنصارى تحريم الختان والعزوف عن الزواج وتقديس يوم الأحد، وتقديس شخصية المعمدان يوحنا العبرى – يهانا المندائى. فهم قد صاروا خليطاً من كل هذا ومستقلاً عن كل هذا.

قال : فادخلت آية البقرة النصارى بينهم وبين اليهود لتشير إلى أن النصرانية صارت جزءاً من تكوين عقائدهم وطقوسهم بعد انفصالهم عن......

سكت قليلاً ثم صاح فجأة : يا الله! فكأن فى الآيات الثلاث شفرة تحوى تاريخ الصابئة كله فى ثناياها . فهم شعبة من اليهودية اختلطت بالبابلية الكواكبية فصارت مستقلة عنهم، ثم استمدت روافد ومؤثرات من النصرانية .

قلت : والآيات الثلاث تجمع لك تاريخ الصابئة كله من مبدئه إلى منتهاه بهذا الرفع والنصب، وهذا الوصل والفصل .

وما إن اتممت كلمتى حتى قفز من على كرسيه واقفاً . وبدا متردداً، ثم خر إلى الأرض ساجداً . وما إن اعتدل جالساً حتى ابتسمت قائلاً له : أما تريد أن تعرف كيف يقول القرآن : ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وأخطأ هى أم صواب ؟

قال : بل صواب صواب !

فإنه لأهون على بعد ما رأيت من هذا العجب العجاب أن أتهم عقلى وعقول كل البشر من أن أفكر فى وجود خطأ فى هذا السحر الحلال .

قلت : ولا حتى تريد أن تشبع فضولك فتعرف حلها؟

قال : أما هذه فنعم! بل إنى لشديد الفضول أن أعرف تفسير لغز هذه العبارة .

قلت : ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه التى رأيتها خطأ ولا وجه لها فى الإعراب، اتدرى كم وجه لها فى الإعراب ؟

قال : اثنان .

قلت مبتسماً : لا .

قال : ....ثلاثة ، أربعة .

قلت : تسعة أوجه!

قال: يا للهول!! تسعة أوجه؟!

قلت: نعم فإليك هى وخذ ما شئت منها.

أولا: هذان اسم إنّ منصوب بالألف.

قال: منصوب بالألف! أتهزأ بى؟! وكيف ينصب المثنى بالألف وكل كتب النحو أمامك تقول إنه منصوب بالياء والنون؟

قلت: صبراً. أما تذكر أننا قلنا إن القرآن قد يأتى بكلمات فى لغات القبائل العربية يكاد لا يعرفها أحد غيرها.

قال: بلى أذكر.

قلت: وكذلك فإنه قد يأتى من الإعراب بوجوه غير شائعة فى جل ألسنة العرب، وإنما يكون هذا الوجه خاصا بقبيلة أو بطن من العرب، وربما لا يستخدمه ولم يسمع به أحد غيرهم.

قال ساخراً: فلغة من هذه التى تنصب المثنى بالألف؟

قلت: اسخر ما شئت. هى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وكنانة. فهؤلاء لا ينصبون المثنى بالألف، ولكنهم يُلزمون المثنى الألف فى جميع أحواله مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً.

قال فى شك: هذا كلام مرسل ولا دليل عليه.

قلت: بل هاك الدليل. فشاعرهم يقول:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

ويقول آخر:

تزود منا بين أذناه طعنةً دعته إلى هابى التراب عقيم

أرأيت؟ ها هم ينصبون المثنى بالألف كما رأيت فى البيت الأول، ويخفضونه أيضا بالألف كما هو أمامك فى البيت الثانى. فالألف لازمة للمثنى عندهم فى كل الأحوال.

قال : سبحان الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، فيأتى بما خفى ودق من بطون الفيافى وجوانب الوديان .

قلت : وإليك وجه ثان فى إعرابها . العرب قد تستعمل إن المشددة الثقيلة بمعنى نعم . فإذا استعملتها بمعنى نعم تصبح ملغاة لا عمل لها . وعلى ذلك لا تكون الآية بادئة بإن الحرف الناسخ الذى ينصب المبتدأ، ولكن بإن بمعنى نعم التى لا عمل لها ويكون معنى الآية : نعم هذان لساحران .

قال : لا تقف هكذا دون . . . . . .

قلت : الدليل الدليل . إليك الدليل .

سأل رجل أعرابى ابن الزبير شيئاً فلم يعطه . فقال : لعن الله ناقة حملتنى إليك . فقال : إنَّ وراكبها . أى : نعم ولعن الله راكبها .

ويقول عبد الله بن قيس الرقيات :

بكر العواذل فى الصبو ح يلمننى وألومهنهْ

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنَّه

أى فقلت : نعم . وهذه الهاء لضرورة الشعر وتقفية البيت .

قال : حقاً! العلم نور، فلو ظللت أفكر مع نفسى وأتأمل لأنفقت سنى عمرى كله وما عرفت من هذه الوجوه وجهاً واحداً .

قلت : وكيف تعرفها إلا من أهلها . هذه دقائق القرآن التى أسجد بها العرب وأذل أعناقهم، أفتريد أن تصل إليها أنت أو غيرك وأنت جالس فى ظلال النسيم تسمع المذياع أو التلفاز، أم تريد أن تحوزها من كتب المطالعة المدرسية؟!

قبل أن تتهم القرآن أنت أو غيرك زن عقلك أولاً فستعرف عندها مقداره . فهذا كلام لا يخوض فيه إلا من كان عصى الفهم شيمته الجهل!

قال مبتسماً : رويدك وترفق بى! أتريدنى أن أفهم أم تنفرنى لأهرب منك؟ قد رأيت أشياء وقف عقلى فيها وقصر عن إدراك مراميها فجئت أسأل وأتقصى .

ابتسمت قائلاً: لا عليك، فلم أكن أقصدك، وإنما أصابك الكلام عرضاً. فإليك الوجه الثالث.

الجملة أصلها: إنه هذان لساحران.

قال: إنه!

قلت: نعم. إنه، فهذه الهاء تسمى ضمير الشأن، والعرب قد تحذفها فى الكلام من باب البلاغة. فتكون هى مبتدأ إن والجملة بعدها من المبتدأ والخبر خبرها. فهذان مرفوعة لأنها مبتدأ.

وإليك الدليل قبل أن تطالبنى به.

يقول الأخطل التغلبى الشاعر الأموى المشهور:

إنّ من يدخل الكنيسة يوماً   يلق فيها جآذراً وظباء

أما الوجه الرابع ....

رفع يده مقاطعا ثم قال: قف! قد عرفت من وجوه إعرابها ما فيه الكفاية ولو أكملت التسعة أوجه هذه التى ذكرت لتداخلت جميعها معاً وما عرفت ولا تذكرت منها شيئاً البتة. يكفينى ثلاثة أوجه.

قلت ضاحكاً: كما تحب!!

* * *

قال: هيا بنا ننطلق فى كلمات القرآن. فإن ما رأيته من العجائب ليشوقنى لكلماته؟ يا ترى كم من الإحكام فيها، وأىُ إعجاز يفيض من معانيها؟

قلت: إن الكلمات فى القرآن ليست ككل الكلمات.

قال: فأنا أحس عذوبتها وإحكامها، وعقلى يهفو لفهم أسرارها.

قلت: فكلمة القرآن هى - كالحرف تماماً - فى موضعها لا يصلح بدونها ولا تفى غيرها فيه بمعانيها. فإذا كانت الحروف هى لبنات القرآن وإعجازه، فالكلمات هى عمده وأركانه.

قال: فلا يمكن استبدال غيرها بها؟

قلت: إذاً لتغير المعنى وتفكك النسيج المتآلف، وذهبت روعته من نفسك واختل إحكامه فى عقلك.

قال: ولا كلمة واحدة؟

قلت: حاول وسترى كما أخبرتك من قبل أنك ستكون كالواقف أمام الفسيفساء البديعة الآسرة للنفس والعين، يتوهم من لا يعرف قدرها القدرة عليها، فينتزع لوناً ليضع لوناً ويبدل زخرفة هنا بأخرى هناك، فما ينتهى إلا وقد صار جمالها فى النفس قبحاً، وتناسقها اضطراباً، وأسرها للعين تنفيراً.

ففى القرآن كلمة تعطيك من نفسها المعنى لا يمنحه غيرها، وتبدو من دقتها كأن عبارتها ولدت بها وموتها فى فقدها، وأخرى تسكب المعنى فى نفسك بصورتها، وثالثة تجعل نفسك فى أذنك بإيقاعها. وكلها لبعض كالبنيان المرصوص: إن جاءت واحدة لتعطى النفس سروراً، جاءتك أخواتها تؤازرها؛ فمنها التى ترسم البهجة أمام عينيك، ومنها التى ترسل أنغاماً رخية فى أذنيك، ومنها التى تُطلق بالخفة والنشاط لسانك وشفتيك. وأما......

قاطعنى قائلاً: انتظر! انتظر! لا تحشد لى وجوه إعجاز الكلمة وروعتها هكذا حشداً. فلا أريد أن يفوتنى شئ أو يمر أمامى فلا أنتبه إليه.

ثم ابتسم قائلاً: سوف أحصى ما تقول وأعده لك عداً. ولن أنتقل إلى لاحق حتى ترضى وتطمئن نفسى إلى السابق.

قلت: كما تحب. فاختر واحدة نبدأ بها.

قال: دقة كلمة القرآن فى نفسها وقيامها بالمعنى وحدها لا يفى به غيرها.

قلت: نعم. فإن كلمة القرآن دقيقة فى نفسها توحى من المعنى ما يدرس بإبدالها، ومن الإحكام ما يصير فوضى بإسقاطها. فهى موضوعة فى مكانها بميزان إلهى معجز.

قال: شوقتنى! فدع الكلام حول الكلمات وهيا بنا إليها.

قلت: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١-٢].

تأمل هذه الكلمة ﴿ زُرْتُمُ ﴾ لتعرف دقتها. انظر! هل يمكنك مهما حاولت أن تزيلها من آيتها إلا وقد اختل إحكامها، أو تبدل غيرها بها إلا ويذهب المعنى الذى تحمله وتنكر أذنك من غيرها النغم الذى تسمعه منها؟

أطرق مفكراً فى عمق ثم قال: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾، فماذا لو قلنا: «حتى أتيتم المقابر»؟

قلت: إذاً لتوهم السامع رغبتهم فى ذلك وسهولته عليهم. فالإتيان هو المجئ بسهولة. وربما توهم أحد أنهم أتوا المقابر ليفتخروا بكثرة آبائهم وأجدادهم من الأموات بعد أن شبعوا تكاثراً بالأحياء.

قال: والسورة إنما جاءت لإنذار الكافرين وتوعدهم بالجحيم وفقدان النعيم إن شغلهم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمقابر.

قلت: أرأيت كيف تُحرف كلمة فى غير موضعها المعنى وتحيل الاتساق فوضى.

قال: انتظر! فما زالت هناك كلمات أخرى.

ماذا لو قلنا: «حتى سكنتم المقابر»؟

قلت: لن أجيبك أنا. بل أجب أنت، فهل المقابر سكن؟ ولو كانت سكناً أفتكون سكناً للكافرين؟

قال: السكن سكينة وقرار وطمأنينة.

قلت: والسورة تتوعد وتهدد. وها أنت قد وصلت إلى المعنى الملفوف فيها لا يصل إلى عقلك ونفسك إلا بها. فقل لى: الزيارة دائمة أم عابرة؟ إلى مستقر أم إلى مكان لا بد أن تنصرف عنه؟

قال: هى عابرة ولا تسمى الزيارة زيارة إلا إلى مكان لا بد من الانصراف عنه.

قلت: تماماً. فـ﴿ زُرْتُمُ ﴾ هو اللفظ الوحيد لا تجد غيره مهما حاولت الذى تفهم منه أن الإقامة فى المقابر عابرة وليست دائمة، وأن القبر ليس نهاية المطاف وإنما هو محط فى الطريق لا بد من الانتقال عنه إلى نهايته.

قال: فهمت. فالقرآن اختار ﴿ زُرْتُمُ ﴾ على سائر الكلمات التى تعطى معنى الذهاب إلى المقابر لينبه العقل ويشير فى النفس أن هذا الذهاب قصير مؤقت، وأن القبر ليس نهاية الدنيا وإنما هو باب عبور إلى الآخرة.

قلت: وهو ما لا يمكن أن تحس به أو يرد على عقلك إلا من ﴿ زُرْتُمُ ﴾ وحدها. وهذا ما فطن إليه الأعرابى بعقله فى أذنه وفطرته. ما إن سمع الآية حتى قال: بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم.

قال: يا للدقة المتناهية! إن الكلمة فى دقتها تحمل عقيدة الإسلام فى جوفها.

قلت: نعم. فهذا هو الإعجاز؛ دقة الكلمة فى نفسها ودقتها فى مكانها من البناء القرآنى. فتأملها الآن مرة أخرى وانظر لماذا جاءت هذه الآيات؟

قال: لكى تتوعد الكافرين وتفزعهم وتنذرهم بسوء العاقبة وبئس المصير.

قلت: فلو جاءت كلمة غير ﴿ زُرْتُمُ ﴾ لكان القبر مستقراً ونهاية.

قال: ولكانت خاتمة الكافر التراب.

قلت: وهو عين ما يتمناه يوم القيامة يوم: ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠]

فلو كانت كلمة غير ﴿ زُرْتُمُ ﴾ لبثت فى قلوبهم الطمانينة والمراد تخويفهم، ولجلبت إلى نفوسهم السكينة والمطلوب إفزاعهم.

قال: فلو كانت كلمة أخرى لكانت متضاربة في إيحائها ومعناها مع الإنذار بزيارة المقابر، والتهديد المخيف: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤] والوعيد المفزع فى الجحيم والحرمان من النعيم.

قلت : وفي إيثار ﴿ زُرْتُمُ ﴾ على غيرها سر آخر.

قال : بعد عجائب الحروف أصبحت أرى الكلمة كالبلورات المتداخلة، في كل بلورة أخرى، وفي كل بلورة سر وعجيبة.

قلت : فإن ﴿ زُرْتُمُ ﴾ تتشابه حروفاً وصوتاً ونطقاً مع زر الأزرار.

قال : زر الأزرار؟ أتعني إدخال الزر في عروته؟!

قلت : تماماً.

قال : وما علاقة هذا بذاك؟

قلت : العلاقة أن هذا التشابه الصوتي والجناس اللفظي يجلب للسامع والقارئ المتمعن من إشعاع المعنى وتداعي الإيحاء ما لا يمكن أن تفيض به كلمة أخرى.

قال :كيف؟ لا أفهم.

قلت : أليس زر الزرار في عروته إدخالاً ومعالجة واحتكاكاً له بجدارها وانقباضاً لها عليه؟

قال : ياه! إن هذا معنى في الكلمة لا يخطر على بال.

قلت : ومع ذلك إن نبهك أحد إليه، أو أعلنت لك نفسها به الحروف لا يمكنك إلا أن تراه لطيفة في الكلمة وطريفة تزيد المعنى إحكاماً وإحاطة وجمالاً ودقة.

قال : سبحان من اختار الكلمة درة فريدة لا مثيل لها في مكانها. مرور الجسد في فتحة القبر إدخال ومعالجة ونفاذ في ضيق واحتكاك بها كدخول الزر في عروة تماماً.

قلت : وهو ضيق وضمة وخنق كخنقتها على زرها.

فكأنه بهذه الكلمة يبغت الكافر ويفزعه؛ ينقله من رحابة الأموال والأولاد إلى ضيق القبر وفتحته التي هي الباب بين البسط والقبض.

قال: إن هذا لعجب من العجب. الكلمة تعطى المعنى بنفسها يحمل العقيدة، وتثير الصورة بصوتها وحروفها تصف الحقيقة. وكل هذا يتوحد ويصب فى النفس فزعاً وتوعداً وضيقاً وهماً، فكأن الكلمة هى نفسها قبر يحيط الكافر بجدرانه ويضمه ويخنقه بإحكامه.

قلت: وعجيبة العجائب فيها أنها تعطى المعنى بنفسها وتسكبه فى النفس بإيحائها وإشعاعها، ثم تأسر الوجدان بإيقاع لحنها واتساق صوت حروفها بين أخواتها.

قال: تقصد الموسيقا التى تنبعث من تشابه راءات التكاثر وزرتم والمقابر.

قلت: ليس لتشابه الراءات وحدها. بل هناك مصدر آخر لهذه الموسيقا التى تنبعث من الآية.

قال: فهذه موسيقا داخلية فى تلاؤم الحروف لا سبيل لتحديد مصدرها.

قلت: نعم هى داخلية ويصعب تحديد مصدرها ولكنك قد تقع على ما يفسرها لك فى جزء منها، وإن لم تستطع أن تتبين عن يقين مصدرها. فالقرآن يبعث موسيقاه وألحانه من الفواصل أو من المدود أو من الجناس أو من إيقاع المقاطع وتناسقها.

والإعجاز أنه لا قواعد ثابتة. فمصدر النغم فى آية غير أختها، والإيقاع فى آية لا تجده فى أخرى. ورغم هذا الاختلاف فأذنك أسيرة له ووجدانك مسحور به.

قال: فأين دور ﴿ زُرْتُمُ ﴾ فى موسيقا هذه الآية؟

قلت: فاقرأها أولاً.

قال: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾.

قلت: فلو تأملتها لرأيت الموسيقا تنبعث فيها من تشابه مقاطع لتعطى إيقاعاً واحداً، وتجانس مقاطع أخرى لتعطيك توقيعاً آخر. وإعجاز الموسيقا فى انبعاثها من تداخل هذا الإيقاع بذاك دون أن تفطن أنت لهذا ولا ذاك.

قال: لا تسكت هكذا. فقد خلعتنى من الأرض، وما بلغت بى السماء.

قلت: الموسيقا تنبعث فى الأذن من الإيقاع الواحد فى المقاطع المتشابهة المتكررة:

التكاثـــر حتى زرتم المقابـــر

فهذا يكاد يكون مقطعاً واحداً يعطيك نغمة متسقة فى أول الآية ووسطها ونهايتها.

قال: ثم؟

قلت: ثم التوقيع فى المقطع الصوتى الواحد الذى يزن الآية فى طرفيها:

ألها كُـــمْ زرتُـــمْ

قال: ويتداخل هذا الإيقاع بذاك التوقيع والوزن.

قلت: فيعطيك موسيقا رخية تكاد لا تعرف مصدرها.

وزرتم التى تحتوى الإيقاعين والمقطعين معاً: «زر» و«تم»، هى المعبر الذى يسرى فيه النغم ويتآلف فيه الإيقاع هنا وهناك ليعطيك نظماً واحداً. فهى التى تمسك بدفة الإيقاع وتتعانق عندها المقاطع.

قال: يا لروعتها! إذاً فهى معبرة بين الدنيا والآخرة، ومعبرة بين سعة التكاثر وضيق القبر وضمته، ثم هى معبرة بين مقاطع النظم ماسكة لدفة الوزن.

قلت: ومكمن روعتها هو دقتها المتناهية من كل وجه، ودقة مكانها الذى هيئ لها وأعد لاستقبالها، فلا تفهمه إلا بها ولا تمنحك أنوارها إلا فيه.

قال: فذلك تفصيل الحكيم الخبير.

قلت: فإليك كلمة أخرى تبصر بها دقة القرآن المعجزة واختياره للكلمة فى

مكانها تتوله الأذن العربية فى جمالها وتناسقها، ويحار العقل أمام الميزان الذى اختارها وأحكمها.

قال: قل لى. قل لى.

قلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فقلِّب الآية من كل وجه وحاول أن تأتى بكلمة لتحل محل الذكر فيها، وأنا ضامن لك أنك لو حشدت عقول البشر جميعاً ومن ورائها معاجمهم فلن تجد كلمة تضعها مكانها وتعطيك مثل معناها وإيحاءها وبريقها.

قال: فالذكر هو القرآن، والقرآن نفسه يذكر فى آياته أنه القرآن وأنه الفرقان وأنه الحق؛ فتارة يستخدم هذا، وتارة هذه، وثالثة تلك.

قلت: لكنه لا يضع الكلمة فى مكانها خبط عشواء، بل إحكام وتناسق واختيار للكلمة يعجز البشر عن استيعاب دقته.

فقل لى: أسماء القرآن كثيرة كما قلت فلم تركها كلها ولم يختر منها فى هذا الموضع إلا كلمة واحدة «الذكر»؟

قال: أمهلنى قليلاً. وأخذ يهمس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ..... ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾.

قلت: ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

قال: آه! الذكر هو الطريق إلى الحفظ، والحفظ وسيلة الذكر.

قلت: أرأيت كيف تُنتقى الكلمة فتتدفق بها الحياة فى عبارتها. نعم الذكر هو وسيلة حفظ القرآن. فكأنه عز وجل اختار الذكر من بين أسماء القرآن لينبه الذين نزل إليهم أنه عز وجل تكفل بحفظه، وأن حفظه يكون بذكرهم له. فكأنه يقول لهم: كونوا دائماً ذاكرين قارئين مرتلين. فهذا سبيل حفظه.

قال: إن هذا لبديع. القرآن هو الذكر، والذكر هو وسيلة حفظه.

قلت: فماذا تقول إذا عرفت أن الذكر من معانيه الحفظ.

قال: فتلك أبدع وأجمل. فكأنه يقول لهم: نزلنا إليكم القرآن محفوظاً لتحفظوه، فيكون فى حفظه ذكره، وفى ذكره حفظه.

قلت: والأبدع والأجمل أن يسمى القرآن ذكراً، فيرشدهم إلى أن حمايته وصيانته من التحريف والتبديل والتغيير إنما تكون بكونه مذكوراً بينهم محفوظاً فى الصدور: يلقيه صدر إلى لسان ليحفظه لسان فى صدر. فيظل مذكوراً وذكره لا ينقطع. وهذا هو التواتر الذى حفظ القرآن وعصمه أن يصيبه ما أصاب الكتب السابقة من تحريف وتبديل.

قال: قد قلتها، الكلمة كالبلورات المتداخلة، فى كل بلورة بلورة، وفى كل بلورة عجيبة تتوله منها الأذن ويحار العقل كما قلت أنت.

ياه! الذكر هو طريق الحفظ، والحفظ هو وسيلة الذكر، والذكر والحفظ هما ذكره فى الألسنة وحفظه فى الصدور. وهما معاً حفظه من التبديل والتحريف.

إن جمال اللفظة فى الآية لأخاذ.

قلت: والأهم أن رأيت كيف دقتها وروح الحياة التى تدفعها. فلو كانت كلمة مكان الذكر لجمدت حياة الآية وانطفأ بريقها وذهب إشعاعها وضاعت المعانى الملتفة المتعانقة كأفنان الشجر فيها.

وما انتهيت حتى نهض من مكانه وتهيأ للخروج.

قلت: ما لك قمت؟

فالتفت إلى خارجاً من الباب وهو يقول: دعنى الآن فإن عقلى مشغول جد مشغول.

* * *

قال: تأخرت على.

قلت: ما تأخرت إلا قليلاً.

قال وهو ينظر فى ساعته: لا أعرف إن كان الزمان يبطئ أم أن لهفتى وانتظارى هى التى أطالته؟

قلت: وكيف يبطئ؟! ثم ابتسمت قائلاً: أتراك انطلقت بسرعه الضوء وأنا لا أعرف؟!

قال: لو أردت الحق: لقد نزعتنى كلمات القرآن من جاذبية الأرض ودفعت بنفسى إلى سماك السماء فى طرفة عين. فإن الضوء إلى جوار فعلها وسحرها لسلحفاة.

قلت: فإنها قوة وسرعة كن فيكون.

قال: منذ تركتك وأنا أفتح الصفحات وأستخرج الكلمات وأتأملها وحدها، ثم أضعها فى مكانها وأبحث عن سر وجودها والشرايين التى تصلها بأخواتها والدماء التى تتدفق بالحياة بينها، وأقيس المقاطع فى الكلمات علّى أضع يدى على الإيقاع الذى يسلب الأذن ويأسر النفس حتى لقد كدت أخشى على نفسى أن يرانى أحد فيحسبنى مخبولاً أو بى مس من جنون.

قلت: لا عليك من أحد، فلو تبعت الناس فى كل رأى لأضنوك ولصرت كجحا وولده والحمار، لن ترضيهم على أى حال.

قال متنهداً: هو ما تقول. المهم ما رأيك فى سورة يوسف؟

قلت: جميلة بديعة.

قال: أتعرف أن هذه السورة كنت دائماً أقرأها وأكررها حتى لقد كدت أحفظها حتى قبل أن يقر فى نفسى صدق القرآن وإعجازه.

إن بناءها الفنى لجميل، وحبكتها لمحكمة، وأحداثها لمثيرة، ومشاهدها خاطفة حية؛ إن وضعت عينيك ولسانك فى أولها استولت على نفسك ووجدانك فما تشعر وتعى لنفسك إلا وأنت فى آخرها.

ما بين يوسف ورؤياه، وأبيه وإخوته وغيرتهم منه، ومكيدتهم له ونجاته، وإغراء المرأة وسجنه، ثم انقلاب الأحداث بخروجه وعلوه وتمكينه وخضوع مصر كلها له وسجود إخوته وأبيه عنده. إن أحداثها لأخاذة مندفقة بالحياة.

قلت : وبالحقيقة . فذلك أحسن القصص . لكن ما الذى ذكرك بسورة يوسف الآن؟

قال : كلما قرأتها أو رددتها وقفت عند كلمة بها لا أبارحها، ولقد تأملتها طويلاً منذ تركتك ولم أصل فيها إلى ما يرضينى .

قلت : وما هى هذه الكلمة؟

قال : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٢٤]

فإن كل كلمة كما تقول هى فى موضعها لا يكتمل بدونها، فهو كالدرة بها وكالزجاج الزائف من غيرها . وربما ساورت نفسى الشكوك فى كلمة أن موضعها يصلح ومعناها يتم بغير وجودها، ولم أر كلمة تقف عندها نفسى فترى أن موضعها يكون أجمل وأحكم وأليق بالكلام عن نبى فى غير وجودها إلا هذه الكلمة : ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ فلا أعرف حكمة وجودها ولا أرى جمالاً فيه، بل أفلم يكن من الأجمل والأحكم أن لا تكون موجودة فلا يشك أحد فى أنه همَّ ولا يتخذها البعض تُكأة فيصوره - عليه السلام - ثائر الشهوة ويصفه بما لا يليق بعصمة النبى كما فعل اليهود فى توراتهم .

قلت : ورغم كل ما قلت، لو لم تكن موجودة فى موضعها الذى أعده القرآن لها واختارها له لاختل إحكام القرآن الذى لا يترك فى المعنى شيئاً إلا أحاط به وأحاطه بسياج حتى لا تنقص منه ولا تزيد فيه الخيالات المريضة من عند نفسها شيئاً .

قال : لا أفهم شيئاً .

قلت : هذه هى الكلمة فى عبارتها كأنها ولدت بها، فتفقد روحها وحياتها بفقدها أو تصير مسخاً شائهاً بإبدالها . أو هى كاللبنة فى البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، تذهب روعتها لو نزعتها من بنيانها ونظرت لها ملقاة فى عرض الطريق .

قال : كيف؟

قلت : أولاً : إن القرآن قال : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وأنت تعلم أن «لو» هذه حرف امتناع لامتناع ، فـ ﴿ لَوْلا ﴾ أن رأى ما أراه ربه من برهان لـ ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ .

فها أنت ترى أن القرآن عصم يوسف عليه السلام من الزلل وجموح الشهوة والميل إلى الفاحشة بـ ﴿ لَوْلا ﴾ .

أما أن كاتب اليهود ذا الخيال المريض افاض فى وصف شهوة يوسف عليه السلام فهذا من نقصه . وهو شهادة عجز للتوراة المكذوبة وإعجاز للقرآن الصادق .

قال : إذاً فـ ﴿ لَوْلا ﴾ هنا سياج يعصم العقل أن يذهب فيما وراء الهم، ومانع يحجز النفس أن تعتريها الوساوس فى عصمة نبى الله يوسف عليه السلام .

قلت : تماماً . فـ ﴿ لَوْلا ﴾ هى السياج والحاجز بين يوسف عليه السلام وظن السوء أن يفعله .

قال : هذا بديع . فكأن ﴿ لَوْلا ﴾ سور محكم أو هى العاصم لعصمة يوسف .

ومع ذلك فهذا لا يرضينى ايضا . فـ ﴿ لَوْلا ﴾ سياج لعصمة يوسف من ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ ، فلماذا كل هذا العنت وهذه المشقة؛ تأتى الآية بـ ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ ثم تأتى لها بسياج وسور حتى لايتعداه أحد .

أفلم يكن الأولى أن لا تأتى ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ ابتداءً، فلا تحتاج إلى سور ولا سياج ونكون فى غنى عن الحاجز؟

قلت : فذلك تفصيل الحكيم الخبير الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة .

انظر وتأمل : أى إغراء هذا الذى امتُحن به يوسف عليه السلام من امرأة العزيز؟

قال: وأى إغراء؟! وهل بعد هذا إغراء؟ وهو شاب فتى قوى فى أوج فحولته، وهى سيدته ومالكته، ثم هى تدعوه وتتدلل أمامه وتتثنى وتتكسر أمامه كرودان الإبل واختيالها، ثم تهم به وتلقى نفسها عليه.

قلت: والموضع خال وقصر العزيز مرتع فساد، تعرف ذلك من النسوة فيه لا يستحين من إظهار شبقهن، والعزيز ربه ديوث يرى ما يرى ويعرف ما يعرف فيكون أقصى ما يفعله أن يقول لها فى لين وخنوثة: ﴿**اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ [يوسف: ٢٩]

فلو أن رجلاً بشراً فى مثل هذا الجو الفاسد وهذا الإغراء والإغواء الصريح ما تراه يفعل؟

قال: إن هذا لموقف عصيب، ولو أن أحداً مكان يوسف لثارت شهوته وهاجت غريزته فما يشعر بنفسه إلا وهو حيث هو.

قلت: فلو كان أحد فى هذا الموضع ولم يتحرك؟

قال: لما كان بشراً.

قلت: أو أنه بشر عاجز.

قال: آه! ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾.

قلت: نعم ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ هم البشر.

أرأيت إلى إحكام القرآن وإعجازه؟ جاءك بـ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ ليثبت ليوسف عليه السلام البشرية، ويثبت له الفحولة والرجولة وينزهه عن العجز أو فقدان الرجولة، ثم أتى لك بـ﴿**لَوْلا**﴾ ليحجزك أن تتعدى الهم.

قال: آمنت بالله. فبـ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ يوسف بشر رجل. وبـ﴿**لَوْلا**﴾ هو بشر رجل معصوم.

قلت: فإذا أدرت الجوهرة قليلاً لرأيت منها بريقاً أخاذاً آخر.

قال: فأرنيه.

قلت: في جو الإغراء الصريح والفساد المتفشي هذا، لو لم يذكر القرآن ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لما كانت ﴿لَوْلا﴾ لها فائدة كما قلت أنت ولما جاءت في مكانها.

قال: نعم.

قلت: فلو لم تأت ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لتولد من رحمها ﴿لَوْلا﴾ وتقطرها وراءها فتريك عصمة يوسف عليه السلام، لتوهم مرضى النفوس ككاتب التوراة أن هذا إغضاء عن فاحشة فعلها لا عصمة عُصم بها، ولترك عقلك يذهب كل مذهب فيما عسى أن يكون يوسف قد فعل في هذا الموقف العصيب.

فقد ينزهه منزه، وقد يشك شاك، وقد يتهمه بالاستجابة مريض في نفسه وعقله. وفي كل الأحوال لا تستطيع أن تنفي ولا أن تثبت.

فلو قلبت الآية من جميع وجوهها، ونزعت ووضعت ما شئت، لما وجدت لها نظماً وإحكاماً تثبت فيه ليوسف بشريته، ورجولته وفحولته، وعصمته ونبوته إلا بهذه الكلمات الثلاث: ﴿هَمَّ بِهَا لَوْلا﴾.

قال: ثلاث كلمات فقط تحتوي كل هذا. البشرية، والفحولة والرجولة، والنبوة والعصمة؟

قلت: وإن شئت الدقة فهي كلمة واحدة بسياجها.

ألم أقل لك: هذه هي الكلمة في عبارتها كأنها ولدت بها.

قال هامساً: الكلمة في عبارتها كأنها ولدت بها.

ثم التفت إلي قائلاً: فهناك عبارة واحدة في القرآن هي هي في كل كلماتها ما عدا كلمة واحدة جاءت في الأولى غير الثانية.

قلت مبتسماً: ها أنت تلاحقني: من كلمة ترى جمال المعنى وكماله بحذفها، إلى العبارة الواحدة هي هي تختلف فيها كلمة واحدة. فكن شاهداً على نفسك، أنك أنت الذي لا تترك لي فرصة للاختيار وتمطرني بكلماتك وتأملاتك حتى لا تجد عليَّ بعد ذلك.

قال: تريد الهرب؟!

قلت: وهل هربت من قبل حتى أهرب منك الآن؟

فأين هى هذه الكلمة التى حيرتك؟

قال: فى سورة الحج: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: ٥] وفى سورة فصلت: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

فكما ترى هذه جملة واحدة هى هى وتكاد تتطابق فى كل كلماتها، ومع ذلك ففى الأولى الأرض ﴿ هَامِدَةً ﴾ وفى الثانية ﴿ خَاشِعَةً ﴾.

قلت: وماذا تريد؟

قال: ماذا أريد؟ وهل هذا سؤال؟ لقد حاولت أن أعرف سبب هذا الاختلاف وعلة وضع كلمة هنا وأخرى هناك؟

قلت: وإلام وصلت؟

قال: لم أصل إلى شئ. وقلت فى نفسى: ربما كان ذلك للتنويع ونفى الملل والتكرار و...

قلت: عدت لتحرن من جديد.

قال: وتتهمنى بأنى قليل الصبر!

قلت: ها قد سكت يا كثير الصبر فقل ما تشاء.

قال: قلت فى نفسى: ربما كان هذا الاختلاف للتنويع ونفى الملل ثم تذكرت ﴿ إِلَيْنَا ﴾ و﴿ عَلَيْنَا ﴾ فقلت: لابد أن فى الأمر سراً.

قلت: ألم تقل لى إنك تكتب ما نقول ثم تعود لتأمله على مهل؟

قال: بلى.

قلت: فلو تأملت ما كتبت عن ﴿ إِلَيْنَا ﴾ و﴿ عَلَيْنَا ﴾ وفعلت مثل ما فعلناه عندها لوصلت إلى سر هذا الاختلاف ولشهدت للقرآن بالإعجاز وإحكام اللفظ داخل عبارته تقصر عنه عقول كل البشر.

قال: ما فعلناه؟!

قلت: نعم! فلو أنك بدلاً من أن تقتطع الكلمة وتعزلها عن أخواتها نظرت إليها فى الآية كلها لما احتجت إلى السؤال.

قال: فالآية الأولى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

قلت: فالمراد فى الآية إثبات قدرة الله عز وجل على البعث بإظهار قدرته على إخراج الحى من الميت.

قال: أرى ذلك فى خلق الناس من تراب يصيرون بقدرة الله حياة نابضة.

قلت: ولذلك جاء بأطوار حياة الإنسان متتابعة مليئة بالحيوية والتغير: الإخصاب وحياة الرحم، فالطفولة، فشدة الشباب ويفوعته، فانحناء الشيب وشيخوخته فى مشاهد بصرية خاطفة حية كأنها عرض موجز لسيرة الإنسان، لينبه عقلك ويسكب فى نفسك أن هذه الحياة والحيوية إنما خلقت من تراب وبُثت فيها الحياة بقدرة خالقها، فلا يعجز عن إعادتها وهو أهون عليه.

قال: حقاً إن هذه المشاهد البصرية المتتابعة سريعة متدفقة بالحياة حتى لتسبق فى انتقالاتها الخاطفة البصر فى متابعتها والخيال فى تصورها.

قلت: لتجسد صورة الحياة أمام عينيك وتعطيك إحساساً بحيويتها فى نفسك بعد أن أعطتك معنى الحياة بألفاظها.

قال: ولكن لم أصل بعدُ إلى سر الأرض الهامدة.

قلت: الهامدة هى الميتة لا حياة فيها، الساكنة لا حركة فيها، اليابسة لا نبت فيها.

قال : الميتة؟!

قلت : ولذلك جاءت الأرض فى الآية ﴿ هَامِدَةً ﴾، لتكون شاهدة بحياتها بعد همودها على قدرة الله عز وجل كما شهدت عليها رحلة حياة الإنسان منطلقة من التراب بكن.

قال : فهى ﴿ هَامِدَةً ﴾ كالتراب!

قلت : فإذا نزل عليها الماء بأمر الله سرت فيها الحياة بعد الموت، واهتزت بالروح بعد سكون وربت فانتفخت.

قال : فتكون حياتها وحركتها بعد الموت والهمود شاهداً على قدرة الله على البعث.

قلت : تماماً كما كانت حياة الإنسان دليلاً عليه.

قال : ولذلك قال القرآن : ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ لأن النبت هو حياة الأرض.

قلت : وفوق ذلك لأن النبت هو طفل الأرض تحمله فى رحمها فتنتفخ به كما أن الطفل هو نبت الإنسان.

قال : إنه لتناسق رائع الصورة تشف النفس انتشاء بلذته :

الإنسان حياة من موت.

والأرض حياة بعد موت.

الطفل نبت الإنسان.

والنبت طفل الأرض.

الطفل جنين فى رحم الأم.

والنبت جنين فى رحم الأرض.

هذا يأتى من ماء الرجل.

وذاك يخرج بماء السماء.

قلت: وهذا وذاك يشهد بحياته من موت لله عز وجل بالقدرة. ولذلك جاءت الآية التالية عنوان هذه الشهادة: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦].

أرأيت كيف يأتى القرآن بالكلمة فى مكانها فتكون كالدرة الفريدة لا نظير لها؟

قال: لا أريد أن تشغلنى هذه الروعة عن الآية الثانية التى جاءت فيها الأرض ﴿ خَاشِعَةً ﴾.

قلت: فاقرأها كاملة لا اقتطاعاً كما فعلت.

قال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

قلت: فارجع إلى الوراء قليلاً واقرأ الآيتين قبلها.

قال وهو يفتح المصحف: فصلت. فصلت ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧ - ٣٨].

قلت: فهذه الآيات جاءت لتأمر الإنسان بالسجود لله وعبادته وحده.

قال: فهذه واضحة صريحة: ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾.

قلت: فهى تقول للإنسان: كل ما فى الكون يسجد لله ويسبح بحمده ويشهد له. فالليل والنهار آيتان تشهدان فى تعاقبهما وديمومتهما، لا الليل سابق النهار بيد القدرة الخالقة التى أوجدتهما. والشمس والقمر يسيران بأمر الله فى نظام محكم دقيق، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر لتشير إلى حكمة الخالق الذي أجراها.

قال: فلماذا كانت الأرض ﴿ خَاشِعَةً ﴾؟

قلت: جاءت ﴿ خَاشِعَةً ﴾ لتكون ساجدة انصياعاً لأمر الملك، وترفع ضراعتها أمام خالقها، وتعلن تذللها وافتقارها إليه وخضوعها وانكسارها أمام جلاله، وتُشهد خالقها على مفارقتها لمن أبى السجود وانضمامها إلى صف الذين عنده عز وجل يسبحون بالليل والنهار وهم لا يسئمون.

قال: ويالها من شهادة!

قلت: فالأرض هنا ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ساجدة عابدة ضارعة وليست هامدة ساكنة.

قال: وهل فى طاقتها أن تكون هامدة فى الحضرة الإلهية؟ لو جاءت هامدة لا تظهر طاعة ولا تذللا وضراعة لكانت عاصية آبقة.

قلت: ولكانت نشازاً نافرة فى هذا الجو المفعم بالسجود والضراعة والتسبيح، الكون بكل ما فيه والملكوت الأعلى وما فيه فى تسبيح وضراعة وخشوع إلا هى.

قال: فلماذا لم تأت فيها ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾؟

قلت: لأنها لم تكن ميتة فأحيتها القدرة الإلهية لكى تعطيك عنوان هذه الحياة فى النبت، بل كانت حية خاشعة عابدة.

قال: فأنزل الله عليها الماء؟!

قلت: بل قل أثابها الله على سجودها وخشوعها بالماء، فاهتزت شكراً وربت إظهاراً لنعمة الله عليها فى وجل أن تجاوز حد الشكر إلى الفخر فى حضرة الجليل.

قال: فلم تنبت فى هذه الآية حتى لا تجاوز إظهار فضل المنعم إلى إظهار فضل نفسها. إن هذا الانسجام والنظام الدقيق - لكما قلت أنت - كالفسيفساء المتناظرة الأجزاء المتناسقة التركيب المتجانسة الوحدات، لا تعرف حداً لروعتها ولا تنسيقاً أبدع لها مما أخرجته فيه يد مبدعها.

قلت: فلو جاءت الأرض هامدة ساكنة هنا لكانت عاصية آبقة، ولو جاءت خاشعة حية هناك لما بانت لك عظمة القدرة الإلهية فى بعث الحياة من الموت.

ولو جاءت هنا كهناك لكان بيان القرآن كبيان البشر، ولما أُلقى العرب أمام القرآن سجداً.

* * *

قلت: أين كنت؟ ظننتك اكتفيت!

قال: اكتفيت؟! لو استطعت لأمسكت القرآن كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وما تركت كلمة إلى كلمة حتى أعرف سرها، ولا حرفاً إلى حرف حتى أكشف المخبوء فيه.

قلت: لا تحاول. فذلك فوق الطاقة. ولو فعلت لاحتجت عمرك كله وما انتهيت ولا قاربت على النهاية ولا حتى جاوزت البداية.

ولو وقفت عند كل حرف وكلمة وظننت فى نفسك كشف كل ما فيه وبوحه بأسراره ثم تركته وعدت إليه لوجدت منه غير الذى كان وفوق الذى بان، فهذه هى المعجزة المتفجرة بالإعجاز.

قال: فلا أقل من أن أقف عند بعض كلماته أتأملها وأتحسسها علها تفتح لى بعض أبوابها.

قلت: فأنت فى حاجة إلى أن تستجمع نفسك وتشحذ عقلك وترهف ميزانك حتى ترى ميزان الذهب والدر إلى جواره ثقيل ثقيل.

قال: ومن قال لك إنى لا أفعل؟

قلت: آه! فهذا الذى غيبك عنى.

قال: كنت أراجع وظائف الأعضاء وكيمياء الأحياء.

قلت باستغراب: وظائف الأعضاء وكيمياء الأحياء؟!

قال: نعم.

قلت : وهل ستطبق قوانين الأعضاء ومعادلات الكيمياء على القرآن؟!

قال مبتسماً : وهل يُفهم القرآن إلا بمعادلات الكيمياء وقانون الحياة؟

قلت : أنتويت مبارزتي بالألغاز؟

قال : دعنى أقتص منك ولو قليلاً. فقد أشبعتنى بالألغاز.

قلت : فلا تحيرنى.

قال : الأمر بسيط. إن هذا التناسق الخارق لكلمات القرآن فى أماكنها والميزان يفوق التصور فى دقته والذى وضعها على نسب بالغة اللطف ومع ذلك هائلة الفرق حيرنى وأذهلنى. ولا أكتمك أنى أحس أحياناً وأنا أتأمل هذه الفروق بعجزى عن استيعابها مع رؤيتى لها، حتى ليكاد عقلي يصاب بالشلل وهو ينظر أى قدرة هذه التى أنزلت الكلمات أماكنها.

قلت : إنها القدرة والمعجزة الإلهية.

قال : نعم القدرة الإلهية. فلم أستطع استيعاب معنى هذه المعجزة المؤلفة هذا التأليف المتجانس المتناسق المحكم إلا برؤية يد القدرة الإلهية.

قلت : فأين رأيتها وكيف استوعبت بها؟

قال : فى كيمياء الحياة : عناصر كحروف القرآن وكلماته، لو فرقت بينها كانت مواتاً لا حياة فيها، ولو مزجتها على غير نسبها الدقيقة التى مزجتها بها يد القدرة الإلهية ما زدت على أن جمعت موتاً إلى موت، ولو جئت إليها فى حياتها فزدت أو نقصت ولو مثقال حبة من خردل لأمتها. فلا حياة بها ولها إلا كما هى بترتيبها ونسبها وميزانها ودقة مزجها. ومن وراء ذلك سر الحياة عند خالقها.

قلت : فترى القرآن مؤلفاً بدقة هى دقة توليف العناصر تنبعث الحياة بها وتغيض باختلالها؟

قال : بل أراه ممزوجاً مزجاً من كلماته وحروفه. لالبنات ولا وحدات، بل

مزيج واحد انصهرت فيه الكلمات فذابت فى بعضها وصارت شيئاً واحداً هو الحياة والحياة فيه كما هو، إن انتزع منه شئ فقل: اختل وفقد الدقة وتغير المعنى وذهبت الروعة، ولكن قبل كل هذا قل: فقد الحياة وسر الحياة.

قلت: لم أكن أعلم أنك تخفى وراء عنادك كل هذا الصفاء وهذه العذوبة.

ثم ابتسمت قائلاً: أكنت تقرأ فى كيمياء الحياة أم درجت على طريق السالكين؟

وقال: وهل يبحث السالكون إلا عن شهود الحق ومعاينة السر؟ وفى كيمياء الحياة الحق، وفى معادلاتها ودقة أرقامها ينكشف السر.

ثم ابتسم قائلاً: هيه! ماذا عندك اليوم؟

قلت: لقد أنستنى كيمياؤك ما كنت أنتوى الحديث معك فيه وأراه يوم الروح فلا مكان فيه للتامل.

قال: وهل تصفو الروح وتشف إلا بالتأمل؟ وهل شئ يصعدها من الأرض لتسبح فى الملكوت الأعلى إلا رؤية المعجزة وإزاحة الغبار من أمام العين لتعاينها النفس كفاحاً.

قلت: غلبتنى!

قال: الكلمة دقيقة فى نفسها، والكلمة محكمة فى مكانها كأن عبارتها ولدت بها. ما زال هناك الكثير. الكلمة تعطى المعنى بصوتها وتجعل نفسك فى أذنك بإيقاعها.

ثم ابتسم قائلاً: ألم أقل لك إنى سوف أحصى ما تقول وأعده لك عداً؟

ابتسمت له قائلاً: وأنا اتخذت لذلك أهبتى.

فقل لى: ما غاية الكلمة؟ أى كلمة؟

قال: أن تعطى المعنى، وبقدر وفاءها بالمعنى يكون كمالها.

قلت: فهذه درجة.

قال : أن تجعلك تحس بالمعنى فى نفسك. فبقدر قدرتها على أن تجعلك تحس بالمعنى فى نفسك تكون بلاغتها.

قلت : وهذه درجة ثانية.

قال : فأن تجعلك تنفعل بالمعنى الذى أحسسته بها. فبقدر انفعالك لها يكون سرها.

قلت : وهذه درجة ثالثة.

قال : وهل بقيت بعد ذلك مرتبة للكلمة؟!

قلت : أن تجمع ذلك كله. فتعطيك المعنى كاملاً، وتجعلك تحس به وتنفعل له وتعيش فيه، ثم تأسر نفسك حتى لكأنك جندى تحت إمرتها، وفى هذا يكون إعجازها.

قال : فأين مثل هذه الكلمة؟

قلت : وهل توجد إلا فى القرآن يُنزِل الكلمة المنزل اللائق بها، فلو كانت فى كلام غيره لوضعت حيث لا يعلم أحد سرها.

قال : أعرف أنها فى القرآن، فأين هى؟

قلت : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

هذا هو عذاب عاد قوم هود، فتأمل ﴿صَرْصَرًا﴾ هذه. أتدرى ما معناها؟

قال : الباردة العنيفة العاصفة الشديدة الصوت.

قلت : فهذا كمال المعنى، مهما حاولت وقلبت فى المعاجم لن تجد كلمة أخرى تعطيك كل هذه المعانى مجتمعة متوحدة إلا ﴿صَرْصَرًا﴾ التى جاء بها القرآن.

قال : هذه هى دقة الكلمة تحيط بالمعنى من كل جوانبه. فهذه ريح عذاب جمع الله فيها البرودة والعنف والشدة والعتو والصوت القاصف، لا يصمد أمامها شئ حتى لتقتلع الرؤوس من أجسادها.

قلت : نعم فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر .

وإعجازها أنها تعطيك المعنى كاملاً ثم لا توجد كلمة غيرها تمنحك الإحساس بهذا المعنى .

قال : كيف ؟

قلت : بصوتها .

فانظر إلى هذه الصاد المتكررة فى الكلمة فى مقاطع قصيرة متعاقبة ﴿صَرْصَراً﴾، واقرأها كما يجب أن تقرأ، وأخرجها من مكانها الصحيح فتعلم لماذا أتى بها القرآن على ندرة استخدام العرب لها، ولماذا لم يكتف بـ « صر » واحدة وهى كافية لتعطى معانى البرودة والشدة والصوت العاصف .

قال : صر صر صر صر . ص ص ص ....

قلت : فهذا الصفير هو سر إعجازها فى مكانها ومجئ القرآن بها تنقلك به من سكون بيتك إلى مسرح الأحداث العاصفة فى الصحراء، يصل أذنك صفيرها المتقطع فى الصاد تلو الصاد كصفير الريح، فتجعلك تسمع صوت الريح يمرق إلى جوار أذنك فتحس الريح فى نفسك وقد علم معناها عقلك .

قال : يالها من كلمة! إنها فعلا تعطى صفة الريح ووصفها بمعناها، وتعاقب الريح واستمرارها بتكرار مقاطعها، وتعطى صوت الريح بصوتها، فكأن موسيقى تصويرية فى صفير صاداتها .

قلت : فصوتها وحده كاف ليدلك أى ريح كانت هذه ويجعلك تعيش أحداثها . أما لو تركت الصاد إلى الراء، لرأيت الكلمة بعد أن دلتك على صفة الريح بمعناها وأسمعتك صفيرها بصوتها وأرتك استمرارها وإحاطتها بالكافرين بتعاقب مقاطعها، بعثت لك الهواء يتجمع في صفير الصاد ليندفع من الفم ريحاً، فلو وضعت أمام فمك شمعة لأطاحت بشعلتها الريح المنطلقة منه كما أطاحت الريح برؤوس قوم عاد .

قال: معنى الريح وصوتها وأثرها، إنه عرض حى. كأن القارئ وهو يقرأ فى ساحة الصحراء يحاول الهرب من هذه الريح الصرصر، وهو إن تركها حاصره صوتها واندفاعها.

قلت: فإذا توهم تفلته منها وحاول الابتعاد بأذنه عن هذا الصفير المدوى، جاءته زخات متوالية من الريح وصفيرها والهواء المندفع فيها فى السين الشديدة الوقع الحاسمة الجازمة فى ﴿ نحسٍ ﴾ و﴿ مُسْتَمِرّ ﴾.

قال: فيجد صفير الريح يحاصر أذنه من كل جهة، فيوقن أن لا مهرب منها فهى القاضية.

قلت: أرايت كيف تكون الكلمة ذات مؤثرات صوتية خاصة، تحشد نفسك فى صوتها حتى تصير أذنك هى نفسك ونفسك جندياً يأتمر بأمرها، ينفعل لها ويسير فى ركابها.

قال: مؤثرات خاصة! وأى مؤثرات؟!

قلت: وإعجاز هذه المؤثرات فى القرآن أنه يضعها لك فى مكانها، فتطابق المؤثرات الصوتية المعنى الذى يريد لك أن تعرفه وتحسه وتنفعل به. فلا يغنى عنها فى مكانها شئ، ولا تعطيك هى فى موضع كالذى تمنحه وهى فى موضعها من القرآن.

قال: إنها تحتاج إلى تقنية صوتية عالية وموسيقى تصويرية فذة تصاحب المعانى وحركة النفس معها حتى يمكن أن تحل محل هذه المؤثرات القرآنية الخاصة.

قلت: وحتى لو أمكنك الوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة من التقنية الصوتية بالآلات، فإنها حينئذ ستكون منفصلة عن المعنى، فتعطى نفسك الأثر ويفقد عقلك المعنى خلفه.

أما القرآن فإنه يدمج المعنى وأثره فى لفظة واحدة تقوم فى مكانها مقام كل ما ذكرت.

قال وهو ينهض من مكانه : هذا بديع!

قلت : أما تريد أن ترى الكلمة فى القرآن تعطيك المعنى بصورتها .

ألقى نفسه فى مكانه ثم قال مبتسماً : أخيراً انفكت عقدة لسانك من تلقاء نفسها .

قلت : فإن القرآن كما يعطيك مؤثراته الخاصة صوتية فى مقام لا يجعلك تحس المعنى وتعيش الحدث وتنفعل به إلا الصوت، فإنه يأتيك فى مقام آخر بمؤثراته الخاصة بصرية فى كلمة واحدة تمنحك المعنى بصورتها والحركة المطوية فيها، فتنقلك إلى مكان الحدث أو تنقله إليك وتجعل نفسك وعقلك ووجدانك كلها فى عينيك تتابعه فيها .

فانظر إلى قوله تعالى عن يونس عليه السلام ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٤٢]

أتعرف ما التقمه؟

قال : ابتلعه .

قلت : لا .

قال : أكله .

قلت : وهذه أيضاً لا .

قال : فماذا تكون؟

قلت : فهذا هو القرآن، لا يأتى بالكلمة أى كلمة ليعطى بها معنى والسلام، بل يأتيك بالكلمة هى الحدث . فإن ﴿ الْتَقَمَهُ ﴾ هذه معناها أن الحوت أخذ يونس عليه السلام بملء فيه، فكان يونس لقمة ملأت فم الحوت .

قال : فاللقمة من اللقم؟

قلت : واللقم هو حركة الفم لالتقاط اللقمة .

قال : فلماذا قال القرآن ﴿ فَالْتَقَمَهُ ﴾؟

قلت: لأن القرآن يريد أن يضعك فى قلب هذا المشهد، فاختار لك فيه « اللقطة » المشحونة بالحركة، المملوءة بالتوتر والإثارة، لحظة الترقب والخطر عند انتقال يونس عليه السلام من سعة البحر إلى ضيق فم الحوت.

فاختار ﴿ الْتَقَمَهُ ﴾ دون سائر الكلمات ليريك لحظة دخول يونس عليه السلام فى فم الحوت وتحرك عضلات فم الحوت وانفتاح فكه ثم انطباقه على يونس عليه السلام.

قال: فكأنه يعرض فى كلمة واحدة مشهداً حياً مليئاً بالحركة والانفعال، ويجعل المرء وهو يقرأ يتوتر ويتحفز وهو يرى أمام عينيه الحوت وهو يقترب من يونس عليه السلام ثم يفتح فمه ليكون يونس لقمة فيه ثم ينطبق عليه.

قلت: فربما قلت فى نفسك: ربما وردت هذه الكلمة وهذا التعبير على ذهن البشر فى هذا الحدث أو غيره.

قال: ربما!

قلت: أتريد أن تعرف إذن الفرق بين التعبير الإلهى وتعبير البشر فى نفس المعنى وذات الحدث؟ لمعت عيناه بالبريق وهو يقول: كيف؟

قلت: فاقرأ آخر جملة فى الإصحاح الأول من سفر يونان. التقط التوراة وراح يقلب فيها وهو يقول: لنر. يونان... يونان.

« وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ».

قلت: فها أنت ترى أنه لا يحدثك عن الحدث نفسه ولا يصفه لك، بل يصف لك ما أعده الرب ليونان. فتفهم ضمناً ابتلاع الحوت له ولا تحسه ولا تراه، فأنت قد فهمت لكنك لا ترى المشهد لأنه لايوجد مشهد، ونفسك خارج الحدث لأنه لا حدث.

قال: هنا صحيح فإنه لا يصف الحدث نفسه.

قلت: وحين أراد جاءك منه «ليبتلع»، فأنت فى مكانك، لأن يونس قد استقر فى بطن الحوت كما فهمت ضمناً وانتهى الأمر.

وإذاً فقد فاتتك «اللقطة» المثيرة والمشهد المتدفق بالحركة. فتفهم أن يونس فى بطن الحوت، ولكنك لا تحس المعنى فى نفسك، ولا تراه أمامك، ولا تشعر بالخطر يتهددك وكأنك مع يونس عليه السلام فى صراعه للأمواج تدفعه إلى فم الحوت يندفع إليه مفتوحا ليلقمه.

ها! ما رأيك فى هذه المؤثرات البصرية القرآنية التى تنطبق على معناها فتفهم المعنى بعقلك وترى الحدث ببصرك وتكون فيه بنفسك.

قال: وأى رأى؟!

لو أراد أحد أن يحاكى هذه اللقطة القرآنية فى كلمة واحدة، لاحتاج إلى آلات تصوير متعددة ومن زوايا مختلفة تقتنص فم الحوت لحظة انفتاحه وانطباقه على يونس عليه السلام. ومن ورائها مصور محترف ومخرج قدير.

قلت: أما مالا يستطيعه بشر فهو أن يجعلك تشارك فى هذا الحدث المثير وهذه الحركة المائجة بنفسك كما تجعلك ﴿التَقَمَهُ﴾.

قال: كيف؟

قلت: فلو نطقتها وتأملتها لرأيت عضلات الفم تتحرك لينفتح فى أولها حتى تصل الشفتان إلى أقصى اتساعهما فى القاف، فكأن فمك يشارك فم الحوت انفتاحه واتساعه، ثم يعود لتنغلق الشفتان وينطبق الفم فى الميم. وما بين انفتاح الفم وانطباقه دخول يونس عليه السلام فيه. فكأن القرآن ينقل صورة الحدث من فم الحوت إلى فمك.

قال: فهى تعطى المعنى وتجسده مشهداً حياً أمام العين، وتغمس المرء فيه مشاركاً فى أحداثه بحركة فمه يعيش بها حركة فم الحوت.

قلت: فأى آلات تصوير ومصور هذا الذى يجعلك ترى الحدث وتكون

جزءٌ منه مشاركاً فيه؟ وأى مخرج فى طاقته ان يدمج لك المعنى وصورته فى كلمة واحدة؟

قال: تعرف! كنت أعجب دائماً كيف ان رجلاً حديداً عنيداً جباراً كأبى جهل يفعل أفعال الصبية فيتسلل فى جوف الليل ويكمن فى القر يتسمع القرآن.

قلت: فهل ما زلت تعجب منه؟

قال: بل أراه محقاً كل الحق وله العذر فى تولهه وتدلهه. وإنما أعجب لمن لم يفعل ذلك. فإن هذا لهو السحر الحلال. سحر... وأى سحر؟!

* * *

قال مقبلاً عليَّ: إن هذا حقاً لأمر عجيب!

قلت: وما هو العجيب؟

قال: ﴿ٱلْتَقَمَهُ﴾ هذه. مازلت أتفكر فيها، وصورة الحوت تخايل عينى وفمه ينفتح وينطبق على يونس عليه السلام.

إنها «لقطة» نادرة!

قلت: فالقرآن أتى لك بها فى كلمة واحدة وجعلك لا ترى بها الحدث فقط بل تشارك فيه.

قال: والأعجب هذا الصفير الذى يضع المرء فى قلب الريح العاصفة تصفر فى أذنيه.

قلت: لا عجب مع القرآن، فأنت فيه مع العليم الخبير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قال: تعرف! ساورنى الشك فى أن هذا الصفير المتوالى فى السينات مع الصادات تتدافع منه زخات الريح ربما كان مصادفة فى هذه الآية.

قلت: ليس فى القرآن مصادفات، بل إحكام وتفصيل من لدن حكيم خبير.

قال: ذلك ما ساورنى حتى أخرجت الآيات التى تصف هذه الريح المهلكة العاتية فأيقنت بإعجاز القرآن يضع هذه المؤثرات الصوتية مقصودة فى مكانها.

قلت: فماذا وجدت؟

قال: ما وجدت من آية تصف الهلاك فى ريح عاد وأثرها فيهم إلا وفيها هذا الصفير المتقطع المتتابع وهذه الزخات المتوالية من القصف.

ففى آية فصلت: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٦].

وفى آية القمر: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: ١٩].

وفى آية الحاقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

تتغير الكلمات ما تتغير وتبقى الصادات والسينات المتدافعة المتعاقبة وصفيرها وريحها.

قلت: إذا فقد تيقنت أن القرآن يضع لك الألفاظ تصف الأحداث وتضعك فيها.

قال: إن هذا الإمتاع والدقة ومطابقة الكلمة للحدث تجعلنى لا أدرى حقاً القرآن يضع الكلمات ليصف الأحداث بمعانيها وأصواتها وصورها أم أن هذه الأحداث والمعانى هى التى تقع لتكون كما جاء بها القرآن.

قلت: بل هما معاً.

قال: نعم هنا هو الحل والتفسير الوحيد، هما معا فخالق هذه هو منزل ذاك. الآن قل لى، فإن عجائب هذه الكلمات كادت تنسينى ما أردت سؤالك عنه. ألم تقل لى من قبل: إن القرآن يأتى بالحروف تتعاقب فى الكلمة فى سهولة، فاللسان يتدفق بينها فى رفق وسيولة؟

قلت : بلى قلت هذا .

قال : فقد واجهتنى كلمة وأنا أقرأ لم أر أثقل منها في لسانى، فإنه لينطقها وكأنه مشدود بثقل ينتزع منه حركته ليخرج الحروف انتزاعاً .

قلت : وما هي هذه الكلمة الثقيلة؟

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [التوبة : ٣٨] . فإن ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ هذه ثقيلة فى اللسان حتى لكأنه مقيد فى أطراف الأسنان ينتزع نفسه منها انتزاعاً .

قلت مبتسماً : كعهدى بك لا تزال تبحث وتنقب حتى تقع ببحثك وتنقيبك على وجه جديد من إعجاز الكلمة فى القرآن مضئ .

قال مستغرباً : وهل ثقل الكلمة فى اللسان إعجاز؟

قلت : وأى إعجاز! فقل لى : ما هو معنى ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ الثقيلة على اللسان هذه؟

قال : قد بحثت عن معناها فوجدته : تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم .

قلت : فلماذا ترك القرآن تثاقلتم اليسيرة التى يطير بها اللسان إلى ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ التى يشد تاليها لسانه فيها شداً؟

قال : وهذه تفكرت فيها وبحثت عنها فلم أجد لها سبباً، فـ ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ هى تثاقلتم فى معناها، وليست بالتى تعطى صوتاً يصف الحدث ولا بالتى تثير صورة . فهى لا تزيد عنها شيئاً اللهم إلا ثقلها .

قلت : فثقلها هو سر نحت القرآن لها يكون إعجازه بها، ولا يرد على البشر إلا تثاقلتم نظيرتها الخفية .

قال : فإعجازها هو هذا الثقل؟!

قلت : تماماً . فكما أن القرآن يضع لك الكلمة فى موضع تسكب المعنى فى نفسك وتنقلك إلى مسرح الأحداث بأذنيك، ويأتى لك بأخرى تنفذ إليك

وتضعك فى الحدث بعينيك، يأتيك بالكلمة تحس بها المعنى ويتسرب إلى نفسك من لسانك؟

قال: كيف؟

قلت: الآية تصف تثاقل بعض المؤمنين عن الجهاد وثقله عليهم. فإذا أمروا به قاموا خائرى العزم ذاهبى الهمة، تشدهم أثقال الأرض وجواذبها فينتزعون أجسادهم منها بجهد جهيد، فما تفلت أجسادهم من الأرض إلا بشدة ومشقة وبعد لأى وعنت.

قال: آه! فاختار القرآن ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ ليشد اللسان بها إلى الأسنان فلا ينتزع نفسه منها إلا بجهد جهيد ولا يفلت إلا بعد لأى ومشقة.

قلت: وبهذا يجعلك القرآن تفهم المعنى وهو أنهم متثاقلون مشدودون إلى الأرض تمسكهم عن أمر السماء، ثم مع فهمك للمعنى تحسه فى نفسك بثقل الكلمة التى تعبر عنه فى لسانك وانطباق عسر حركة اللسان فيها مع عسر حركة أجسامهم.

قال: فإذا كانت ﴿ صَرْصَراً ﴾ ذات مؤثرات صوتية، و﴿ الْتَقَمَهُ ﴾ تثير مؤثرات بصرية، فـ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ تخترق بالمعنى النفس من مؤثراتها اللسانية.

قلت: وإن سر هذه الكلمة لفى هذه الثاء المشددة. فإن الثاء تخرج من تلامس طرف اللسان وانطباقه مع أطراف الثنايا العليا، فجاءك القرآن بـ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ مشددة الثاء لتقف رغماً عنك عليها، فيزيد زمن تلامس اللسان مع الأسنان فتنساب إلى نفسك من لسانك أجساد المتثاقلين تلتصق بالأرض التصاق اللسان بالأسنان ونفوسهم تتمنى سكون الزمن لا يتحرك هو حتى لا تتحرك هى.

قال: إن هذا الاختيار والصيغة للكلمات لعجيب! فكأن الكلمة ليست معنى تؤديه فقط، وإنما هى معنى وقوة قاهرة تحمل هذا المعنى إلى النفس.

قلت: والإعجاز أنها قوة خفية تمتزج بالمعنى فلا تستطيع أن تفصلها عنه،

بل لا تفطن لها إلا بعد جهد جهيد . فإذا كان القرآن يحدثك عن أصوات جاءك بالكلمة تسمعك إياها، وإذا كان يصف لك حدثاً أتاك بالكلمة تجسده مشهداً أمامك، وإذا كان يعبر لك عن حركة فى خفتها ونشاطها أو ثقلها وبطئها أجرى لسانك أو قيده على قدر ما فى المعنى من الحركة : إن نشطت نشط، وإن ثقلت ثقل.

قال : أتعرف ما الذى أتفكر فيه الآن؟

قلت : ماذا؟

قال : لو أن بشراً أراد أن يحاكى القرآن فى جملة من جمله لكان عليه أن يتصور المعنى أولاً من كل جوانبه، ثم يضع أمامه المعاجم وينقب فيها ليجد الكلمة تصف المعنى على حقيقته وتحيط به فلا يخرج عنها.

قلت : وهل هذا يكفى؟

قال : انتظر! ثم بعد ذلك يحتاج للتنقيب ليخرج من الكلمات ما يتناسق مع هذه الكلمة ويتجانس معها.

قلت : وهذا أيضاً إن استطاعه لا يكفى.

قال : ثم بعد ذلك لابد له من أن يقلب المعنى الذى يريده من كل وجه ويصنفه أهو سمعى أم بصرى أم نفسى أم حركى ولسانى، ثم يختار من بين الكلمات التى انتقاها الكلمة التى هى أليق بتجسيد هذا المعنى صوتاً أو صورة أو حركة أو أثراً. ثم...

قلت مبتسماً : وماذا يفعل بعد ذلك؟

قال وهو يعبث فى رأسه : ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

أراه سيقع فى حيرة شديدة واضطراب لاحد له لكى يوفق بين هذه جميعاً، فلا أعرف كيف سيختار الكلمة فيجعلها دقيقة فى معناها، وفى الوقت نفسه متجانسة مع جاراتها، وأيضا تغزو النفس بصورتها أو بصوتها أو حركتها.

إن الأمر ليبدو أشبه بالمتاهة الشديدة العسر، لا يملك المرء إلا أن يقف أمامها حائراً لا يتقدم ولا يتأخر.

فهو إن أوفى بوجه أخل بالثانى، وإن أراد أن يفى بالثانى اختل الثالث، وإن أوفى بها جميعاً فلا أعرف كيف يجمعها جميعاً فى كلمة واحدة.

قلت: وكل ما تقول فى جملة واحدة. فكيف بك بمن أراد محاكاة الآيات والسور؟

قال: محاكاة الآيات والسور؟!

إن دون ذلك كما كانوا يقولون خرط القتاد.

ثم أطرق إلى الأرض فى شرود وهمس كأنه يكلم نفسه: على أنى سأحاول؟

قلت: ماذا؟

انتبه من شروده وقام مندفعاً وهو يقول: لا شئ. لا شئ.

* * *



آيـــات القـــرآن

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

[هود: ١]

قلت: ماذا تفعل؟

قال: أفكر.

قلت وأنا أجلس: وفيم تفكر؟

قال: فى آيات القرآن.

قلت وأنا أقلب فى الكتب المتناثرة أمامى: دواوين شعر، كتب أمثال وحكم، قصص، خطب وأسفار التوراة والإنجيل.

قلت: ما كل هذا؟

قال: ما إن تركتك المرة الماضية حتى قفزت إلى عقلى فكرة مثيرة.

قلت مبتسماً: فكرة مثيرة! ياللهول!!

قال: إن آيات القرآن وجمله قائمة على الميزان الدقيق والاختيار المتناسق للكلمات فى كل شىء: المعنى والإيحاء والأثر والصوت والصورة واللسان والحركة فيه.

قلت: أهذه هى فكرتك المثيرة؟

قال: لا تتعجل! إن الفكرة المثيرة التى هبطت على هى: لماذا لا أحاول أن أقلد القرآن ولو فى جملة واحدة؟

قلت: تقلد القرآن؟!!

قال: نعم. جملة واحدة أتخير كلماتها وأنسقها وأوازن بينها وأخبرها تخبيراً وأزينها تزييناً.

قلت ساخراً: فأين هى هذه الجملة أيها العبقرى الفلتة؟ أرنيها لأعرف إلى أين وصلت؟

قال: هذه هى المسألة، فأنا لم أصل إلى شىء لأننى لم أبدأ قط.

قلت: وما الذى منعك أن تحاول؟

قال : ومن قال إنى لم أحاول؟! قلت : افتح المصحف على أى صفحة واقلد أول آية تقع عليها عيناى. وفعلت.

قلت : وجئت بالمعاجم فانتقيت وتخيرت وحبرت وزينت.

قال : بل لم أفعل شيئاً. فقد أحسست وأنا أقرأ الآية كأن أسواراً شاهقة وجدراً محصنة تعزل الآية عنى فلا أستطيع الوصول إليها.

قلت : فهمدت وسكت!

قال : بل قلت أجرب مرة أخرى. فانتقلت إلى آية ثانية وثالثة وعاشرة وفى كل مرة ينتابنى الشعور نفسه هو هو لا يتغير.

قلت : بينك وبين الآية حاجز لا تستطيع أن تعبره.

قال : أما الذى أعيانى وأضنانى ولم أكشف له سراً : أين هو هذا الحاجز بالضبط. فى الكلمات.. فى التناسق والترتيب؟

لا. ليس شيئاً من هذا.

قلت : لم لا يكون كل هذا؟

قال : لأنى رأيت هذا الحاجز فى نفسى وحجبتنى هذه الأسوار وأنا أقرأ الآية وأرددها قبل أن أنظر دقتها وتناسقها، بل قبل أن أحدد بالضبط معنى كلماتها.

قلت ساخراً : وكانت هذه هى نهاية فكرتك المثيرة!

قال : بل قلت : أحاول بطريقة أخرى لعلّى أضع يدى على هذا الحاجز فأتمكن من مجاوزته.

قلت : ها!

قال : فأتيت بباقة من عيون الشعر ومحكم الأمثال وبليغ الخطب وبالتوراة والأناجيل، وتخيرت منها الجميل والبديع والبليغ، ووضعتها جنباً إلى جنب فوجدتها رائعة مضيئة.

قلت : أرأيت فيها شيئاً كمثل آيات القرآن؟

قال: بل ما إن وضعت القرآن إلى جوارها حتى غاض بريقها وذهبت روعتها وازداد شأن آيات القرآن فى نفسى غموضاً. فقد كنت أحس حاجزاً بينى وبين الآيات وأنا أنظر إليها وحدها، وكنت أرجو أن أضع يدى عليه إذا وضعتها إلى جوار غيرها. فإذا به يستحيل بحراً شاسعاً لا أول له ولا آخر ولا أعرف فيه لجة من ساحل.

قلت: فجربت طريقة ثالثة.

قال: بل أيقنت بعجزى.

قلت: أتريد أن تعرف سر هذا الحاجز فى الآيات؟

قال متلهفاً: وهل تعرفه؟

قلت: ظاهر أمامك!!

قال: ظاهر أمامى؟!

قلت: وخفى!

قال: وخفى أيضاً! هل هو لغز؟

قلت: بل هو ظاهر وباطن.

قال: فابدأ بالظاهر أولاً.

قلت: الظاهر أولاً:

لو وضعت كل ما ذكرت من شعر وخطب وتوراة وأناجيل إلى جوار القرآن دون أن تفكر ولا تتأمل ولا تحار لرأيت فارقاً لا يخطئه عقل ولا عين.

قال: أهو واضح إلى هذه الدرجة؟

قلت: نعم. ففى كل هذه الذى يتكلم بشر.

قال: أه! بشر

قلت: نعم بشر ينشىء بيتاً أو قصيدة فتراه يعبر لك عن نفسه أو مشاعره (ذهبت، رأيت) أو يصف لك مشهداً أو يأمرك أو ينهاك (قام، انطلق، افعل).

قال: صحيح. وكذلك الخطب.

قلت: وكذلك التوراة والأناجيل. فكاتب بشر هو الذى يحكى لك فى التوراة: فى البدء خلق الله.. وعاد إبراهيم.. وخرج موسى وهارون.. وقال الرب لموسى.. ومات موسى؟

وبشر هو الذى يحكى ويروى فى الأناجيل: ولما ولد يسوع.. وفى تلك الأيام جاء يوحنا.. ولما قربوا من أورشليم.. وقال يسوع.. ولما صلبوا يسوع.

قال وهو يطرق على جبهته: كيف غاب عنى هذا؟

نعم بشر هو الذى يتكلم ويقول ويصف ويأمر وينهى.

قلت: ولأنه بشر وأنت بشر فلا حاجز بينك وبينه، كلامه ككلامك وإن خالفته فى معانيه، وأسلوبه كأسلوبك وإن رفضت ما يرويه، وصياغته للجمل والعبارات كصياغات البشر وإن لم يكونوا من معتقديه.

وأما القرآن....

قال: وأما القرآن فهو ليس من كلام البشر.

قلت: نعم ليس من كلام البشر. فالذى يخاطبك فى القرآن ويخاطب الناس جميعاً هو الله عز وجل مباشرة دون واسطة ولا راوٍ يروى عنه عز جل ولا واصف يصف لك ماذا قال الله عز وجل وماذا حدث وماذا سيحدث وماذا يريد منك. هو سبحانه وتعالى الذى يتكلم وهو الذى يصف وهو الذى يحكم وهو الذى يأمر وينهى. فالخطاب فى القرآن صادر عن الذات الإلهية مباشرة.

فإذا خاطب القرآن: ﴿**يأيها الناس**﴾... ﴿**يأيها الذين أمنوا**﴾... ﴿**ياعبادى**﴾... ﴿**يأيها النبى**﴾، فالله هو الذى يخاطب وينادى.

وإذا وصف وإذا قص: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص**﴾... ﴿**نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون**﴾، فالله هو الذى يصف ويقص.

وإذا حكم: ﴿**ذلكم حكم الله**﴾، فالله هو الذى يحكم.

وإذا أمر أو نهى: ﴿**وأقيموا الصلاة**﴾.. ﴿**وءاتوا الذكاة**﴾.. ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب**﴾، فالله هو الذى يأمر وينهى مباشرة.

لا يقول لك النبى عليه الصلاة والسلام: قال الله كذا، ولا أخبرنى الله بكذا، ولا أمرنى بهذا، أو نهانى عن ذلك. بل ينقل نص كلام الله كما هو بلفظه وحروفه دون تعديل ولا مقدمات ولا اختصار ولا استطراد ولا صياغة منه عليه الصلاة والسلام.

وينبهك الله عز وجل فى القرآن أن النبى عليه الصلاة والسلام لا يملك التغيير فى القرآن ولا يستطيعه: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

قال: فذلك هو سر مفارقة آيات القرآن لغيره من الكلام شعراً ونثراً، وسر هذا الحاجز المانع الذى يحسه المرء أمام هذه الآيات فتبدو سهلة مستحيلة، قريبة وبعيدة المنال فى آن واحد.

قلت: فلأن الذى يحدثك فى غير القرآن بشر فتعبيراته مألوفة لأن معانيها تخرج من نفس كنفسك، وصياغته للكلمات والعبارات مأنوسة، والقوالب التى يضع فيها المعانى تعرفها ولا تنكرها لأن الذى يصوغها ويختار لها القوالب عقل كعقول البشر.

قال: ولذلك يجد البليغ فى نفسه القدرة على تقليدها والسير على نهجها ومحاكاتها. فهذه صيغة البشر وتراكيب البشر تختلف ما تختلف وتتباين ما تتباين ويجمعها الإطار الذى يجمع البشر.

قلت: تماماً كما تتباين وتختلف أشكال البشر وألوانهم، ولكنك مع ذلك لا تخطىء أنت ولا غيرك نسبة بشر إلى البشر.

قال: الآن فهمت سر غرابة آيات القرآن وعباراته.

قلت: لأن الذى قالها هو رب البشر.

فهى غريبة فى صياغتها وتراكيبها وترتيبها، غير مألوفة فى عقلك ولا مأنوسة فى نفسك، ولا تسرى عليها القواعد التى يتكلم بها البشر ويكتبون، ولا تشبه فى نظمها وصياغتها وتشكيلها الذى يصوغون به ويشكلون.

قال: هذا يفسر كل شيء. فهى يسيرة قريبة بأمر الله أودعه فيها، وهى عسيرة بعيدة بعجز وقصور البشر.

قلت: ولذلك لم يستطع أحد قبلك، ولا يستطيع أحد بعدك أن يقلد القرآن ولو فى آية واحدة أو جملة واحدة لأن البشر لا يرتفع مهما امتد الزمان ومر إلى مقام الألوهية، ولا يخرج ما يقوله مهما حاول عن أساليب وصياغات البشر.

ومن يحاول فلن يخرج عن أمر من اثنين: إما الإحساس بالعجز والقصور يرده إلى حقيقته ويعرفه مقامه ومقدار عقله ونفسه، وذلك هو السعيد. وإما أن يجرب فيأتى بالسفاهة ويصبح ما جاء به وصمة يوصم بها وعَلماً على سفاهته وحمقه أبد الدهر.

قال هامساً: هذا هو السر والحاجز. التنسيق الإلهى للكلمات والصياغة الربانية للتراكيب والعبارات، والكلام صادر عن الله عز وجل مباشرة لا على لسان راو يروى ولا حاك يحكى.

ثم انتفض فجأة وهو يضرب جبهته بكفه وقال: كدت أنسى!! التراكيب والصياغات والتنسيق الإلهى والخطاب الربانى.. هذا هو الظاهر فى الحاجز والمانع فأين جانبه الخفى؟

قلت: الروح.

قال: الروح؟!

قلت: نعم الروح فى عبارات القرآن وآياته تجعله حياً تعرف فيه روح الله عز وجل.

قال: وهل كلام البشر ميت؟

قلت: بل هو كصنعة البشر. قد ترى فيه الحركة، وقد تعرف فيه الإبداع والجودة لكنك لا تحتاج إلى من يعرفك خلوه من الروح وإن تحرك وتكلم.

قال: فأنا أريد أن أضع يدى على هذه الروح فى آيات القرآن.

قلت: إن استطعت أن تضع يدك على روحك فى جسدك تمنحك الحياة استطعت أن تضعها على روح القرآن فيها حياة الكلام. وهذا ما لا سبيل لك ولا لأحد إليه.

فهذه هى التى قال فيها صاحبها والعليم بها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

قال: إن ما قلته هو الحقيقة الواقعة.

قلت: اجلس أولاً والتقط أنفاسك وقل لى: ما هى هذه الحقيقة الواقعة؟

جلس ثم قال: غرابة التراكيب والعبارات القرآنية وعجائب آياته.

قلت: هذه تراكيب وصياغات إلهية، وعبارات وآيات ربانية. ولأنك بشر فلابد أن تكون غريبة عليك. أو كنت فى شك مما ذكرته لك؟

قال: لا. وإنما عدت إلى العبارات والآيات أتاملها فوجدتها غريبة، بل شديدة الغرابة وليست سهلة كما تبدو لأول وهلة. والأغرب أنه كلما تأملتها ازدادت غرابتها.

قلت: هذا إعجاز من الإعجاز. تعطيك الآيات قدر ما تملك من العقل، فلا تعسر ولا تتبذل أياً كان مقدار عقلك.

قال: إنى أتامل الآية فأجد فيها أشياء محذوفة لا أفطن لحذفها إلا بعد لأى، وهى مع هذا الحذف مبينة متناسقة ولا تحس أن فيها محذوفاً.

وجربت أن أستغنى عما استغنى عنه القرآن من أمثال هذه المحذوفات وأنا أكتب فلم يخرج إلا كلام مهلهل، ولم تلتئم على لسانى ولا استقامت على قلمى

جملة واحدة. وفى كل مرة أجدنى مضطراً إلى استخدام ما حذفه القرآن ليكون الكلام مفهوماً.

قلت: عدت إلى المستحيل. أما قلت لك لن تستطيع تقليد القرآن. إلا إذا كنت تريد دخول التاريخ من باب السفاهة.

قال: لا تقطع علىَّ الطريق هكذا. فأنا مذهول وأريد أن أفضفض بما فى نفسى.

قلت مبتسماً: فضفض إذاً كما تشاء.

قال: وقد أجد الآية فيها أشياء مقدمة وأخرى مؤخرة لا أعرف كيف قدمت ولا كيف أخرت. فالآية تبدو بلا تقديم فيها ولا تأخير، وقد حاولت أن أعيد ترتيب الآية لأقدم المؤخر وأؤخر المقدم فلم أفلح.

أما الأعجب والذى كاد يذهب عقلى أن أنظر إلى الآية فأجدها أمامى مفهومة يسيرة موجزة قصيرة، ثم أعود إليها فأجدها تبدو فى عقلى ضخمة كبيرة، ثم أعود إليها فتختلط على فلا أعرف أهى موجزة قصيرة أم ضخمة كبيرة حتى كدت أتهم عقلى وأحس بالخبال.

قلت: ها! هل انتهيت من الفضفضة؟

قال متنهداً: انتهيت.

قلت: أتعرف ما الذى أوقعك فى كل هذه الحيرة والذهول؟

قال متلهفاً: ماذا ؟!

قلت: أنك مازلت تفكر فى القرآن الإلهى بمقاييس الكلام البشرى، إما وإما.

قال: إما وإما؟!

قلت: هذه مقاييس البشر وأساليبهم، إما أن يكون الكلام موجزاً وإما أن يكون مطنباً، إما أن يكون كاملاً أو أن يكون محذوفاً منه، إما أن تفهمه

بالبديهة أو أن تفهمه بالتأمل، إما أن يخاطب عقلك فيقنعك أو أن يخاطب نفسك ووجدانك فيمتعك، إما أن تربطه بالحروف والكلمات وجمل الحشو أو أن يصير مهلهلاً لا معنى له.

قال: إما وإما. فهمت.. لكن هل يكون الكلام إلا إما وإما؟

قلت: هذه هى القوانين التى تحكم كلام البشر.

وكما أن الله عز وجل وضع القوانين والنواميس للكون والبشر وهى لا تحد قدرته ولا تقيد طلاقتها يخرقها عز وجل متى شاء أنى شاء على أى وجه شاء، فكذلك هو عز وجل لا تحد كلامه قوانين الشر، هم يتقيدون - رغماً عنهم - بها وهو يعلو عليها،، كلامهم يصدر عنها وكلامه عز وجل يخرقها.

رفع رأسه كأنه يفيق من غفوة ثم قال كأنه يحدث نفسه: حقاً! لو كان كلام الله يتبع قوانين البشر ويخضع لها فأين كانت ستكون المعجزة؟ يالغبائى!

قلت: بل إنك ذكى لامع!! فأنت تفطن إلى ما يمر على كثيرين لا يفطنون إليه ولا يشعرون به.

قال: فأريد أن أفهم السر فى هذه الآيات العجيبة.

قلت: سنحاول خطوة خطوة.

قال: فأين الخطوة الأولى؟.

قلت: إن حروف القرآن وكلماته دقيقة فى نفسها وبين أخواتها.

قال: فذلك قلناه من قبل.

قلت: فآيات القرآن هى السبيكة التى تمتزج فيها هذه الحروف والكلمات لتعطيك تناسقاً وتجانساً لا تفاوت فيه، وإحكاماً وانتظاماً لا خلل فيه.

قال: فهل يصل التناسق والانسجام والإحكام والانتظام إلى أن تقصر عنه عقول كل البشر؟

قلت: فاحكم أنت بنفسك. انظر إلى قوله تعالى فى سورة العنكبوت:

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠].

قال : هذه مصارع المستكبرين. تعرف! هذه هى الآية التى كادت تُذهب عقلى حين نظرت إليها لأول مرة فرأيتها موجزة، ثم عدت إليها فرأيتها ضخمة كبيرة، ثم اختلطت على فلم أعد أدرى أموجزة أم كبيرة.

قلت : بل هما معاً، فهى موجزة بألفاظها كبيرة هائلة بما فيها من معان وأحداث، ففى أربع جمل خاطفة جمع لك مصائر أربعة من الأقوام الظالمة، وفى كل مصير كارثة كونية.

لكن انتظر ولا تستدرجنى فنحن الآن فى التناسق والانسجام.

قال : فليكن!

قلت : لو تأملت الآية لرأيتها جاءت بترتيب مصارع الظالمين بترتيب ورود الأقوام الذين نزل فيهم العذاب فى الآيات السابقة لها. فاقرأ من سورة العنكبوت.

قال : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم... ﴾ [العنكبوت : ٣٨ - ٤٠].

قلت : فها أنت ترى أن الآيات رتبت الأقوام ترتيباً تاريخياً حسب مجيئهم من الأقدم إلى الأحدث، ثم جاءت بمصائرهم وعذاب الله فيهم مرتبة على نفس ترتيب ذكرهم، لكل قوم عذابهم. فلعاد الحاصب، ولثمود الصيحة، ولقارون الخسف، ولفرعون وهامان الغرق(*).

(*) ذهبت كثير من التفاسير إلى أن المصائر المذكورة عامة وليست مخصصة بالأقوام المذكورة فى الآيات السابقة وعلى ذلك قالت (الكشاف، القرطبى، ابن كثير) : إن الحصباء لقوم=

قال: إن ما تقوله صحيح، فالعذاب مرتب ترتيب ذكر من نزل بهم، وإنه لتناسق محكم وتجانس بديع.

ثم خفت صوته ونظر إلى بطرف عينه وقال: ولكن عقول البشر لا تقصر عن هذا، فهو شيء مقدور عليه. إذا كتبت عن أقوام متتابعة رتبت مصائرهم ترتيب تتابعهم فيحدث التناسق والانسجام منى ولو لم أقصده.

يكفى أن أتتبع التاريخ فى كلٍ.

قلت: فهذه ليست كتابة ولكنه كلام يتلى دون سابق إعداد أو بحث أو تجهيز.

قال: ولو!

قلت: فأما الذى يُعجز البشر ولا تصل إليه أفهامهم هو أن يكون داخل التناسق تناسق، وفى كنف الانسجام انسجام، وفى جوف الترتيب ترتيب لا يتضارب هذا مع ذاك. وقد يذهل عقلك بالظاهر منه عن الخفى فيه.

قال: تناسق وانسجام وترتيب آخر؟!

قلت: نعم، فلو تأملت هذه المصارع المرتبة حسب ترتيب ذكر أقوامها لرأيت فيها ترتيباً وتناسقاً بديعاً آخر يبدأ من السماء ليحط على الأرض ثم يغور بها لينتهى فى أعماق البحر.

قال وهو يعبث بشعره: أرسلنا.. حاصبا.. الصيحة.. خسفنا.. أغرقنا..

= لوط والصيحة لعاد وثمود معاً والخسف لقارون والغرق لقوم نوح وقوم فرعون معه. ولكنى تابعت الأستاذ سيد قطب فى تخصيص هذه المصائر بالأقوام المذكورة إجمالاً فى الآيتين السابقتين ويدل عليه:

أولاً: الترتيب نفسه الوارد على ترتيب ذكر القرآن لهذه الأقوام.

ثانياً: أن مصير قوم لوط مذكور فى الآية الخاصة بهم ﴿**إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾ وكذلك مصير قوم شعيب ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ فلا حاجة لذكر مصائرهم مرة أخرى فى نفس السياق. لذا فالمصائر والعذاب المذكور هو للأقوام المتتابعة المجملة «عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان».

قلت: ألم اقل لك إنك ذكى المعى.

قال: ذكى المعى؟! أنا لم أفهم شيئاً بعد.

قلت: إن أول مرتبة فى العذاب فى الآية تبدأ من السماء: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، ثم الثانية على الأرض: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾، ثم المرتبة الثالثة العذاب يغور بالأرض: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾، ليستقر فى الرابعة فى أعماق البحر: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾.

قال مستغرباً: فهذا العذاب المختلف عذاب واحد؟!

قلت: بل يرسمه لك القرآن وكأنه عذاب واحد فى مراحل متتابعة من السماء إلى الأرض، ثم فيها إلى أعماق الماء ليعرفك به وحدة مصدره، ووحدة اتجاهه، وقانونه الواحد فى الظالمين لا يتخلف.

قال: الترتيب والتناسق حسب الزمان، وترتيب وتناسق خفى حسب المكان.

قلت: وهذا فى بطن ذاك.

قال: لا أعرف كيف أستوعب اجتماع الاثنين معاً. قل لى: هل هذا معقول؟

قلت: ماذا؟ ما هو هذا المعقول أو اللامعقول؟

قال: إن هذه أحداث حدثت والقرآن يصفها، وترتيبها الزمنى طبيعى فهذا هو ترتيب حدوثها، ولكن الترتيب الآخر واتفاق الاثنين معاً!! لا يمكن أن يُفهم إلا أن يكون القرآن يصف الأحداث ويرتبها وينسقها كيف يشاء، ثم تأتى الأحداث فى الزمان والمكان مرتبة كما أراد وصفها هو أولاً.

قلت: إنه لمعنى بديع.

قال: لا حل لهذا اللغز إلا هكذا، فلو أن ثمود سبقت عاداً فى الزمان، أو سبق فرعون ثمود لجاء ترتيب العذاب بغير ما جاء. ولو جاء بغير ما جاء لكان

متجانساً مع الترتيب الزمانى ومخالفا للترتيب المكانى. فلكى يكون التجانس من الجهتين لابد أن تكون الأحداث والتواريخ كما هى.

ثم مال إلى الوراء وتنهد بعمق ثم قال: إنى أحس برعدة هائلة، يالهول المعنى المخبوء فى هذا الترتيب والتناسق! إن كلمات القرآن وآياته هى قدر الزمان وأحداثه.

قلت: والمهم أن قد رأيت بنفسك التناسق والتجانس من كل وجه وبما لا يحيط به عقل، لا تشذ عن ذلك آية، فما من آية إلا وكلماتها مترابطة محكمة تتساند لتعطيك المعنى المطلوب. فلو حاولت ان تحذف كلمة، أو تبدل بها غيرها، أو تقدم أو تؤخر لو جدت نسيج الآية يتفكك فى يدك ويستحيل خيوطاً واهية لا يمكنك ان تجمعها مرة أخرى إلا كما هى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

قال: إنها آية يسيرة سلسة، ولطالما مررت عليها ولم يستوقفنى فيها شىء غريب اللهم إلا معجزة الإسراء نفسها.

قلت: وهذا هو عين الإعجاز، فلأن الآية سبيكة واحدة تمر عليها عينك ولا تصطدم بشىء يستوقفها أو يعوق انسيابها. وإنما تناسق تام وانسجام كامل للألفاظ مع معناها.

قال: كيف؟

قلت: الآية جاءت – كما قلت – لبيان معجزة الإسراء وتاكيد حدوثها بقدرة الله عز وجل لا بقدرة النبى عليه الصلاة والسلام الذى تحكمه قوانين البشر.

قال: فهذه أعرفها.

قلت: أما الذى يذهب إلى النفس ويتسلل خلالها فى يسر دون أن تفطن إليه فهو أن كل كلمة فى الآية موجودة أو محذوفة تعطى هذا المعنى، فكأنها قطرات من السماء تتجمع لتعطيك رقراقاً عذباً صافياً من الماء.

قال: دائماً تشوقنى وتقف!

قلت: بدأت الآية بـ﴿ سُبْحَانَ ﴾، فوضعت لك بذلك عَلماً على الطريق الذى سوف تسير فيه، فهى عنوان لكل ما سيأتى بعدها ليس لك إلا أن تفهمه فى ضوئها.

قال: فهذه تنزيه لله عز وجل وإعلاء له وتمجيد لقدرة الله. وهذا العَلم يعنى أننا نسير فى طريق يقاس كل ما سنلاقيه فيه بقدرة الله لا بضعف الخلق.

قلت: فإذا تركت العلم الذى دلك على الطريق الذى ستسير فيه جاءك بعلامة أولى على الطريق: ﴿ الَّذِي ﴾، فلم يأتك بلفظ الجلالة «الله» صريحا؛ لينبهك بهذه الإشارة إلى أن ما سيخبرك به ليس معجزة تراها شهوداً ومعاينة، وإنما هو غيب تؤمن به إخباراً وتصديقاً.

قال: فأخفى لفظ الجلالة علامة على أن ما يخبر به غيب خفى لا مشهود جلى، إذاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي ﴾ هذا علم وهذه علامة.. ثم.

قلت: ثم انطلقت المسيرة فبيَّن لك من أين تأتى طاقة السير.

قال: ﴿ أَسْرَى ﴾، فليس محمد عليه الصلاة والسلام هو الذى سرى.

قلت: نعم. بل بقوته وطلاقة قدرته سبحانه الذى نصب لك العلم ووضع العلامة لتستحضرها وتصحبها معك فى مسيرتك داخل الآية.

قال: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾؟

قلت: الباء أولاً.

قال: وهل الباء وحدها لها معنى؟

قلت: وأى معنى؟! العلم والعلامة تريك يد القدرة والجلال، والباء لعبده جناح الرفق والحنان.

قال: جناح الرفق والحنان؟!

قلت: الباء تعطى معنى الإلصاق والمصاحبة والرعاية والعناية عن قرب. فجاءك بها لتعلم أنه عز وجل كان رفيقاً طوال المسيرة - برحمته ورعايته - لعبده، وعبده آمن فى صحبة ربه.

فلم يقل أسرى عبده حتي لا يتوهم أحد من علم القدرة والجلال أنه عز وجل أسرى عبده عقاباً، أو نفياً، أو تركه يعالج سرعة الانتقال ويعانى متاعب المسيرة ومشاق الطريق، أو تركه دون صحبة ورفقة تؤنسه.

قال: ونعم الصحبة والرفقة! فلماذا لم يقل النبى أو الرسول ليشرفه عليه الصلاة والسلام؟

قلت: ذلك تفكير بعقل البشر القاصر، فليس هذا مقام وحى ونبوة، ولا مقام تبليغ ورسالة. وإنما هو مقام خصوصية وصلة فريدة بين الرب وعبده. فوصفه بالوصف الذى استحق به هذه المنزلة وهذه الرحلة المصحوب فيها برعاية الله وعنايته.

قال: ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾.

قلت: نعم، فهو قد نال هذه الرحلة وهذه الرفقة بهذه المرتبة العليا، العبودية الخالصة لله عز وجل وأداؤه لحقها الكامل فهى صفة وسبب ثم هى دليل.

قال: دليل على ماذا؟

قلت: دليل على الإسراء، فهو عبد الله، لم يسر هو ولم يذهب ولم يجىء، بل أسرى به الذى هو عبد له.

قال: وهو الذى العلم والعلامة قائمين منصوبين يذكران دائماً بقدرته.

قلت: فوسمه ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ التى تريك رقة حالة واقتقاره إلى ربه ليعرفك أنه لم يكن ليسرى وهذه صفته فى جانب ربه وإنما أسراه هو بها.

قال: أليس أسرى وسرى معناها السير ليلاً؟

قلت : بلى .

قال : إذا فـ﴿ لَيْلاً ﴾ هذه زائدة . إذ ما فائدتها ومعناها موجود؟

قلت : ومع ذلك فوجودها فى الموضع الذى يظن البشر كما ظننت ألا فائدة لها فيه هو سر الإعجاز، والفارق بين قصور عقولهم وإحاطة الإعجاز الإلهى . أولاً . . .

قال : أولاً؟! وهل هذه فيها أعداد أخرى؟!

قلت : فتلك هى الدرر الإلهية لا ينفذ معناها .

أولاً : لو لم يقل ﴿ لَيْلاً ﴾ لتوهمت أن الإسراء استغرق الليل كله، لأن الإسراء – كما قلت – السير ليلاً، أو أنه بدأ ليلاً ولم ينته فيه . فجاءك بها ليعرفك أن المسيرة – بقدرة الله – لم تستغرق إلا يسيراً من الليل بدأت فيه وانتهت فيه . فجعلها بذلك راية تذكرك بأخيها العلم المرفوع فى بداية الآية .

قال : وثانياً؟

قلت : ثانياً : وضع لك ﴿ لَيْلاً ﴾ بعد ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ ليضع لك بها إشارة إلى كيف بلغ عبده هذه المرتبة .

قال : كيف؟

قلت : لو جعلت ﴿ لَيْلاً ﴾ هذه متعلقة بـ﴿ عَبْدِهِ ﴾ لا بالإسراء، فهو عز وجل أسرى بـ﴿ عَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ لا بعبده فقط .

قال : إنها لرائعة! فهو أسرى بالذى يقوم له يتعبده ليلاً . فهو العابد وسط الغافلين القائم وسط النائمين الذى لا تغفل عينه ولا قلبه عن ذكر ربه .

قلت : فهو قد نال هذا المحل الأرفع وبلغ هذه المنزلة العليا بهذه العبودية الخالصة ليلاً، يطرح عنه فيه شواغل الدعوة والرسالة ويخلص لعبادة ربه يتملقه ويمجده فى علاه . فهو عبد الله الخالص له فى الليل . فلو لم تجئ ﴿ لَيْلاً ﴾ لما عرف شرف عبادة الليل وعبودية الليل الخالصة لارياء فيها ولا انشغال فيها بغير مناجاة

رب الكون. فهو لا يحدد لك زمن الإسراء، ولكن وقت العبودية الخالصة لله عز وجل بها بلغ عليه السلام المنتهى. وثالثاً..

قال: أنا مكتف بهذه اللمحة البديعة. إن ﴿لَيْلاً﴾ فى مكانها لخلابة.

قلت: بل ثالثاً: ذكر لك ﴿لَيْلاً﴾ وشدد عليها فلم يسقطها ليحيطك بجو السكون فى الليل والهدوء والسكينة فيه، فيرسم لك بها الجو النفسى الذى أحاط بهذه الرحلة المباركة.

قال: جو الليل الهادىء الساكن المترقرق بالصفاء وأفراح الروح.

قلت: فإذا تمت الأعلام والعلامات، وعلمت من السارى ومن الذى أسرى به ولم أسرى به، وتهيئت نفسك لمعرفة الرحلة التى تحفها هذه الظلال جاءك بها خاطفة: ﴿من.. إلى﴾، فلا زمن ولا طريق ولا راحلة.

قال: وكيف الزمن والطريق والراحلة و﴿سُبْحَانَ﴾ فى أول الآية قائمة؟!

قلت: واختار لك البداية والنهاية من المسجد إلى المسجد، لا مكة ولا القدس، لأن المسجد هو المكان الوحيد الذى يتواءم مع جو الرحلة المفعم بالعبودية لله والسكون والسكينة والهدوء والطمأنينة. وهو المكان الذى يقوم له فيه عبده ليلاً. فهو المكان الذى استحق بوجوده فيه هذا الشرف والتكريم.

قال: وهو المكان الذى بارك عز وجل حوله.

قلت: فإذا كانت البركة غمرته وفاضت حوله فما أدراك بالبركة فيه هو نفسه كيف تكون؟

ثم قال: ﴿لِنُرِيَهُ﴾، فمازالت قدرة الألوهية هى الفاعلة، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم ير، ولكن أراه ربه من آياته الكبرى.

ثم ختم لك الآية بـ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ السميع لعبده ليلاً، البصير يريه بقدرته ما شاء من آياته.

قال: إنها رحلة ممتعة.

قلت: فتأمل الآية مرة أخرى، وانظر إليها مجتمعة فى كلماتها، وتأمل ما

جاءِ به وما حذف، وما اختار وما ترك لتوقن أن ذلك لا يكون فى طاقة البشر ولا فى سعة عقولهم.

جـاءك بـ﴿ سُبْحَانَ ﴾ فى البـداية، ولـم يأت بلفظ الجـلالة وأناب عنه ﴿ الَّذِي ﴾ ، وقال ﴿ أَسْرَى ﴾ ولم يقل يسرى، وجاءك بالباء ويمكن فى مقاييس البشر حذفها، واختار ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ على الرسول والنبى، ثم ﴿ لَيْلاً ﴾ بعجائبها، وطوى الرحلة ﴿ من ...... إلى ﴾، والبركة حول لا فى، واختار ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ وترك ليرى. ثم ختم كل ذلك وجمعه فى ﴿ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

قال: إنها كلها تعطى معنى واحداً وجواً واحداً متناسقاً متجانساً مترابطاً يتضح من كل كلمة ويغلف كل كلمة: القدرة الإلهية، والعبودية الخالصة، والسكينة والبركة تحف هذه الصلة بين العبد وربه.

قلت: فسبحانه.. سبحانه.

* * *

قال: إن آية الإسراء لكالثريا.

قلت: أمازلت تتأملها؟

قال: إنى لأعجب كيف كانت تمر أمام عينى بيسر دون أن تستوقفنى كل هذه الأنوار، إن كل كلمة فى الآية تفيض ضياءً كاشفاً ونوراً متلألأً يجعل الآية فلكاً مرصعاً بالنجوم والكواكب الدرية.

قلت: هى النجوم جاءك بها القرآن لتهتدى بنورها فى ظلمات الشك والريب.

قال: فأنا الآن أريد أن أفهم هذه الظاهرة العجيبة فى الآيات التى تجعلنى أراها موجزة طويلة ضخمة قصيرة.

قلت: هذا إعجاز الآيات تضع لك أضخم المعانى فى أيسر الألفاظ وأقلها وأجزلها. فتجد المعانى وافرة متعددة والألفاظ قليلة معدودة. ولن تجد ذلك فى كلام قط سوى القرآن. فمن أراد أن يعطى معنى فيوفيه حقه وجد المعنى يجر الألفاظ من لسانه وقلمه. فيأتى بجملة ليسد بها فرجة فى المعنى يجدها تحتاج

إلى ثانية ليمنع معنى زائداً لا يريده، فلا يكون أمامه بد من ثالثة ليستدرك بها، وأخرى يشد بها أواصر الجمل.

وهلم جرا.

قال: كل ذلك في معنى واحد؟!

قلت: أما إذا أراد معانٍ متعددة وشئوناً مختلفة فلا تنتظر منه إلا الصفحات الطوال يخرج فيها من معنى إلى معنى، ويربط غرضاً بغرض.

قال: فلا سبيل لتفادى ذلك أبداً.

قلت: فلو أوجز لرأيته لا مناص له من أن يجور على المعنى، فلن يعطيه بإيجازه حقه ولن يوفيه مستحقه.

فيخرج الكلام غامضاً ناقصاً لا يستقيم لك منه معنى.

قال: والقرآن؟!

قلت: القرآن يأتيك بالمعانى لا تحصى فى الكلمات لا تعد من قلتها، ويوفى بها كاملة غير منقوصة، بل غنية متفجرة من كل وجه.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [سورة الإخلاص] هذا سطر واحد جمع لك فيه من المعانى ما لا أول له ولا آخر، وما قد تتوه فيه ويهرب منك بعضه لغناه وكثرته.

قال: أليست تعدل ثلث القرآن؟

قلت: بلى. فانظر ما فيها من غزارة المعانى على ندرة الألفاظ، فقد أثبت فيها وجود الإله الحق وبين صفاته وما يجب له من الكمال، ونفى عنه كل ما لا يليق بمقامه وجلاله.

قال: واحدة واحدة حتى أفهم.

قلت: ﴿**قُلْ**﴾، فلا سبيل لمعرفة الإله الحق وما يجب وينبغى له إلا به ومنه، والرسول المصطفى لا يملك مقالاً فى الألوهية من عند نفسه.

قال: ﴿**هُوَ**﴾.

قلت: ﴿هُوَ﴾، فدلك على أنه غيب، ولا يكون الإله الحق إلا غيباً تؤمن به ولا تراه ولا يكون الإيمان إلا بغيب لا تراه.

قال: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

قلت: فهو الله. ولأنه الله فهو جامع لكل صفات الكمال والجمال والجلال والعزة.

وهو ﴿أَحَدٌ﴾ فلم يقل «واحد»، فنفى بذلك الشرك عنه فلا شريك له، ونفى عنه الانقسام فى ذاته فهو ﴿أَحَدٌ﴾ لا أجزاء متعددة يفتقر بعضها إلى بعض.

قال: إذن ففيها نفى الشرك والتعدد، ونفى الانقسام والتجزىء.

قلت: ولأنه ﴿أَحَدٌ﴾ متفرد فهو منزه عن كل خلال النقص، ولأنه الله الأحد لا شريك له فهو المستحق الأوحد للعبادة.

قال: التوحيد، توحيد الألوهية.

قلت: و﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ المصمود المقصود فى الحوائج يفتقر إليه جميع خلقه.

قال: فهو الغنى.

قلت: ولأنه الغنى وخلقه فقير إليه فهو الذى ينعم على خلقه، وهو الذى يمنحهم وجودهم ورزقهم، ونعمه عليهم سابغة ظاهرة وباطنة. فلا خالق غيره ولا منعهم سواه.

قال: ففيها توحيد الربوبية والخلق والإنعام.

قلت: وفيها دليل وجوده عز وجل، فهو المصمود الذى يحتاج خلقه فى وجودهم لوجوده ويتوقف عليه، وهو غنى عن وجود غيره.

قال: فهذا دليل الوجوب فى الألوهية.

قلت: ولأنه ﴿الصَّمَدُ﴾ وناموس كونه ونظام خلقه يتوقف استمراره على حفظه له وعنايته به، فهذا دليل النظام والعناية. ولأنه المصمود الأوحد المقصود وحده فى الحوائج، ولأن الافتقار لا يكون إلا إلى الكامل التام، فهو الكامل التام

القدرة، المحيط العلم، المتصف بالجلال والكمال يقصده خلقه، وبالجمال والحنان يقضيها لهم.

قال: ففيها كل صفاته الحسنى جلالاً وجمالاً.

قلت: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فهو أبدى لا آخر له.

قال: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قلت: فهو أزلى لا أول له. ولأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فهو حى لا يموت، لأن الولادة قرينة الموت والموت مخبوء فى رحم الولادة، وما تحدث الولادة إلا فيمن يموت لإبقاء الأب فى ابنه.

قال: ففيها - إذاً - الرد على من زعم البنوة لله.

قلت: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، فليس له شبيه ولا نظير ولا ند ولا والد ولا ولد، وهو المتفرد بكل صفات الكمال، المنزه عن خلال النقص فى بنى الإنسان.

قال: كل ذلك فى سطر واحد، إنها لأعجوبة.

قلت: فلو أعدت النظر فى هذا السطر لوجدته وفَّى فيه من المعانى والقضايا الكبرى ما لا يحاط به فى مجلدات.

ففيه أثبت وجود الله عز وجل بأقل الألفاظ وأيسر الكلمات، تعرف الفرق بينها وبين قصور عقل البشر وكلامهم لو طالعت المجلدات التى كتبها الفلاسفة والمتكلمون لمحاولة إثبات ما جاء به القرآن فى كلمة أو اثنتين.

قال: لا تذكرنى! طالما أعيتنى هذه الكتب، ولم أفلح قط فى أن أتم منها شيئاً، فأسلوبهم معقد وكلامهم حشو طويل يستغلق على الأفهام ويتوه المرء فيه. وقد أظل يوماً كاملاً فى صفحتين أحاول اقتناص شيء من بين المصطلحات والكلمات واللف والدوران فلا أستطيع.

قلت: وفيها جاءك بتوحيد الله عز وجل كاملاً بشطريه: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. وفيها جمع لك صفات الله الحسنى وما ينبغى له من كمال ونزهه عن كل ما لا يليق بالألوهية الحقة. فلا يمكنك أن تنزع عنه عز وجل صفة

كمال، ولا أن تنسب إليه صفة نقص، فألفاظها جامعة مانعة. وفيها رد على المشركين وكل من يجعلون مع الله آلهة أخرى، من عُبَّاد الأصنام إلى عُبَّاد النجوم والكواكب وما بينهما.

وفيها نقض دعوى البنوة لله من أصولها ودلك عقلاً على استحالتها. وهدم مذهب الثنوية الذين يجعلون إلهاً للشر والظلام فاعلاً بقوة وقدرة إله الخير والنور بقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. فلو أردت الإحاطة بما فى هذا السطر لاحتجت إلى مجلدات الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة ولا حتجت عمرك كله ولن يكفيك.

قال: لن يكفينى وأيضاً لن يفى بما أوفت به السورة فى يسر وسهولة وتسكبه فى النفس فى بساطة. وإنى لأعجب أشد العجب! فإنى لأرى الرجل العامى بل الأمى يقرأ السورة أو تقرأ له فيفهم ما فيها دونما عنت ولا إرهاق على ما فيها من مسائل عويصة وقضايا كبرى. فكأن السورة لا تمر على عقله بل تُصَّب فى نفسه صباً. فإذا جاء لها متكلم أو متفلسف غاص فيها ما غاص وفصل وحلل، وشرح وعلل، وكتب الأسفار الطوال، ثم لا يخرج حقيقة ما أفاض فيه وكتب عن حقيقة ما فهمه العامى ولو قيد شعرة.

قلت: فذلك إعجاز آخر من إعجاز آيات القرآن وعجيبة أخرى من عجائبها، تخاطب الناس جميعاً فى وقت واحد: العالم والأمى، البسيط والمتبحر، الباده والمنطقى والبرهانى، العامة والخاصة.

قال: ومع ذلك فهى تعطى كل واحد ما يرضيه ويغنيه، وعن غيرها ما يكفيه.

قلت: وأما فى غير القرآن، فلن تجد كلاماً يكتب أو يتلى إلا ويخاطب فئة محددة. فهو إما لمخاطبة علماء فلن يفهمه العامة، ولو كان لعلماء فى اختصاص فلن يفهمه غيرهم. ولو خاطب العامة استنكف ابتذاله الخاصة. ولا يستطيع بشر أن يصوغ كلاماً يُرضى به كل الناس على اختلاف عقولهم وتنوع نفوسهم وتباين عواطفهم مهما حاول، ليس ذلك إلا فى القرآن. فآية القرآن كالبحر يقف أمام شاطئها جل الناس تسكب فى نفوسهم الراحة والجمال سكباً. فإذا مخر عبابها

ملاّح ازداد فى عينه جمالها، واستولت على نفسه فساحتها ورحابتها وامتدادها فى الأفق. فإذا غاص فى أعماقها غواص رأى من الروائع والحياة الغنية ما يصبح الغوص به سجية له ويتمنى معه أن يتخذ هذه الأعماق سكناً ومحلاً.

تأمل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فقل لى: لو أن امرأ بسيطاً يذهب إلى عمله أو حقله ويجىء قرأ هذه الآية أيُعجزه أن يصل إلى الدليل على وحدانية الله فيها؟

قال: بل هذا الدليل أوضح من الشمس فى رابعة النهار، ولا يعجز إنسان مهما كانت بساطته أن يقف أمامها فيكون لسان حالة مع لسان مقاله: «المركب التى فيها رئيسان تغرق»، فلابد للمركب من رئيس واحد كى تسير، وكذلك لابد للكون من إله واحد حتى ينتظم ولا يختل أو يضطرب.

قلت: وبذلك تنتهى المسالة وتحسم فى بساطة ودون عناء. فلو مخر عباب الآية منطقى من المناطقة لا يقنع عقله إلا بالجدل والمنطق اللفظى والدليل القياسى لو جد فيها ما يشفيه ويكفيه.

قال: ولكن ليس فى الآية إلا مقدمة واحدة، ولو جاءت على قياس المنطق لكان الأولى أن يقول: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، والفساد ممتنع، إذاً تعدد الآلهة محال.

قلت: فلو تأملت الآية لوجدت هذا المنطق بكل أركانه ومعانيه موجوداً فى الآية، ولكن القرآن أتاك به مضمراً. فأنت لن تفهم من الآية مهما حاولت أقل من هذا، وهذا هو عين الإعجاز. حذف مقدمة وأتاك بالمعنى كاملاً والمراد تاماً، وحذف النتيجة وجعلها تنضح من الآية نضحاً. ولو جاءك بالمقدمة والنتيجة التى حذفها لفظاً وسرَّب إليك معناها لجعل العقل والنفس يدوران مع - وفى - الكلمات والألفاظ والمعنى تائه فى زحامها بعيداً عن بؤرة العقل ومركز النفس. وهذا هو الفرق بين منطق القرآن ومنطق البشر.

قال: منطق البشر! يالجفافة وإرهاقه للذهن! كأنهم يقدونه من صخر.

قلت: وأما منطق القرآن فيعلو على هذه المماحكات اللفظية الجافة

والأقيسة الشكلية التي تجهد الذهن وترهقه وتنتهي بالنتيجة تراها أمامك، ومع ذلك لا يستريح بها عقل من شكه ولا تقر معها نفس في حيرة. فإن القرآن يأتيك بأركان المنطق المعنوية كاملة وينسيلها في قالب من الألفاظ السحرية تكون المقدمة فيها ونتيجتها شيئاً واحداً، لا تكد ولا تكدح ولا تنحت في الصخر لتفهمه، بل يستقر المعنى المطلوب في عقلك ونفسك كأنه سكب فيها سكباً.

قال: لأول مرة أرى المنطق جميلاً ممتعاً وسهلاً هيناً.

قلت: فإذا تأملت هذا المنطق القرآني وتيقنت من استيفائه لأركانه، ثم عدت إليه لوجدته هو عين البديهة التي فهمها أخوك العامي. وهذا فارق آخر بين إعجاز المنطق القرآني وقصور المنطق البشري الذي لا تفهمه أبداً على البديهة وبفطرة العقل والنفس، وإنما بالاكتساب والتأمل العميق، والتفكر والقياس الدقيق الذي ربما غيبك غوصك في ألفاظه عن المعنى المراد منه.

قال: سبحان الله! آية واحدة فيها البديهة والمنطق ممتزجان معاً!

قلت: فما قولك لو علمت أن فيها إلى البديهة والمنطق براهين الفلسفة.

قال: براهين الفلسفة؟!!

قلت: ألم أقل لك إن الآية بحر توغل فيه ما توغل، وتغوص ما تغوص ولا تصل أبداً إلى قراره؟

قال: يا لسكوتك هذا الممل! أين هي هذه البراهين؟

قلت: لو وضعت شطر الآية هذا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إلى جوار أختها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢]، لو جدت فيهما كل براهين العقل المحض على وحدانية الله عز وجل واستحالة الشرك وتعدد الآلهة. فقل لي: ما هو أقل عدد للتعدد؟

قال: الاثنان.

قلت: فلو كان في الكون إلهان، أكانا يتفقان أم يختلفان؟

أطرق قليلاً ثم قال: فلنجعلهما يختلفان أولاً.

قلت: فإذا اختلفا، أتنفذ إرادة أحدهما أم إرادتهما معاً؟

قال: فلنجعلها هكذا مرة وهكذا مرة.

قلت: فلو نفذت إرادة كل منهما معاً وهما مختلفان لاضطرب العالم وفسد، أو لانعدم وجوده من البداية كما قال لك القرآن: ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ .

قال: والعالم موجود قائم منتظم لا اختلال فيه.

قلت: ولو اختلفا ونفذت إرادة أحدهما فقط ومراده دون الآخر لما استحق هذا الآخر أن يوصف بالألوهية، ولكان الأول هو الإله الحق لنفاذ إرادته، ولما كان للآخر معه إلا الإذعان وطلب الرضا وابتغاء الوسيلة إليه، كما قال لك القرآن وصور الوضع حينئذ فى هذا التعبير المعجز يعطيك صورة الملك وحاجبه لا إلهين اثنين.

قال: فماذا لو اختلفا ولم تنفذ إرادة هذا ولا ذاك؟

قلت: فإن ذلك لا يكون أبداً إلا لعجز كل منهما عن إنفاذ مراده وإرادته إلا بمعونة الآخر، أو عجز كل منهما عن إنفاذ إرادته لمنعها بإرادة الآخر. وفى الحالين لا يستحق أحد منهما مقام الألوهية التى تستلزم الكمال، وطلاقة القدرة، والإرادة التامة النافذة، والتى جمعها لك القرآن فى لفظ الجلالة « الله » الحاوية لكل صفات الكمال والقدرة. فالله هو الإله بإطلاق.

قال: فلنعد إلى البداية، ماذا لو لم يختلفا واتفقت إرادتهما معاً؟

قلت: لو اتفقا لعجز كل منهما وحده عن إدارة الكون لانتفى عنهما معاً مقام الألوهية وكمالها فى « الله ».

قال: فماذا لو اتفقا لا لعجز ولكن لتوافق إرادتهما ومرادهما؟

قلت: إذاً لما كان هناك معنى لوجود اثنين، لأن ما يقوم به الواحد يصبح من السفاهة – فى ميزان العقل – أن يفعله اثنان، ولأن معنى ذلك اتحاد مؤثرين تامى الإرادة فى معلول واحد وهو محال.

ها! هل توجد فروض أخرى غير الاتفاق والاختلاف؟

قال مفكراً: لا.

قلت: إذاً فهذه هي كل فروض التعدد فى الألوهية، وهذه هى كل براهين العقل لنقضها فرضاً فرضاً.

قال: هى كذلك.

قلت: فتأمل شطرى الآيتين مرة أخرى، فلن تجد فى كل هذه البراهين العقلية لنقض فروض التعدد وإثبات الوحدانية شيئاً يزيد على ما جاء فى الآيتين. فقد احتوتا هذه البراهين كلها إثباتاً ونفياً فى كلمتين وجملة واحدة.

قال: فى كلمتين وجملة واحدة؟!

قلت: نعم. ﴿ اللَّهُ ﴾، و﴿ لَفَسَدَتَا ﴾، و﴿إِذًا لَأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ففيها كل براهين وأدلة الفلاسفة العقلية على وحدانية الإله.

قال: يا رجل! أين هذه البساطة الآسرة والعذوبة الساحرة من تعقيدات الفلاسفة والكتل الصخرية التى يضعون فيها براهينهم. أنا لا أصدق! ولكن كيف لا أصدق وهى ماثلة أمامى؟!

قلت: هذا هو القرآن يضع البراهين العقلية الجافة اليابسة فى أعذب الألفاظ وأيسر الكلمات وأجمل الصور فيحيلها خضراء يانعة تسرى هى فى الألفاظ، أو تسرى الألفاظ فيها إلى نفسك دون مانع ولا حجاب.

قال: بداهة الفطرة، وأقيسة المنطق، وبراهين الفلاسفة. كلها فى آية واحدة! آية؟! بل جزء من آية.

قلت: وإعجاز الإعجاز وروحه أن صاحب المنطق يجد فيها أقيسته، والفيلسوف البرهانى يجد براهينه العقلية تامة كاملة. فإذا جمعت ما فهمه صاحب المنطق إلى ما غاص ليستخرجه صاحب البراهين العقلية المحض لوجدته لم يخرج فى حقيقته عن حقيقة ما فهمه على البداهة صاحب الفطرة ولما زاد عليه شيئاً.

قال: إن الآية فعلاً لبحر.

ثم توقف فجأة وقال: بحر؟! وأين البحر؟!

* * *

قلت: ماذا تفعل؟

قال: أحاول الغوص.

ابتسمت قائلاً: أراك غرقت فى الكتب.

قال: إن كتب المنطق والفلسفة هذه عسيرة، جد عسيرة.

قلت: وما الذى ألجاك إليها؟

قال: قلت أتاملها وأقلبها لأرى ما فيها من أدلة بنفسى.

قلت: وهل وصلت إلى شيء؟

قال: كشانى معها دائماً. أجلس الساعات أقرأ الجمل وأتامل السطور وأكرر وأعيد لأقتنص ما فيها اقتناصاً.

فإذا اقتنصت بعقلى ما اقتنصته بعد جهد جهيد وجدتنى أصاب بالملل وأحس بالفتور.

قلت: فتكف عن الغوص وتجلس فى الشمس!!

قال: لا أجد لنفسى عندها حلاً ولا مخرجاً من هذا الملل والسأم إلا أن آتى ببعض الأشعار وأرددها ترحل معها نفسى، أو بعض القصص الخيالى أتلهى به وأريح عقلى المكدود من عناء التفكير.

قلت ساخراً: فأنت إذاً تبدأ بشحذ عقلك وتنبيهه، وتنتهى بوضعه على الرف وتغييبه!

قال: هذا ليس ذنبى، بل ذنب هؤلاء الذين يتكلمون ما يتكلمون ويكتبون ما يكتبون وكأنهم ليسوا من البشر. لا حياة ولا جمال ولا إمتاع. ليس إلا الكلام الجاف المتخشب.

قلت: فإنهم يكتبونه لأهله وخاصته يعرفونه ويفهمونه، ولا حاجة بهم إلى الجمال والمتعة، وهم لا يرجون من كل الناس فهمه ولا معرفته.

قال: وهل يطمعون أن يعرف أحد أو يفهم هذه الجوامد؟!

تعرف! قلت لنفسى: ربما كان صعباً أو مستحيلاً أن يجتمع إقناع العقل مع راحة النفس ومتعة الوجدان.

ثم رجعت فقلت: كيف ذلك؟ وهل يفهم العقل إلا لتطمئن النفس وتقر عند ما فهمه العقل فرضيه أو رفضه.

قلت: المسألة بسيطة! فإن الكاتب حين يكتب إنما يصدر كلامه منه، فإن كان عقله حاضراً وهو يكتب خاطب بكلامه عقلك فلا تفهمه إلا به. فأنت بحاجة إلى أن تشحذ عقلك وتنبهه وتضعه أمام نفسك ووجدانك وحواسك، تغيبها كلها خلفه فلا حاجة بك إليها.

وأما إن كان من أصحاب النفس وأهل الوجدان، كالشعراء، فسوف يأتى لك بالعبارات الجميلة والصور الخلابة تثير نفسك وتمتع وجدانك. فإذا تنبهت لعقلك وجدته غائباً غير حاضر، والكلام يبعد عن عقلك قدر بعده عن الصدق والحقائق، ويبعد عن نفسك وعواطفك قدر بعده عن الخيال والطرائف.

قال: فلا يمكن الجمع بين الاثنين أبداً.

قلت: لن تجد كاتباً يجمع بين الاثنين ليعطيك الاثنين، فإذا حاول فأقصى ما يصل إليه المجيد أن يخاطب عقلك مرة، ونفسك ووجدانك مرة، أو أن يعطيك معنى لهذا يتلوه معنى لذاك. أما الذى لا يقدر عليه أحد أبداً أن يأتيك بالاثنين معاً فى الكلمة الواحد والجملة الواحدة والمعنى الواحد، فيجعلك تفهمه وتحسه وتراه فى الوقت ذاته بالعبارة الواحدة هى هى، لأنه لا سبيل لذلك إلا بأن يكون الكاتب ساعة أن يكتب موزعاً بين عقله ونفسه، مشتتاً بين الفهم والمتعة. وهذا الموزع المشتت - لو وجد - لن يصلك منه شىء، لأنه لن يخرج منه شىء، فهو مشلول تتجاذبه أجزاؤه ولن يكتب إلا بالقرار على واحد منها.

قال: ولكنى أرى القرآن تأتى فيه الآية بالأدلة المقنعة على الحقيقة الواقعة، ومع ذلك فهى هى جميلة مريحة ممتعة، ولا أحس معها بسأم ولا ملل، ولا هذا الانفصال بين العقل والنفس وبين الفهم والمتعة.

قلت: ذلك شأن القرآن وحده لا يشاركه فيه كلام سواه، وهذه عجيبة من عجائبه وإعجاز من إعجاز آياته.

الآية فيه تخاطب الإنسان وتدخل إليه من كل مداخله فى وقت واحد، فالإنسان معها كالقصر تتعد أبهاءه وأبوابه فتغزوه من كل أبهائه وأبوابه فى الوقت نفسه.

تنهد ثم قال: الآن فهمت وحُلّت المسألة. كل إنسان قصر منيف، النفس فيه بهو له باب، والعقل بهو له باب، والوجدان بهو له باب، والحواس بهو له باب.

قلت: وكلها تلتقى فى أعماقه؛ فى المنطقة التى تتحول فيها كلها إلى طاقة وقوة فاعلة يكون قدرها وأثرها بقدر تجانسها وائتلافها معاً. والإنسان لا يستطيع أن يمر من أبهاء قصره أو يخرج من أبوابها كلها فى وقت واحد.

قال: وإذاً فهو أيضاً لا يستطيع أن يدخل فيها ويمر منها عند غيره كلها فى آن واحد. بل لابد أن يخرج من باب واحد ليدلف من باب واحد.

قلت: إلا كلام رب البشر الذى لا تحده ولا تقيده قوانين كلام البشر، فالقرآن يخاطب الإنسان ويدخل إليه من عقله بالفهم والحقيقة، ومن نفسه بالراحة والسكينة، ومن وجدانه بالأثر والمتعة، ومن حواسه بالحضور والمتابعة ليستقر فى أعماقه؛ فى المنطقة الفاعلة ينبوع حركاته وسكناته وأفكاره وقدراته وأثره فيما حوله وتأثيره.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾

[النور: ٣٩]

قال: هذا تمثيل وتصوير وتشبيه لحال الكافرين الذين عملوا الأعمال وظنوا أنفسهم قد ربحوا وفازوا، فإذا وصلوا إلى الله فجعتهم الحقيقة ووجدا الله بجلاله وحسابه أمامهم.

قلت: فهذا هو المعنى تفهمه وينفذ إليك من باب عقلك فتعرف المقصود منه وتجده هو الحقيقة. ولكن القرآن لم يضع لك ما يريدك أن تفهمه فى قالب مصمت جامد تدور فيه بعقلك لتصل إلى المعنى، فإذا وصلت إليه لم تجد نفسك معك ولا وجدانك، فقد تركتهما خلفك، ولا حواسك فهى غائبة مغيبة.

وإنما وضع لك القرآن المعنى فى صور مرئية ومشاهد متدفقة يتابعها البصر من مشهد إلى مشهد، وتنتقل النفس معها بانتقال البصر وتغير المشاهد والمواقف

من حالة إلى حالة انتقالاً يتسرب من النفس إلى الوجدان ينفعل به ويدفعك فى اتجاه المعنى الذى أراد لك فهمه.

قال: فتغزو الآية الإنسان من عقله وبصره ونفسه ووجدانه.

قلت: وتلتقى هذه المؤثرات من منافذ الإنسان وأبوابه فى منطقة واحدة تجمع عقل الإنسان إلى بصره، وتوحدهما بنفسه ووجدانه، فتجتمع بذلك كل طاقاته فى بؤرة واحدة.

قال: فتعطى الآية طاقة اندماجية تنسف كل الحواجز داخل الإنسان، وبها لا يفهم المعنى فقط بل يكون هو نفسه المعنى.

قلت: ويكون المعنى نفسه هو.

يقرأ القارىء الآية وفيما عقله يذهب فيما يعمل من أعمال لا معرفة فيها بالله ولا نية ولا قصد له، تعرض المشاهد أمام بصره فيرى نفسه وسط الصحراء فيشعر جفاف حلقه من الظمأ وتتشتت نفسه شعاعاً خوف الضياع والهلاك فيركبه الهم والخوف. ثم تضع له الآية مشهداً يرى فيه الماء كما كان يرى أعماله وما ظنه فيها من فوز فيحس الراحة والطمأنينة فى نفسه والفرحة فى وجدانه.

ثم يحس الجهد وهو يجرى تجاه الماء يحدوه الأمل وتسوقه الرغبة.

وفى الوقت الذى يصل عقله إلى نهاية أعماله فيجدها لا تغنى عنه شيئاً ولا تنفعه عند ربه ويجد الحساب العسير فى انتظاره، يكون العرض قد وصل ببصره إلى مشهد السراب ووقف عنده فيحس فى نفسه الحسرة، حسرة عقله على أعماله، وحسرة نفسه على فجيعة السراب بعد الماء. ومن حسرته يمتلئ وجدانه بالهم والكرب.

قال: فتتحد الخسارة فى عقله ومشهد السراب فى بصره مع الحسرة فى نفسه والهم والكرب فى وجدانه.

قلت: فلا يفهم فقط خسران هذه الأعمال، وإنما يرى هذا الخسران ماثلاً فى عينيه وحقيقته فى نفسه وأثره فى عواطفه.

أرأيت كيف يغزو القرآن الإنسان من كل أبوابه ويسرى فى جميع أبهائه ويوحد أجزاءه فيمزج عقله بنفسه وحواسه بوجدانه.

قال: والعجيب أن ذلك كله فى آية واحدة هى نفسها مزيج من الفهم والإقناع، وإثارة الحواس، والتأثير فى النفس والإمتاع، لا يمكن فصل شيء فيها عن شيء فكلها تتآلف فى نسيج واحد متجانس لا تستطيع العين تمييز خيط فيه عن خيط.

قلت: أو كأنها روافد يجمعها القرآن ويخلطها ماءً عذباً فى نهر واحد لا يمكن فصل رافد فيه عن رافد.

قال: فهذا هو سر أثر القرآن ؟! لا يخاطب العقل بما يسلب النفس راحتها أو ينفر منه الوجدان. ولا يخاطب النفس والوجدان بما يعسر فى العقل. ولا يخاطب العقل والنفس بما تغيب معه الحواس؟

قلت: نعم. فهو يخاطبها جميعاً فى الجملة الواحدة وينفذ إليها معاً ويؤثر فيها كلها معاً فى الآية الواحدة والمعنى الواحد.

تأمل هذه المقارنة والمقابلة البديعة:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقل لى: ما هو المعنى الذى يريد القرآن أن يوصله إليك وتفهمه ثم تقتنع به وتصدقه؟

قال: أرى المعنى فى المقابلة الأخيرة. فالقرآن يقابل بين الله الخالق وبين شركاء يدعونهم وهم لا يخلقون شيئاً ليصل إلى أن الله هو الذى خلق وحده فهو الذى يستحق العبادة وحده.

قلت: ولكنه لو جاءك بهذه المقابلة فقط، لترك عقلك فيصلاً فى الحكم وحده دون نفسك ووجدانك. وقد تكون راحة النفس وطمأنينتها وابتهاج الوجدان وسروره هى طريق العقل إلى الفهم. وفهم العقل دون قرار النفس ورضاها وابتهاج الوجدان وفرحته يكدر الفهم، ويشوب الاقتناع، ويجعل الإنسان موزعاً بين عقله ونفسه ووجدانه، أو على الأقل يكون عقله فى واد ونفسه ووجدانه فى واد آخر.

قال: لذلك أتى بهذه المقابلة بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور؟

قلت: ففى الوقت الذى يقارن فيه عقلك ويقابل بين الخالق وبين العاجزين عن الخلق فيفهم ويقر للخالق وحده بحق العبودية، تقارن وتقابل نفسك بين البصر يجلب الطمأنينة والسكينة والعمى يسكب فيها الخوف والضيق والنفور. وفى الوقت نفسه يشد المقابلة فى العقل والمقابلة فى النفس بمقابلة فى الحواس بين الظلمات تتخبط فيها فتحمل لوجدانك الهم والحزن وبين النور تبتهج به وتنشرح.

قال: ففى الآيات نسيج من التقابل تتشابك خيوطه وتتناسق فى صورة متكاملة، ففى جانب خيط من الوجدان نسجه البصر يجلب السرور والبهجة، يتداخل مع خيط من العقل يحمل الفهم والقناعة يشدهما معاً خيط من النفس فيه القرار والسكينة والطمأنينة.

قلت: وفى الجانب المقابل خيط من الهم والحزن يخرجه الظلام إلى الوجدان، يتداخل مع خيط من الحيرة والضيق فى النفس، تتم الصورة فيهما بخيط من العقل واقتناعه بسفاهة ادعاء شركاء وهم عاجزون عن الخلق.

قال: فيكون فهم العقل واستيعابه لأحقية الخالق بالعبودية وراحة النفس وبهجة الوجدان فى جانب، واقتناعه بسفاهة الشرك وضيق النفس والهم يملأ الوجدان فى جانب.

قلت: فلا يملك الإنسان عندها إلا أن يكون فى الجانب الذى فيه توحيد الخالق وحده، لا لأنه الجانب الذى فهمه عقله فقط ورضيه، ولكن لأنه الجانب الذى ترتاح وتطمئن فيه نفسه، وفيه يشعر بالبهجة والسعادة.

وبذلك لا يجعل القرآن الإنسان يفهم المعنى وفقط وإنما يجمع الحواس والنفس والعقل والوجدان ويوحدها معاً، فيصبح الإنسان صورة حية يتجسد فيها المعنى ويتحول إلى طاقة دافعة وقوة فاعلة فى كل ناحية منه.

قال: تعرف! إن من أمتع ما فى هذه المقابلات هذا التناظر والتناسق بين

الأجزاء فى كل مقابلة والخيط الذى يربط كل مقابلة بتاليتها. بدأ هذه المقابلات بالنفس، ثم الحواس والوجدان، لتكون طريقاً ممهداً يصل به العقل إلى الحكم الصحيح.

قلت: فالنفس تطمئن بالبصر، والوجدان ينشرح برؤية النور، فيتسرب الاطمئنان والانشراح والبهجة إلى العقل وهو واقف أمام الخالق، فيقر بأحقية العبودية والكمال لله عز وجل وهو يحس راحة الحكم فى نفسه وجماله فى جوانحه. وفى المقابل تضيق النفس بالعمى ويتقيد البصر بالظلام، والوجدان بالهم، فيسرى الضيق والقلق والهم إلى العقل والآلهة العاجزة المدعاة أمامه، فتدفعه نفسه ووجدانه وحواسه إلى الضيق والنفور منها، فى الوقت الذى يكون عقله متأهباً للحكم بعجزها وعدم صلاحيتها للألوهية.

قال: فتتوحد كل ملكاته ووسائله فى حكم واحد قبولاً ورفضاً.

قلت: وإنّ فى هذا الترتيب للمقابلات تناسقاً وتجانساً بديعاً آخر يضع الإنسان أمام خيارين لا يملك معهما إنسان إلا أن يكون فى جانب الألوهية الحقة.

قال: كيف؟

قلت: من فتح عينيه وأبصر يرى النور فيدله ويهتدى به إلى الإله الحق، ومن عمى لم ير إلا الظلام يتخبط فيه ويضل الطريق عن الإله الحق إلى الآلهة العاجزة، فمن أراد وكان مبصراً فلن يكون إلا فى جانب الألوهية الحقة الخالقة.

قال: ومن استوى عنده العجزة مع الخالق فهو يشهد على نفسه بالعمى.

قلت: فالمعانى تتعدد، وهى تتعانق وتلتف معاً.

قال: والعجيب أن الآية نفسها واحدة متوحدة يلتف فيها المعنى العقلى بالصورة البصرية والأثر النفسى والوجدانى فلا يمكن فصل أحدها فيها عن الآخر، ولا الاستغناء به عن غيرها. بل ربما لا يفطن الإنسان إلى هذا الاندماج فى المؤثرات وهذا الامتزاج فى الأثر.

فلو أن أحداً أراد أن يحاكى هذه المؤثرات ويصل إلى هذا الأثر لتاه وحار من أى جهة ينظر، ومن أى مدخل ينفذ، وكيف يختار العبارة تحتوى ذلك كله وتنسجه فى نسيج واحد، ثم كيف يكون هذا النسيج فى تمامه وإتقانه، وحسنه وجماله هو الحقيقة أو الحقيقة هو.

قلت: ذلك هو النسيج الربانى. فهيهات هيهات!

* * *

قلت: أين أنت؟

قال: ها أنا ذا . خذ فاقرأ.

قلت: أقرأ؟! ماذا؟!

قال: اقرأ صدر سورة مريم.

قلت: لماذا؟

قال: اقرأ فقط واصبر.

قلت: كما تريد.

﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا

يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ١ – ١٥].

قال : كفى، قف الآن.

قلت : ها قد وقفت فماذا بعد؟

قال : الا تجد شيئاً غريباً فى هذه الآيات؟

قلت : شيء غريب!! لا أراها إلا رائعة الجمال تمتلىء بالموسيقا فى هذه الفاصلة اللينة تبعث أنغاماً رخية هادئة تخرج من الأعماق، وتتناغم مع جو الضراعة فى الآيات.

قال : الا يثيرك شيء فى الزمن الذى تتحدث عنه الآيات.

قلت : هو زمن بعيد وتاريخ سحيق، آلاف السنين.

قال : ذلك لأنك تعرفه.

قلت : لأنى أعرفه؟!

قال : مازالت لا ترى ما رايته من غرابة هذه الآيات. أنا ألتمس لك العذر فقد أحسست هذه الغرابة فيها، وشيء مبهم غير مالوف يشع منها أراه فى نفسى يذهب ويجىء ولا أعرف ما هو ولا كيف ينبعث، ولم أهتد إليه إلا حين وضعته إلى جوار القصة نفسها فى إنجيل لوقا.

قلت : شوقتنى إلى اكتشافك هذا الغريب.

قال : ساقرأ لك أنا هذه المرة، فتأمل الزمن فيه والمسافة بينك وبينه. هات إنجيل لوقا.

قلت : ها هو.

قال : « فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت

أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت، وامرأتك إليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته.. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا لأني شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها.. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل.. ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته.. وبعد تلك الأيام حبلت إليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر.. وأما إليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً.. وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا فأجابت أمه وقالت: لا بل يسمى يوحنا».

قال: ها ما رأيك الآن؟

قلت: ما رأيى؟! وهل هذه الركاكة تصلح لأن توضع إلى جوار آيات القرآن الحية الرائعة؟ أتريد أن تضع هبوب الخماسين إلى جوار النسيم العليل ثم تسألنى عن رأيى؟

قال: دعك من هذا فلست بحاجة إلى أن تذكرنى به، تأمل الزمن. الزمن في هذا الحكي والزمن العجيب فى القرآن. إنى اقرأ هذه الحكاية فأحس فاصلاً وحاجزاً زمنياً بينى وبين الأحداث التى تُروى، فهى بزمنها منفصلة عنى. هى فى جهة زمنية وأنا فى جهة زمنية أخرى.

قلت: وما الغريب فى هذا؟ هذا حدث من آلاف السنين يحكى فتعرف فيه التاريخ – صادقاً كان أو كاذباً – ولابد أن تحس انفصاله الزمنى عنك، فهو فى زمن وأنت فى زمن. انت فى الحاضر وهو يدور ويُروى لك من الماضى.

قال: فهذا هو وجه الغرابة الذى وقع فى نفسى وأحسسته غامضاً وأنا اقرأ آيات القرآن ولم أضع يدى عليه إلا حين قرنته بالحدث نفسه فى الإنجيل.

ثم لمعت عيناه وانتصب بقامته وقال: لا يوجد حاجز زمنى ولا فاصل

تاريخى بين آيات القرآن ومن يقرأها. فالقرآن يقص حدثاً من آلاف السنين أشعر وكأنه يقع فى اللحظة الراهنة، لحظة قراءته. فأنا فى زمن الحدث أو هو فى زمنى أو كأننا معاً فى دائرة واحدة خارج الزمن وفوق التاريخ.

قلت: إنه لإحساس مرهف وملاحظة بارعة.

قال: ومع ذلك فهى الحقيقة لا ريب فيها. والعجيب أننى أردت التأكد من ذلك وقلت: ربما وهمت أو أوهمت نفسى فوجدت ذلك مطرداً فى كل آيات القرآن.

قلت: فى كل آيات القرآن؟!

قال: نعم. انظر. ثم التقط المصحف من أمامه وراح يقلب فيه:

هذه قصة نوح عليه السلام: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٣٨ - ٤٦].

هذا حدث من آلاف وربما عشرات الآلاف من السنين، ومع ذلك القرآن يعرضه فإن لم يكن من يقرأ يعلم زمن القصة السحيق وتاريخها الهائل البعد من

خارج القرآن لما علم أنها تاريخ ولا شَعَر أن تلك أحداث حدثت فى عهود سحيقة من الزمان. بل ربما تصور أن هذا حدث ينقل إليه فى لحظته.

قلت: معك حق. إنها فعلاً لشيء عجيب ومعجزة غريبة، الحدث وقارئه يتوحدان فى زمن واحد يحتويهما معاً بلا فاصل بينهما.

قال: تعرف! تركت الإنجيل إلى كتب التاريخ القديم والحديث فازداد الأمر وضوحاً وازداد معه غرابة. فإن أحداث التاريخ التى يرويها المؤرخون وقعت من عشرات السنين أو مئاتها تبدو بعيدة سحيقة فى جوار أحداث القرآن تفصلها عنا آلاف وآلاف السنين لا نشعر بها ولا نراها، وإنما كأننا معها وقت حدوثها. إن هذه المفارقة الزمنية كادت تذهب بعقلى، أحداث التاريخ القريب غائرة، وأحداث القرآن المخبوءة فى أغوار الزمن حاضرة.

قلت: فالقرآن يطوى الزمن ويذيب التاريخ؟

قال: إن بناء الكعبة فى دعاء إبراهيم ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، لو لم أكن أعلمه من كتب التاريخ وتقديرات الأثريين – والكعبة شاهدة قائمة – حادثاً يفصلنى عنه ما يقرب من أربعة آلاف عام لما ورد إلى عقلى ولا أحست نفسى إلا أنه يحدث الآن ويقع فى التو واللحظة ينقل على الألفاظ مباشرة. فأين السر فى ذلك؟

قلت: نعم أين السر؟

قال: لقد اهتديت إلى بعضه وإن لم أصل إليه كله.

قلت: فما الذى وصلت إليه؟

قال: لا توجد فى آيات القرآن تواريخ ولا أزمنة، ولا حتى أو صاف تتعلق بالزمن والتاريخ وتدل عليه مباشرة. فالآيات منزوعة الدلالات الزمنية. وحتى إذا وجد فيها إشارات وإلماعات إلى تواريخ الأحداث وزمانِ وقوعها، فإنها تكون

مخبوء في الألفاظ، مطوية في المعاني، متلبسة في الصياغة لا يمكن رؤيتها ومعرفتها إلا بقصد العقل مباشرة لها يبحث وينقب عنها هي، في الوقت الذي يكون عالماً بها من خارج القرآن، فيهتدي بما يعلمه من خارج القرآن إلى المخبوء في آياته. وغير ذلك لا زمان ولا تاريخ.

قلت: إذاً فهذا هو الذي يدمج القارىء في المقروء ويوحد التالي بالمتلو ويجعل زمنهما واحداً، الماضي في الحاضر، والقارىء داخل زمن الحدث أو هما معاً - كما قلت - خارج إطار الزمن وفوق نطاق التاريخ.

قال: والعجيب أن يستوي في ذلك ما حدث وما سوف يحدث.

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف: ٤٩].

لا تحس أبداً أن ذلك حدث لم يقع ولا تعرف متى سيقع، بل كأنه واقع يحدث في وقت قراءته وزمن قارئه.

قلت: تعرف! ربما كانت هذه الظاهرة العجيبة التي يخرق بها القرآن في روايته للأحداث حاجز الزمن ويوحد بين القارىء وما يقرؤه هي هدفه، وتفسيرها في أسلوبه المعجز وتصويره الفني للحدث.

قال: كيف؟

قلت: أولاً: القرآن هدفه أن ينقل إليك الحدث ويجعلك تعايشه وتكون بطلاً من أبطاله تشارك فيه، فيأتي لك بالحدث مجرداً من كل الدلالات الزمنية والتاريخية إلا الخفية منها، فيجعل الحدث بذلك خارج الزمن لا يؤثر فيه، وفوق التاريخ لا يتراكم فوقه. فالأحداث فيه بلا زمن والتاريخ محايد.

قال: فلذلك يبدو الحدث وكأنه لم يقع، بل كأنه واقع دائماً في اللحظة التي يقرأ فيها. فالحدث يتجدد ويتكرر مع كل قراءة له، مهما أعاده القارىء لا يحس أن زمانه قد مضى وانقضى؟!

قلت : وثانيـاً : هدف القـرآن ليس أن يسـجل أحـداثاً تاريخـيـة . بل أن تستخلص أنت المعانى الكامنة فيها وتعتبر منها وترى نفسك فى مرآتها . لذلك يضع لك الحدث ويصفه لا وصف الحكاية تتسلى بها وإن أمتعتك، ولا وصف التاريخ تحس بعده عنك فتنفصل بذاتك ونفسك ووجدانك عنه .

قال : آه! وعندها سيولِّد الحاجز الزمنى والانفصال التاريخى حاجزاً نفسياً، وانفصالاً وجدانياً وعقلياً عن الحدث وأبطاله وما يدور فيه .

قلت : فيصبح ما يحكمهم من قانون ومصائر غير ما يحكمك، وما يسرى على زمنهم ويليق به غير ما يلائم زمنك ويسرى عليك . فيصف القرآن الأحداث وصفاً خاصاً ينفرد به ولا يشاركه فيه وصف آخر .

قال : الوصف القرآنى .

قلت : نعم! الوصف القرآنى، يزيل الزمن ويطوى التاريخ، فينسف الحواجز العقلية والنفسية والوجدانية بين القارىء والحدث، فيصبح زمن القارىء زمن الحدث، وأبطاله وما يحكمهم يحكمه، وما يسرى عليهم يسرى عليه، ومصيره مصيرهم إن شابه فعلَهم فعلُه .

قال : فكأن القارىء ليس فى دائرة زمن ما يحدث فقط ولكن أفعاله أيضاً خاضعة لما تخضع له أفعال أشخاص ما يوصف : أثرها وما يترتب عليها؟

قلت : تماماً .

قال : فإلغاء الاشارات إلى الزمن والدلالات على التاريخ يزيل الحاجز الزمنى والانفصال التاريخى، ويجعل الحدث يقع وقت قراءته، لكنه لا يفسر وجده كيف يدخل القرآن القارىء فى دائرة زمن الحدث ويُخضعه لقانون أشخاصه ومصائرهم فى لحظة متجددة دائماً .

قلت : يفسر لك ذلك كله أسلوب آيات القرآن المعجز فى صياغة الحدث ووصفه وتراكيب القرآن التى ينفرد بها، وإعجازه فى تناسق وإحكام هذا كله فى تجانس يصل به إلى محو الزمن وإدخالك فى الحدث وإشراكك فيه .

قال : قف ولا تستطرد فى هذا الكلام المبهم فأنا أريد أن أفهم.

قلت : لو تأملت الآيات التى ذكرت وأخرى غيرها كثير لوجدت أول طريقة يزيل بها القرآن حاجز الزمن هى تغيير أزمنة الأفعال والوقائع.

قال : لا أفهم شيئاً.

قلت : فى قصة نوح عليه السلام يحدثك عن الماضى السحيق، فلا يقول لك : إن نوحاً عليه السلام صنع الفلك وانتهى الأمر، وإنما ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾، فصناعة الفلك تحدث أمام عينيك، والفلك ﴿ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الآن، فبذلك يضع لك الحدث وكل تفاصيله فى زمنك بنقل ذهنك ونفسك بهذا التغيير من الماضى إلى المضارعة والحاضر، فلا يمكنك أن تعرف أو أن تحس إلا أن هذا حدث يقع فى لحظة ذكره.

وفى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا يخبرك بصيغة الماضى أنهما عليهما السلام وضعا القواعد. بل ﴿ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ﴾ الآن، والرفع يتجدد كلما قرأ قارىء أو تلا تالٍ. فهو خارج الزمن، ولا يمكنك أن تعرف أو تحس بالزمن الذى رُفعت فيه القواعد وتنفصل عنه إلا إذا وقفت وتركت القراءة وقسرت ذهنك على استحضار زمن الرفع من خارج القرآن.

وحين يحدثك القرآن عن المستقبل وأحداث الغيب لا يقول لك « س » و« سوف » و« عندما » و« حينئذ »، وإنما يضع لك الحدث الذى لم يحدث ولا تعرف متى سيحدث فى صيغة الماضى.

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩]

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨].

﴿ وَأَشْرَقَت الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].
﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٣١].

قال : نعم. ولكن المجيء بالمستقبل فى صيغة الماضى هو لتأكيد وقوع ما يخبر عنه. لأن الله هو المخبر، وما يخبر الله عنه أنه سيقع فهو فى حكم الواقع.

قلت : هذا صحيح ولكن ليس فقط. وإنما القرآن يمحو الزمن بينك وبين الأحداث التى ستقع ويدخلك دائرة زمنها ووقت وقوعها، فيستخرج لك الحدث من الماضى ليقع أمامك، ويسحب لك ما سيحدث من المستقبل إلى الماضى : ماضيه هو وحاضرك أنت.

قال : فتصبح الأزمنة كلها زماناً واحداً هى زمن القراءة ، وتفقد الأحداث تاريخها وتقع وقت وصفها.

قلت : فذلك إعجاز فى وصف الأحداث يزيل الفوارق الزمنية بينها. وهو خصيصة فريدة من فرائد القرآن يخرق بها حاجز الزمن ولا يستطيع كلام أن يقاربه فيه.

فلو أراد أحد وصف قصة وقعت أو تصور حدث سيقع، لقيده تاريخ القصة وكبله زمن الحدث، فما يمكنه أبداً أن يخرق قانون الزمن، ولا أن يخرج عن قيد التاريخ ولو حاول لما وجد ما يقوله كلاماً، وإنما هو إلى الهذيان أقرب.

قال : فهذه واحدة! تحضر الحدث من الماضى أو المستقبل إلى زمن القارىء، ولكنها لا تفسر اندماجه فى زمن الحدث ومشاركته فيه.

قلت : فالثانية : يذيب الزمن بينك وبين ما يحدث ويُشركك فيه أن القرآن لا يخبرك بالأحداث ويرويها لك رواية غيب، ولا يصف لك حركات أبطال الحدث وأشخاصه ولا ينقل لك ما قالوه فى غيبتهم. وإنما الأحداث تقع هى أمامك، والأبطال والأشخاص حاضرون، هم الذين يتكلمون ويتحاورون ويتجادلون، وهم الذين يتحركون ويقولون ويفعلون، ويذهبون ويجيئون،

ويرضون ويغضبون، ويؤمنون ويكفرون فى عرض متواصل ومسامع ناطقة ومشاهد متحركة.

قال: قف.. قف! تمهل قليلاً! أريد أن أرى ذلك بنفسى.

قلت: اقرأ مثلاً قصة موسى وهارون مع فرعون فى سورة طه:

أمسك المصحف وأخذ يقلب فيه ثم قال: ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾

[طه: ٤٥ -٥٢].

قلت: توقف. يكفى هذا فانظر إلى بداية الحوار بين الله عز وجل وبين موسى فى طور سيناء، يأمره عز وجل أن يذهب إلى فرعون ويبلغه ﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾، ثم فجأة وأنت تترك حرفاً إلى حرف لتقرأ الآية التالية يتغير المشهد، وتجده قد انتقل فى لمح البصر من طور سيناء إلى قصر فرعون، وانتقل معه الحوار وتبدلت أطرافه، ودخل آخر الحوار السابق فى أول الحوار اللاحق بيسر وخفة لا تلحظه معهما. ثم يتركك القرآن مع موسى وفرعون يتحاوران ويتصارعان وأنت معهما شاهد عليهما فى المكان والزمان. فأبطال الحدث هم أنفسهم حاضرون لا غائبون، فرعون هو الذى يكابر ويعاند فى لجاجة، وموسى هو الذى يرد ويحاجج.

قال: فأشخاص الواقعة هى التى تتحدث وهى التى تجادل وهى التى تهاجم وتدافع وهى التى تعطى ما فى نفسها.

قلت: نعم. فلا راوٍ يفسد عليك متابعة الحوار الحى الساخن لتعرف إلى أين ستصل هذه المصارعة الكلامية. لا توجد «حينئذ»، ولا «فرد عليه قائلاً»، ولا «لما قال له ذلك»، ولا «فتطور الأمر إلى»، ولا «فلما أحس فرعون الهزيمة».

فالحوار على لسان أصحابه، ولا شيء يخرجك من دائرة ما يحدث ويفصلك عنه، بل كأنك حاضر فى قصر فرعون تنظر يميناً فترى موسى فيرد عليه فرعون فتلتفت ببصرك ونفسك يساراً لتتابعه، وهكذا يتحاوران هما وأنت الحكم الشاهد بينهما.

قال: فهذا الحوار الناطق على لسان أصحابه إحضار لهم من طوايا الزمن أو سفر بالقارىء فى الزمن إليهم.

قلت: أو هما معاً بلا زمن، فتصير القراءة هى الحوار، ويظل الحوار مستمراً قائماً مادامت هناك قراءة.

قال: الأحداث تقع بالقراءة والقراءة هى الأحداث.

قلت: وليس فقط، وإنما يشحن القرآن الأحداث التى تقع فى القراءة بالحركة والتطور والمفاجآت والانفعالات النفسية لأبطالها، فيستغرق حواسك ونفسك وعقلك فيها، فينقلك إلى مكانها ويدخلك فى زمانها ويجعلك بطلاً من أبطالها.

قال: كيف؟

قلت: تأمل قصة نوح عليه السلام التى ذكرتها واقرأها بعناية فستجد أن أحداثها مثيرة ملئت بالحركة وتغيير المشاهد والصور البصرية والانفعالات النفسية والأحكام العقلية، فى عبارات قصيرة متتابعة متدفقة كتدفق الماء المتفجر من الأرض والمنهمر من السماء. فلا يمكن أن يكون بينك وبين أحداثها فاصل من الزمن أو حاجز من التاريخ لأنك ترى ما يحدث وتسمع ما يقال، والإثارة الكامنة فى الوقائع تجعلك مشدوداً إلى ما سوف تنتهى إليه.

ونفوس أبطال الحدث لا توصف لك انفعالاتها وتقلباتها، بل تراها شاخصة مجسدة على لسان أبطالها وأفعالهم الحاضرين فى الحدث تربط نفسك بنفوسهم.

فأنت وأى قارىء يجد نفسه كله داخل الحدث، ولا يمكن أن يحس زمنه غير زمان ما يحدث أمامه ويشعر به ويراه إلا أن يقف ويفصل نفسه فصلاً قسرياً عن الأحداث ويُخرج نفسه بالقوة من مركز جذبها ودائرتها.

قال: إن الأحداث فعلاً لمثيرة متحركة مملوءة بالتوتر والترقب، وبالشجن والأسى، فنوح عليه السلام يصنع الفلك وقومه يسخرون منه فلا يملك من أمره شيئاً إلا أن ينذرهم. وفى انتقالة خاطفة يتحرك المشهد من الحوار بين نوح وقومه إلى السفينة يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله لتجرى باسم الله إلى مرساها. وفى وسط انفجار المياه وانهمارها تغمر كل شىء يأتى هذا المشهد النفسى المؤثر: أب يرى ابنه يوشك بعناده على الغرق فيرق له - وهو النبى - رقة الأب لابنه فيتحننه ﴿ يابنى ﴾. وأكاد أراه أمامى عيونه دامعة يتوسل إلى ابنه ويرجوه: ﴿ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾.

قلت: فترى أمامك فى الجهة الأخرى قمة الإثارة والشجن النفسى: الأب يتوسل ويرجو، والابن الجاحد يعاند ويكابر.

قال: ثم هذا المشهد الرهيب: الأب مازال يتوسل، والابن مازال يعاند، والحوار مازال ممتداً، ثم تأتى موجة لتنهى الحوار وتغلق صفحته وتطوى الابن المعاند فى غياهبها. فيا أسفا على نوح! ويا لحزنه وفجيعته!

قلت: فما تشعر بنفسك إلا وأنت تمد يدك إلى هذه الموجة تحاول أن تدفعها، أو إلى هذا الابن تنزعه من الجبل إلى الفُلك رحمة بقلب أبيه المكلوم.

ثم، وفى خمس جمل قصيرة متتابعة، ترى القدرة الإلهية القاهرة فى الحدث وفى وصفه: الماء المنهمر يتوقف، والمتفجر يسكن، والأرض تفتح فمها لتبتلع الماء، ويستقر نوح بسلام الله وبركته عليه وعلى من معه على مرساه.

قال: فما تُلهى السلامة والنجاة الأب عن فجيعته فينادى ربه نداء الأب الضارع الباكى يملأه الأسى ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

قلت: وينادى ربه نداء الأب النبى لا يجعله أساه وفيجعته فى ابنه يضيق بقضاء ربه أو يراجعه فيه. وإنما يتضرع إليه عز وجل آملاً فى وجل، وسائلاً فى رضا، وشعاع واهن من رجاء يتسلل من أبوته أن عسى أن يكتب الله النجاة لابنه فى الآخرة وقد خسرها فى الدنيا. فيعلمه ربه أن طاعة الله فوق النسب، وأن صلة الأنبياء بأنسالهم العمل.

قال: إن الأسى ليملأنى والحزن ليفتت كبدى وقلبى لينفطر إشفاقاً على هذا الأب المكلوم يرى ابنه يضيع امام عينيه بعناده وكأنى معه أقف إلى جواره فى الفلك.

قلت: فهذا هو الاعجاز الربانى، الحركة والتدفق والإثارة والصياغة النفسية الحية تجعلك تأسى وتحزن وينفطر قلبك وأنت تتابع أحداثاً تراها وتعيش فيها وكأنها تحدث الآن، أو كأنك سافرت فى الزمان إليها، أو كأنكما معاً خارج نهر الزمن.

قال: تعرف! إنى لأقرأ القصص والروايات فأجد بعضها أخاذاً، وقد تكون أحداثها مثيرة أو بناء أشخاصها النفسى عميقاً ومؤثراً، وقد أنفعل بالأحداث وأرتبط بأبطال وأشخاص فيها وأشاركهم رؤاهم ومواقفهم. لكننى ما رأيت قصصاً يضع المرء داخله ويجعله يشارك فيه بحواسه وعقله ونفسه ويمحو الحواجز بينه وبينه، فلا زمان ولا مكان ولا انفصال لذات القارىء عن المقروء، بل اندماج وتوحد، لم أر ذلك إلا فى القرآن.

قلت: والأعجب من ذلك أن القرآن قد يأتى لك بالأحداث متقلبة سريعة خاطفة حية مليئة بالإثارة والترقب ثم يضعك فيها ويجعلك ركناً فى الصورة وجزءً مما يحدث.

قال: كيف؟

قلت: بأن يخاطبك داخل الحدث.

تأمل هذا المشهد الكونى الهائل:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الإنفطار: ١ - ٥].

قال: فذلك يوم القيامة، والكون كله فى انقلاب عنيف، وهزة الأمر الإلهى تجتاحه فتنسف قوانينه وتكتسح أجزاءه. فالسماء تنشق، والكواكب تفقد نظامها وتتناثر فى مهب الزلزال الكونى، والبحار تتفجر، والقبور تتبعثر.

قلت: فهذه الصورة الرهيبة للانقلاب الكونى تستحوذ على عقلك،

ومشاهد السماء وهى تنشق، والكواكب وهى تتناثر، والبحار تفور وتتفجر، والقبور تتبعثر وتخرج ما فيها تاسر بصرك فيها، ونفسك ماخوذة من هول ما يحدث.

قال: إنه لانقلاب وهزة تصيب المرء بالذهول ولا يملك إلا أن يقف أمامها مشدوهاً مبهوتاً.

قلت: وبينما أنت فى ذهولك بما يحدث ونفسك وبصرك فى الحدث، تفيق من ذهولك ويخطف سمعك ونفسك صوت الحق يناديك من جنبات الكون المتصدع: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار: ٦ – ٨].

قال: ياللهول!

قلت: فتدرك عندها انك لم تكن خارج ما يحدث، ولا أنت كنت واقفاً أمامه تراه وتتأمله، وإنما أنت واقف فيه، السماء والنجوم والبحار والقبور حولك أصابها زلزال الأمر الإلهى فأطاح بها، ثم جاء دورك بعدها. وزلزالك فى سؤالك، وسؤالك هو الانقلاب الذى يصيبك.

قال: فكان سؤال الإنسان هو تمام المشهد الكونى.

قلت: تماماً، فالسماء تنفطر، والكواكب تنتثر، والبحار تفجر، والقبور تبعثر، وأنت تُسأل. فأنت جزء مما يحدث يحتويكما أمر واحد وزمان واحد، أو لا زمن.

قال: إنَّ جلدى ليقشعر من هذا الهول. فإذا كان السؤال للإنسان هو الانفطار والانتثار والتفجر والبعثرة للكون فإنه ليس بسؤال ولكنه.. ثم صمت فجأة وبسرعة خاطفة نهض واتجه إلى الباب ثم استدار بوجهه إلىَّ وقال: إنى منصرف.

وفتح الباب ومضى.

* * *



نظم القرآن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾

[الجن: ١]

قال : اجلس!

قلت : ها قد جلست فماذا عندك يا ترى هذه المرة؟

مالى أراك تنظر إلىَّ ملياً صامتاً وكأنك ترانى لأول مرة؟

قال هامساً : يملأنى الأسى والشجن

قلت : ولم كل هذا؟

قال : قد صرت منى وصرت منك، وأوان افتراقنا قد اقترب .

ربتُ على كتفيه قائلاً : لا تحزن! فإننا ما نفترق إلا إلى لقاء، وما نفترق إلا ونحن معاً، وما كان خروجك منى ولا مفارقتى لك إلا لتلتقى بى وأتوحد بك .

قال فى دعة : عسى أن يكون قريباً .

قلت : والآن قل لى : ما هذا النغم الذى أسمعه ينساب ساحراً من بعيد؟ أظنه قرآناً يتلى .

قال : هو القرآن .

قلت : فمن أين تنبعث هذه التلاوة البديعة؟

قال : من غرفة مجاورة .

قلت : ولم لا نذهب إليه أو تحضره قريباً لنستمع إليه .

قال : لقد أبعدته عن أذنى عامداً .

قلت : عامداً! ولماذا؟

قال : أحاول أن أصل إلى السر

قلت : أى سر؟!

قال : سر هذه الموسيقا العذبة الساحرة التى تنبعث من القرآن .

قلت مبتسماً : وهل وصلت إلى السر؟

قال : مكثت طويلاً أستمع التلاوة من قريب وأقف عند آية آية أسمعها

وهى أمام عينى وأعيدها مرات ومرات أحاول أن أصل إلى مصدر هذه الأنغام البديعة فلم أصل إلى شىء.

قلت: ثم؟

قال: ثم قلت: فلأجرب طريقة أخرى. فأخذت أستمع إلى التلاوة من أماكن متفاوتة البعد حتى اختفت تفاصيل الكلمات والحروف ومازالت الأنغام هى هى تتدفق وتسيل جمالاً فى الأذن وراحة فى النفس.

قلت: ووصلت إلى مصدرها؟

قال: إن متعتى بهذه الأنغام الرخية وصفاء نفسى معها وما تسكبه فيها من راحة وسعادة ليغنينى عن إجهاد عقلى فى مصدرها أو سرها . فأنا أو قن بوجودها إيقانى بوجود نفسى.

قلت: سبحان مغير الأحوال! فقد تنازلت عن الفهم إذاً؟!

قال ضاحكاً: وأنت لا تريد أن تكف عن استثارتى! لا. لم أتنازل. لكنى أظن الأمر عسيراً عويصاً.

قلت: عسيراً عويصاً مرة واحدة!

قال: أحسبنى على معرفة بالموسيقى وما ينشأها من إيقاع وتوقيع ونظم بما يجعلنى أعرف مصدرها إن كان لها ثَم مصدر.

قلت: فزدنى بياناً.

قال: الموسيقى – أى موسيقى – إنما تنشأ من وجود نظام صوتى تتابع فيه المقاطع أو الجزئيات الصوتية المختلفة مرتبة فى تناسق وانسجام وعلى مقادير متناسبة وفى أزمنة أو وحدات زمنية متكافئة. وكل ذلك يتكرر فى كل وحدة من وحدات النظم لتعطى هذه الوحدات المتتابعة وحدة كبرى، تعرف فيها الأذن الانسجام والتناسق فى كل وحدة والتكرار المنظم فى الوحدة الكبرى وتحس بها النفس الراحة والجمال والانتشاء. فراحة النفس فى النظام وتشتتها فى الفوضى. وما الجمال – كما يقول المفكرون والفلاسفة – إلا التناسق والانسجام والنظام.

قلت: الآن فهمت!

قال: ماذا فهمت؟

قلت: فهمت ماذا تعنى الأذن الموسيقية؛ تلك التى أسمعها ولا أعرف المقصود بها. هى إذن الأذن القادرة على تمييز انسجام وتناسق المقاطع الصوتية والتقاط النظام المتكرر لهذه المقاطع فى وحدة جامعة.

قال: تماماً. وهى الأذن التى اعتادت هذا التناسق والانسجام، فيمكنها عند سماع مقطوعة صوتية أن تلتقط أى مقطع صوتى خارج عن نظامها أو يخل بتناسقها وانسجامها. وهى الأذن التى يصيبها اختلال النظام الصوتى بالنفور تسكبه فى النفس إعراضاً وصداً.

قلت: يبدو أن هذا يومك!

قال مبتسماً فى جذل: أخيراً!

قلت: فقل لى: هذا الانسجام فى المقاطع الصوتية والتناسق بينها فى وحدة واحدة، وهذا التكرار المنظم للأصوات الذى تنشأ به الموسيقى من أين يأتى وكيف يكون؟

قال: لا أظن ذلك يخفى عليك. أم تريد اختبارى؟

قلت مبتسماً: بل أريد سماعك.

قال: هذه الموسيقا وهذا التناسق والانسجام إما أن يأتى من ميزان توزن به وعليه الأصوات تتنوع فيه المقاطع الصوتية تنوعاً مقصوداً متناسقاً تتوالى فيه الحروف وأصواتها فى ترتيب ونظام متكرر.

قلت: موسيقا الشعر.

قال: نعم. فما موسيقا الشعر إلا ميزان تتوالى فيه الحروف وتنضبط به مقاديرها الزمنية. وما هذه الحروف إلا أصوات متتابعة فى نظام ودقة متنوعة بين الحركة والسكون، وبين القصر والمد، وبين صفات الحروف المختلفة ومخارجها، فإن

كان الشعر مقفى زادت القافية – التى هى حروف أى أصوات متشابهة متكررة – الموسيقا والنظم وضوحاً، وإن لم يكن مقفى انبعثت فيه الموسيقا من هذا النظام الداخلى وحده.

قلت: هذه إما. فماذا عن الأخرى؟

قال: وإما أن تنشأ الموسيقى من الآلات يوقع عليها فى نظام وتناسق وانسجام يخرج أصواتاً بهذا النظام والتناسق والانسجام.

قلت: فكيف يكون النظام والتناسق والانسجام بلا ميزان؟

قال: بل بميزان. هو المقادير الزمنية للنغمات وتتابعها فى تنوع منظم دقيق بين المقاطع الصوتية التى تقابل الحروف فى الشعر. ويمكنك أن تقول: إن الشعر هو موسيقا تنبعث من أصوات الحروف، والآلات تبعث موسيقاها من أصوات النغمات. والحروف كالنغمات: هذه أصوات وتلك أصوات. ومصدر الموسيقا فيهما واحد، هو وضع الأصوات فى كلٍ فى نظام زمنى وتنوع تتناسق فيه صفات الصوت أو النغمات وموقعها فى الأذن تعطى تجانساً تعرفه الأذن وتهتز به النفس وتنتشى.

قلت: ألَم تهتد إلى شيء من ذلك فى النظم القرآنى تفسر به أنغامه الرخية وموسيقاه العذبة التى تأسر الأذن وتستميل النفس؟

قال: الأمر – كما أخبرتك – صعبٍ عسير، فهذا نظم لا تخطئه أذن اعتادت التناسق والانسجام، وألحان سماوية لا تملك النفس إلا أن تميل إليها. ومع ذلك فلا يوجد ثَم أداة توقع،، ولا ميزان توزن عليه الحروف والكلمات لتعطى تناسقاً ونظاماً يبعث هذا النظم وهذه الموسيقا، بل ولا ثمة نظام فى رصف الحروف وتنسيقها يمكن أن تضع يدك عليه وتقول: هذا هو مصدر الموسيقا العذبة والأنغام الخلابة. فالموسيقا موجودة بغير ميزان، والأنغام بائنة ومصدرها خفى.

قلت: أتعرف أن هذا سر من أسرار الإعجاز؟

قال: قد فطنت إلى هذا بعد جهد ونظر وطول مراجعة لما كان بيننا؛ وفهمت السر فيه. فلو كان لهذه الموسيقا القرآنية والألحان السماوية ميزان يأتى بها كميزان الشعر أو نظام واحد محدد تنبعث منه لكان فى الإمكان معرفته ثم تقليده والسير على نهجه. ولأنه معجزة فهو معجز فى كل شىء. ومن إعجازه إعجازه للبشر أن يأتوا بمثل نظمه وموسيقاه.

قلت: تماماً. فموسيقا القرآن مصدرها فيه وتنبعث منه ولا باعث لها من خارج تركيبه، فلا أداة ولا ميزان ولا قانون لها يمكن معرفته والنهج على منواله، بل ولا معرفته معرفة تامة والاحاطة به كاملاً. ومع ذلك فنظمه وموسيقاه متجانسة لا تحس فيها الأذن الموسيقية التى ذكرتها نشازاً ولا النفس صداً أو إعراضاً.

قال: هذا صحيح. ومع ذلك..

قاطعته قائلاً: ومع ذلك ماذا؟

قال مبتسماً: انتظر وتمهل. ألم تقل إنه يومى؟ فلا تجر على فيه.

قلت: ها أنا مصغ.

قال: ومع عسر وصعوبة بل واستحالة الوصول إلى مصدر هذه الموسيقا الخلابة التى لا قواعد لها، فهناك بين مصادرها الخفية المبثوثة فى القرآن أشياء تفسر بعضاً من هذه الموسيقا، وإن كان تفسيراً جزئياً لا يفى بحقيقتها ولا يكافئها.

قلت: فقل وتمهل مترفقاً بى، فكما قلت: الأمر عسير عليك وأنت صاحبه فما بالك بى؟

قال: خطوة خطوة. أظنك لا تجهل معنى تجويد القرآن.

قلت: إخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه.

قال: دعك من هذه التعريفات التى تصيبنى بالعى، وقل لى: ماذا يعنى أن يقرأ القارىء القرآن مجوداً؟

أطرقت قليلاً ثم قلت : معناه أن يقرأه كما يجب له أن يُقرأ .

قال : وكيف يعرف ذلك؟

قلت : بتعلم قواعده من العلماء به، أو بالسماع ومتابعة من يقرأ قراءة صحيحة وتقليده فيها .

قال : وكيف عرف هؤلاء أيضاً؟

قلت : كلٌ عن سابق له فى سلسال طويل متواصل ينتهى بالصحابة القراء ثم النبى عليه الصلاة والسلام .

قال : والنبى ﷺ ؟

قلت : كما علَّمه جبريل عليه السلام .

قال : ها قد وصلنا إذاً، فالقارىء حين يقرأ القرآن كما يجب له أن يُقرأ فإنما هو يقرأه كما جاء به جبريل، وبصفاته التى علمها للنبى عليه الصلاة والسلام . فهو حين يقرأ حرفاً، وحين يقصر أو يمد، وحين يظهر أو يخفى أو يدغم، وحين يغن أو لا يغن، وحين يهمس أو يقلقل أو . . . أو . . . فإنما هو يفعل ذلك كله لا من عند نفسه ولا على هواه، وإنما يلتزم أحكاماً لا يمكنه الخروج عليها ولا تركها ولا التبديل فيها . وهذه الأحكام هى صفات القرآن الصوتية التى أنزله الله عز وجل بها .

قلت : تماماً . وإذا لم يلتزم أحد هذه القواعد فى تلاوته فقراءته خاطئة إن كان جاهلاً وتنتفى عنها صفة القرآن إن كان عامداً .

قال : إذاً فموسيقا القرآن تكمن فى أحكام التجويد هذه والتزامها، لأنها هى التى تجعل القراءة قرآناً وبها أنزله الله عز وجل .

قلت : فأنت ترى أن مصدر هذه الموسيقا هو أحكام وقواعد قراءة القرآن؟

قال : نعم . فالقرآن بدونها لا يكون قرآناً وإن كان كتاباً . فهى التى تمنح الكتاب صفاته الصوتية ليصير قرآناً . وقراءة الكتاب دونها لا تجعله قرآناً .

قلت: لم تزد على أن فسرت الماء بعد جهد بالماء! هذه الأحكام هى كل القرآن، كلماته وحروفه، فكأنك قلت: إن مصدر موسيقا القرآن هو القرآن!!

قال: يا قليل الصبر! أما قلنا خطوة خطوة؟ نعم: هذه القواعد والأحكام هى كل القرآن، لكن المسألة هكذا تكون أيسر قليلاً. فإن لم نستطع الوصول إلى مصدر البناء الموسيقى للقرآن فيمكننا أن نطمح إلى معرفة بعض عمده وأركانه.

نظرت إليه طويلاً ثم ابتسمت قائلاً: ماذا كنت تفعل فيما أنت غائب عنى؟

قال مبتسماً: أليس يومى؟! سترى.

أول مصدر لهذه الموسيقا لا تخطأه أذن واعية هى المدود.

قلت: المدود؟!

قال: نعم المدود. مد الصوت بحروف المد: الألف والياء والواو. فهذه الحروف لا تعطى صوتاً له معنى بذاته، وإنما تعطى صوتاً ممدوداً هو انتقال بين صوت حرف وصوت حرف آخر. وهذا الصوت الممدود هو نغم فى نفسه.

قلت: لعل ذلك لجمال صوت من يقرأ.

قال: لا. بل هو نغم جميل فى نفسه لا يحتاج إلى جمال صوت. فقط أن يقرأ صاحب الصوت كما يجب أن يُقرأ. ألا ترى أن من يغنى ليطرب من حوله يزيد من حروف المد ليزيد وقع النغم على الأذن والنفس.

اقرأ: ﴿ **الْحَاقَّةُ** ﴾، ﴿ **الم** ﴾، ﴿ **جاءت** ﴾، ﴿ **يشاء** ﴾، ﴿ **تبوأ** ﴾ وغيرها كثير مما هو مبثوث فى القرآن...

قلت: ﴿ **الْحَاااااقَّةُ** ﴾

قال: فتأمل وأنت تقرأ هذه المساحة الزمنية التى يشغلها المد أو هذا الصوت الصامت وستجدها نغماً خالصاً.

قلت: ﴿ **الْحَاااااقَّةُ** ﴾. يبدو أن ما تقوله صحيح. فهو فعلاً نغم خالص. ولكن هذه المدود الطويلة ليست هى كل مدود القرآن.

قال : ولكنك ستجدها موجودة فى كل آية أو بضع آيات على الأكثر.

قلت : فليكن!

قال : فضع إلى جوارها المدود الطبيعية التى تعطى نغمة قصيرة بقدر حركتين.

قلت : مثل؟

قال : يعلمون، السلام، الذى، عبادى.

قال : فستجد أنك أمام نوعين من المدود - النغمات : نغمات طويلة وأخرى قصيرة.

وجزء من موسيقا القرآن يأتى من توزيع هذه النغمات فى كلماته وآياته توزيعاً تعرفه وأنت واع بها مدرك لها.

والإعجاز أن هذا التوزيع بلا نظام ثابت ولا قانون يسير عليه وإنما هو يتنوع مع المعنى، وفى تناسق مع الفواصل ومصادر الموسيقا الأخرى. وقمة الاعجاز أن هذا التوزيع لا يؤثر فى إحكام المعنى واتساقه بل هو جزء منه. فالمعنى يأتى محكماً وحاملاً لموسيقاه فى داخله فى الوقت نفسه. فالمعنى يدخل إليك من باب عقلك والموسيقا تعضده من باب أذنك.

وقبل أن أنتبه من معنى كلماته خرج ثم عاد بعد قليل وقال : الآن استمع واشحذ أذنك وتنبه، وسترى أنه ما من قطعة من القرآن تخلو من هذه المدود - النغمات الطويلة تزن المدود الطبيعية القصيرة لتعطى نظماً موسيقياً متسقاً.

﴿ لِّلَّه مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي ى ى ى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاااءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاااءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَاااا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ (ى) وَكُتُبِهِ (ى) وَرُسُلِهِ (ى) لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ (ى)وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة ٢٨٤ - ٢٨٥].

قال: لو أحسنت الاستماع لما أخطأت هذا النغم الصافى المنبعث من هذه المدود الطويلة التى تأتى كنغمات طويلة بين المدود والنغمات القصيرة المتتالية فى حروف المد الطبيعى.

قلت: ولكنها تأتى غير منتظمة ولا على نسق واحد، فقد تحتشد فى آية وتقل فى أخرى.

قال: هذا صحيح، لأنها تأتى متناسقة مع مصادر للموسيقا أخرى، فتحتشد حيث تقل، وتقل حيث تكثر لتعطى فى النهاية قطعة واحدة موحدة متناسقة متجانسة لا تخطأ نظامها أذن وإن اختلفت مصادر هذا النظام والتجانس وما تنبعث منه.

قلت: هذا بديع! فماذا بعد المدود؟

قال: بعد المدود الغنن.

قلت: فهذه أعلمها. فالغنة صوت منغم يخرج من الأنف، فهو نغم بطبيعته وتعريفه.

قال: أظنك لا تجهل أن هذه الغنة التى هى نغم صاف مراتب.

قلت: بلى هى مراتب، فأعلاها النون والميم المشددتان، فغنة الإدغام، فالإخفاء ثم الإظهار. وفى حرفى الميم والنون غنة ونغم طبيعى ولو لم يكونا مشددين.

قال: تماماً، وجزء من موسيقا القرآن المتجانسة يأتى من هذه الغنن الكامنة فى صفات الحروف وأحكام تلاوتها فى القرآن، والتى توزع توزيعاً تتناسق فيه النغمات القوية فى الغنة الثقيلة مع النغمات الخفيفة فى الغنة الضعيفة وما بينهما فى نسق يُكون بنياناً صوتياً متجانساً فى الأذن تحس فيه الأذن التناسق والنغم وتهتز بأثره النفس. استمع إلى هذه:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٦٦]

قلت: وصف لعباد الرحمن جميل.

قال: فانظر إلى الآيات تجدها تخلو من المدود الطويلة التى تعطى أعمدة صوتية من النغم بين المدود والنغمات القصيرة.

قلت: هذا صحيح.

قال: ومع ذلك فمو سيقاها عذبة آسرة، ومصدرها هو هذه النغمات المختلفة الشدة الصادرة عن الغنن المختلفة الدرجة والموزعة فى تناسق وانسجام آخذ للأذن آسر للنفس.

قلت: النغمات الثقيلة الواضحة في إدغام نون التنوين فى الواو بعدها فى: ﴿ هَوْناً وَ ﴾، ﴿ سُجَّداً وَ ﴾، ﴿ مُسْتَقَراًّ وَ ﴾ وفى النون المشددة: ﴿ عَنَّا ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾، ﴿ جَهَنَّمَ ﴾، ﴿ إِنَّهَا ﴾.

قال: وجمال هذه الموسيقا ليس فى النغمات الثقيلة الواضحة فقط، بل فى تبادلها وشدها وتضفيرها بالنغمات الخفيفة فى النونات والميمات غير المشددة، وإيقاعها العذب الذى يجعل هذه الموسيقا تصدر من أعماق نفس قارئها فى هذه الفاصلة من المد الطبيعى النغمى فى الألف المنبعثة من حنايا النفس تتلوه الميم ذات الغنة، فألف مد أخرى. فهذه الفاصلة إلى جوار مصادر الموسيقا القرآنية الأخرى كأنها توقيع صوتى يضبط النظم القرآنى ويعطيه مساحات زمنية نغمية متناسقة تزيد الإيقاع نفاذاً فى الأذن وتحريكاً للنفس وبعثاً لكوامنها.

أتعرف أن هناك آية يكاد يكون مصدر الموسيقا القرآنية فيها خالصاً لهذه الغنن.

قلت: وما هى؟

قال: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ (ن) مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ (ن) عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ

(ن) مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ (ن) سَـنُمَـتِّعُهُـمْ ثُـمَّ يَـمَـسُّهُـم مِّنَّا عَذَابٌ (ن) أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فكما ترى الآية تمتلىء بالغنن فى أعلى درجاتها لتعطى نغمات فى أعلى شدتها. تأمل ﴿أُمَمٍ (ن) مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ فستجد فيها ثلاث غنن ثقيلة قوية إلى جوار الغنن الأخرى: ﴿مِّنَّا﴾، ﴿ثُمَّ﴾، ﴿ يَـمَـسُّهُـم مِّنَّا ﴾، وغنة الاخفاء فى ﴿وأُمَمٌ (ن) سَنُـمَـتِّعُهُـم ﴾. فالآية بهذه الغنن تعطى نغماً عالياً فكأنها تحتوى نوحاً عليه السلام وتجتذب أذنه لتلفته عما عاينه من هول وضياع لابنه إلى ما صار إليه وما يجب عليه أن يبدأ فيه.

قلت: فكأن هذه الموسيقا القرآنية تتنوع أيضاً مع المعنى؟

قال: وهل عندك فى ذلك شك؟! هى ترق وتلين إذا كانت الآيات دعاءً ضارعاً أو موقفاً مؤثراً لتشارك المعنى إحداث الأثر فى النفس، وهى تسمو وتصفو إذا كانت وصفاً للرحمن، وهى تعلو إذا كانت الآيات تعقيباً، وهى تشتد حتى تصير كدقات طبول الحرب عندما تصبح الآيات إنذاراً وتهديداً. وأما مصدر هذه الأنغام الساحرة فهو...

تثاءبت قائلاً: أما قلنا خطوة خطوة؟! فلو حشدت لى كل شىء مرة واحدة كيف أفهمه ومن أين لى استيعابه؟! انتظرنى حتى أراجع ما قلت وأسمعه من جديد وأتأمله على مهل.

ثم ابتسمت قائلاً: وليكن لك يوم آخر.

ضحك قائلاً: فليكن لى عليك يوم آخر.

* * *

قلت: ما هذه الأوراق الكثيرة التى تحملها معك؟

قال: هذا ما سجلته مما دار بيننا.

قلت: ولم أحضرته معك؟

قال : لأتمه اليوم . ثم التمعت عيناه بعبرة يخفيها وقال : آن الفراق .

قلت : أو آن اللقاء .

هيا أخبرنى ماذا عندك اليوم؟ ولكن انتظر! قبل أن تخبرنى بما عندك فإنى متعجب!

قال : ومم تتعجب؟

قلت : إن الموسيقا القرآنية التى ذكرت أنها تنبعث من المدود وتبادل الطويلة فيها مع القصيرة، ومن الغنن وتوزيع الثقيلة فيها بين الخفيفة والمتوسطة لتحيرنى .

قال : وما الذى يحيرك فيها؟

قلت : إن هذه المدود المتتالية، والغنن المتتابعة ليس لها نظام تسير عليه، ولا قاعدة أو قواعد تتبعها، ولا قانون يحكمها . والعجيب أنه رغم عدم وجود النظام والقواعد والقانون، والذى يجعل المرء يظن وجودها عشوائياً بلا قصد لها فى موضعها وأماكنها، فإن ترك غنة فى موضعها، أو قصر ما حقه أن يمد يحدث اختلالاً فى النظم لا تخطأه الأذن .

قال : هذا صحيح . وقد جربت ذلك أنا نفسى فوجدت الموسيقا وجمال النظم يأتى من توزيع المدود بأطوالها والغنن بدرجاتها كما هى، وأى حذف أو إسقاط أو قصر تختل به الموسيقا وتذهب روعة النظم فى الأذن وأثره فى النفس . وقد حاولت ما حاولت ولم أجد لذلك تفسيراً ولا تعليلاً، فالنظم موجود بغير نظام، والموسيقا بغير قواعد ولا ميزان . ومع ذلك فالموسيقا لا تكون والنظم المتجانس لا تراه إلا بوجود المدود والغنن كما هى دون تبديل ولا تعديل .

فيمكنك أن تقول : إن هذه الموسيقا والنظم هى سبيكة صوتية أو وحدة صوتية واحدة، جمالها فى نظامها، ونظامها هو هى كما هى .

قلت : فهو نظام، ولكنه نظام خاص متفرد جاء مرة واحدة .

قال : ولا وسيلة لمعرفة وجود هذا النظام الخفى إلا باختلاله إن بدلت أو غيرت ، وعودته إن عدت .

قلت: فهذه أعجب! فإذا كانت الموسيقا القرآنية والنظم لا تأتى إلا من توزيع مصادرها فى هذه السبيكة الصوتية كما هى وبنظامها التى هى فيه، فكيف رُكب هذا النظام الفذ الذى لا يحتمل التغيير والتبديل على هذا الإحكام والتناسق الخارق فى الكلمات ومعانيها وإيحاءات العبارات وإشعاعها.

قال بصوت عميق: كيف ركب هذا النظام الصوتى على هذا الإحكام والتناسق الخارق؟

قلت: نعم. نحن الآن أمام إحكام وتناسق خارق فى المعانى يأتى من اختيار معجز للألفاظ والكلمات، وتراكيب فريدة للعبارات والآيات، فإذا أسقطت كلمة أو قدمت أو أخرت اختل المعنى وذهب إحكامه وتفكك نسيجه.

وفى الوقت نفسه نحن أمام موسيقا خلابة ونظم بديع لا يأتى إلا من وجود الأصوات وتوزيعها كما هى، فإذا غيرت أو بدلت أو تجاهلت ذهبت الموسيقا وانحل النظم.

ففسر لى بالله عليك: كيف اجتمع هذا مع ذاك؟ وكيف اتفق اختيار الكلمات ونسجها لتعطى المعنى إحكامه مع توزيع الأصوات وتنسيقها لتعطى للنظم موسيقاه وجماله؟

قال: ليس أمامنا إلا حل من اثنين: إما أن تكون المعانى بألفاظها جاءت أولاً ثم صيغ لها هذا النظم الصوتى أو أن يكون النظم والتجانس الصوتى هو الأول والمعانى اختيرت له لتلائمه... أو...

قلت: أو ماذا؟

قال: أو هما معاً. ثم علا صوته فى حماس قائلاً. نعم: هما معاً. هذا هو الحل. القرآن ليس سبيكة بنظمه وصوته وموسيقاه، ولا سبيكة بكلماته وآياته ومعانيها، ولكنه سبيكة بهما معاً، وهما ممتزجان فيه معاً ولا فصل لأحدهما عن الآخر، فهو كله كما هو.

قلت: نظرية معقولة!

قال: معقولة فقط!؟

قلت مبتسماً: معقولة جداً! فقل لى الآن: ماذا فى جعبتك؟ فإنى فى شوق لاستكمال نظريتك هذه المعقولة جداً.

قال: مما لا تخطئه أذن ولا عين من مصادر موسيقا القرآن ونظمه الصوتى الجميل الفواصل.

قلت: فواصل الآيات؟!

قال: تماماً. فهذه الفواصل هى مقاطع صوتية متماثلة متكررة فى آيات السورة الواحدة أو عدة آيات منها.

قلت: فهى تعطى نظاماً صوتياً متناسقاً.

قال: وهذه المقاطع الصوتية المتماثلة الخاتمة للآية والآيات تعطى إيقاعاً عذباً فى الأذن مؤثراً فى النفس، خاصة مع الفواصل التى اختارها القرآن.

قلت: الفواصل التى اختارها القرآن؟!

قال: لو تأملت لرأيت أغلب سور القرآن تنتهى آياتها بالنون أو الميم بعد حرف مد أو بالألف.

قلت: وماذا يعنى هذا؟

قال: يعنى أن القرآن يحدث الموسيقا والنظم السالب للأذن بفواصل مقصودة لا يكتفى فيها بتكرار المقاطع الصوتية الذى يعطى موسيقا بالنظام والتشابه الصوتى، وإنما يجمع إليه أن هذا التكرار والإيقاع الصوتى هو بالمد الذى هو نغم خالص، والنون والميم التى تعطى نغماً بطبيعة صوتها.

قلت: فهو قد جمع فى هذه الفواصل الإيقاع بالنظام والتكرار إلى الموسيقا بالنغم فى المد والغنة الخفيفة فى الميم والنون.

قال: ولذلك تحس وأنت تقرأ – كما يجب أن تقرأ – أو تسمع أحداً يقرأ – كما يجب أن يقرأ – أن هذه الفواصل إيقاع صاف وموسيقا خالصة لا مجرد أصوات متتابعة. استمع إلى هذه...

﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ١ – ٨].

ثم استمع إلى هذه أيضاً:

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١ – ١٣].

قلت: إني لأحس وكأنى أهتز من أعماقى.

قال: وسر ذلك هذه الألف التى هى إلى جوار كونها نغماً خالصاً هى حرف جوفى يخرج من جوف الإنسان، فكأنها نغم صادر من أعماقه يحركها وينبعث منها. ولهذا فما يزيد عن ثلاثة أرباع آيات القرآن ينتهى إما بالألف وإما بالنون والميم بعد مد.

قلت: لتكون الآيات نابعة من أعماق الإنسان من منبع الطاقة الكامنة فى نفسه.. لكن قل لى: لو كانت نظريتك هذه المعقولة صحيحة وهذه الفواصل فقط هى التى تحدث نغماً جميلاً ونظماً سالباً للأذن ينبعث من النفس ويتدفق فيها، فمالى أرى سوراً كاملة تنتهى آياتها بفواصل لا أثر فيها للألف ولا للنون أو الميم كسورة ق والقارعة والمسد وغيرها كثير.

قال مبتسماً: أصبحت أنت الآن الذى تعترض وتتشكك!

قلت: أيها المشاكس! أبعد أن فهمت أنت تضن علىَّ بالفهم؟

اتسعت ابتسامته ثم قال: دعنى أقتص لنفسى وآخذ بعض حقى منك.

قلت: أمرى إلى الله. خذ بحقك ما شئت ثم تكلم.

قال: لو نظرت إلى السور والآيات التى ذكرت، لرأيت فواصلها تحدث نظماً وموسيقا ولكنها موسيقا من نوع خاص.

قالت: نوع خاص؟!

قال: هذه السور والآيات إنما جاءت فى مقام تحد للمشركين وإنذارهم وتهديدهم.

قلت: فليس المراد سلب الأذن بجمال النظم والنغم، ولا هز النفس بالموسيقا الرخية الحانية.

قال: تماماً. وإنما المراد قرع آذان المشركين بأصوات شديدة قوية تحس فيها نفوسهم هول التهديد وترويع الإنذار فى الوقت الذى تدركه عقولهم من الكلمات ومعانيها.

قلت: فيتحد أثر الفواصل القارع للأذن كدقات طبول الحرب فى النفس مع المعنى الذى تحمله الآيات إلى العقل.

قال: عليك نور! ولذلك تنتهى أمثال هذه الآيات غالباً بفواصل قصيرة تعرف فيها الأذن الحسم والحزم الذى يتناسب مع التهديد والترويع. وقد ينتهى بعضها بحرف من حروف القلقلة التى تتحرك فى مخرجها محدثة دوياً تعرف فيه الأذن وتسكب إلى النفس إيقاع دقات إعلان الحرب.

استمع إلى سورة المسد...

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ١ - ٥].

قلت: يبدو أن ما تقوله صحيح، فالفاصلة قصيرة حاسمة باترة لا أثر فى الصوت الذى تحمله لحنو أو لين.

قال: وفيها إلى الحسم والقطع والبتر قلقلة وانفجار الباء وقلقلة الدال التى تجعل صوت الوقوف على الحرف بالضبط كدوى دقة طبول الحرب.

قلت: إعلان الحرب على من آذوا رسول الله ﷺ وكادوا له.

قال: وهذا القصر والحسم فى الفاصلة، وهذا الدوى الذى يصم الآذان والقرع فى الحرف الذى تنتهى به الفاصلة هو جمالها وروعتها. فهى موسيقا تجسد المعنى بإيقاع الصوت وتشاركه إحداث الأثر.

قلت: فلو جاءت الفاصلة حانية رخية أو ضارعة كفواصل طه أو الرحمن لجلبت راحة وانتشاء للنفس فى مقام يراد فيه ترويعها.

قال: وعندها لأصبحت الموسيقا والفاصلة فى واد والمعنى الذى تحمله الآيات فى واد آخر، كمن يدير لحناً جنائزياً حزيناً فى زفاف عروس أو العكس.

قلت: فكأن الإيقاع والنظم والفاصلة تأتى متجانسة مع المعنى مؤازرة له؟

قال: بل هى جزء منه حامل له، تخاطب النفس بأثر المعنى مباشرة عن طريق الأذن فى الوقت الذى ينفذ هو إليها من باب العقل. أتريد أن تتيقن؟

قلت: وكيف أتيقن؟

قال: قد تجد فى السورة الواحدة الفاصلة تتغير من واحدة لأخرى ومن إيقاع لآخر مع تغير المعنى أو الجو العام الذى تحمله الآيات. ويكون هذا التغير فى الفاصلة موافقاً للمعنى متحداً به: إن لان رقت وإن عنف اشتدت.

قلت مبتسماً: إن لك لشأناً! أين كنت تخفى كل هذا عنى؟

قال ضاحكاً: لطالما حيرتنى.

استمع إلى سورة الضحى...

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١ - ١١].

قلت: حقاً! إن فيها أكثر من فاصلة. لكنى لا أفهم السر فى تغيرها.

قال: تعرف! أنت الذى نبهتنى إلى هذا السر.

قلت: أنا؟!

قال: بحديثك عن الكاف المحذوفة التى بها يزداد المعنى إحكاماً وكمالاً والنظم عذوبة وجمالاً.

قلت: هذا أعرفه. لكن ما علاقة الفاصلة بالمعنى، والآيات بعد ذلك تتغير فيها الفاصلة فتصبح راء وثاء بلا مد؟

قال: الآيات الأولى من ﴿ وَالضُّحَى ﴾ إلى ﴿ فَأَغْنَى ﴾ تخاطب النبى عليه الصلاة والسلام لتزيل عنه الهم وتطمئن قلبه إلى عناية ربه به وما أعده له فى الآخرة، وما سوف يعطيه له حتى يرضى، وتذكره ليوقن بهذا الرضى بإيواء الله له من يتم وهدايته من الضلال وإغناءه من العيلة.

قلت: فالآيات كلها رفق ودعة وحنان.

قال: ولذلك جاءت الفاصلة بهذه الألف اللينة الحانية المنطلقة بصوتها من الأعماق الذاهبة إليها، وفيها المد الذى يعطى نغماً رخياً تهتز به النفس حين ينبعث منها ويعود إليها اهتزاز الراحة بهذا الرفق والاطمئنان والانتشاء بهذه الرفقة وهذا الحنان.

قلت: فلماذا تغيرت الفاصلة بعد ذلك وتركت هذه الألف اللينة العذبة الجميلة التى تطرب لها الأذن وتهتز بها النفس والخطاب كما هو للنبى عليه الصلاة والسلام؟

قال: لأن الآيات تركت الحنان والرعاية والعناية إلى الأمر ﴿ فَلا تَقْهَرْ ... فَلا تَنْهَرْ ... فَحَدِّثْ ﴾، فتركت فاصلة العناية والحنان وتحريك النفس إلى فاصلة الأمر والنهى.

قلت: واختفى صوت عذوبة المد ورقته إلى صوت حروف حاسمة ليس فيها دعة.

قال: لأن هذا أمر ونهى إلهى لا أمر لأحد معه - ولو كان نبيه المصطفى - إلا الامتثال والطاعة، يعرف عاقبة الخروج عليهما فى الحسم والحزم وزوال العزوبة واللين والرقة.

قلت: فهذه الفواصل هى جزء من المعنى تحمله بإيقاعها ووقعها الصوتى فى الأذن وأثره فى النفس.

قال: تماماً، وبها يكون المعنى سارياً فى الصوت الذى يحمله ينفذ به إلى النفس مباشرة من الأذن، ويكون النظم هو التجسيد الصوتى للمعنى فى الأذن. فالنظم الصوتى والمعنى يسريان فى امتزاج كامتزاج الماء بالأعواد الخضراء.

قلت: وإذاً هذه الفواصل المقاطع الصوتية المنتظمة هى التى تحدث الإيقاع مع النغم الخالص فى المدود والغنن بدرجاتها المختلفة.

قال: فهذه هى أعمدة الموسيقا القرآنية وأركانها.

قلت: نظريتك هذه معقولة جداً لكنها خداج، فالمرء حين يتلو القرآن أو يسمعه يحس عزوبة وجمالاً صوتياً منطلقاً فى خلابة أثناء الانتقال من حرف إلى حرف داخل الكلمات وبينها ولو لم تكن فى الكلمة غنة ولا مد ولا هى من الفاصلة. استمع إلى أطول آية فى القرآن، آية الدين...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

أرأيت إلى العذوبة والتدفق الصوتى وجمال الموسيقا التى تنبعث من الكلمات؟ أما العجيب فهو أن هذه العذوبة والتدفق والجمال والخلابة سارية فى الآية من أولها إلى آخرها فى تجانس وانسياب لا تحس فيه الأذن نشازاً ولا اختلالاً ولا خروجاً عن النظم فى أى موضع .

قال : وما العجيب فى ذلك؟ ففيها مدود طويلة وقصيرة وغنن ثقيلة وخفيفة وبكل درجاتها .

قلت : ألم أقل لك إن نظريتك خداج؟

قال : كيف؟

قلت : فى الآية سطور يكاد لا يكون فيها مد ولا غنة ، ومع ذلك لو لم يدقق المرء ويضع عقله كله فى الحروف فلن يدرك هذا الخلو من مصادر الموسيقا التى ذكرتها، بل ولن يحس بانتقال ولا اختلال من نظم إلى نظم . استمع فقط إلى قوله : ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ .

قال : هى كما تقول : اتساق وتجانس وجمال وتدفق صوتى يشد الأذن ويهز النفس .

قلت : بل والمرء يقرأها يحس أن جسده لو تركه على سجيته يكاد يهتز على صوت حروفها التى تبدو وكأنها إيقاع صوتى منظم لا مجرد حروف .

قال مترنماً موقعاً : ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾، هذا صحيح .

قلت : فأين مصدر هذا النظم العذب والموسيقا الخلابة والتوقيع السالب للأذن الآسر للنفس والجسد؟

صمت قليلاً ثم قال: تعرف! ربما كان السر فيما قلناه من قبل.

قلت: وأى ما قلناه من قبل؟

قال: رصف الحروف داخل النظم حسب صفاتها ومخارجها ومميزات الصوت الذى يحدثه المخرج وصفة الحرف.

قلت: فهذه الموسيقا تنبعث من ترتيب الحروف فى تلاؤم واتزان صوتى يغنى عن الميزان، ويكون هذا الرصف الصوتى للحروف هو توقيعها وميزانها.

قال: تماماً، فهذه الموسيقا وهذا النظم يسيل فى الانتقال الصوتى من حرف إلى حرف ومن كلمة إلى كلمة بهذا الرصف للحروف فى تناسق ونظام حسب صفاتها الصوتية لتعطى قطعة صوتية متلائمة متجانسة.

قلت: فهذا أمر عسير، فكأنك تقول: إن القرآن رصفت حروفه ونظمت كلماته باعتبار صفاتها الصوتية لتخرج هذه القطع الصوتية المنسابة فى عذوبة وجمال.

قال: تماماً.

قلت: فأين المعانى؟

قال: ألم أقل لك إنه سبيكة لغوية صوتية واحدة؟ بدأت تنسى!

قلت: آه! حقاً.

قال: فمصدر الموسيقا والنظم ليس حرفاً واحداً ولا مقطعاً بعينه، وإنما كل الحروف بأصواتها وصفاتها وترتيبها التى هى فيه.

قلت: نظامها الذى هو نظام بغير نظام.

قال: لا تفسير لهذه الموسيقا والنظم التى تنبعث من هذا الرصف للحروف بأصواتها وتختل باختلاله إلا هذا النظام الذى هو بلا نظام. أو لو أردت الدقة: النظام الذى نراه نحن بلا نظام، لأنه بلا شبيه وغير قابل لترسمه والسير على نهجه.

قلت: إذاً فلا سبيل لمعرفة هذا المصدر الظاهر الخفى للموسيقا والإيقاع الصوتى الخلاب الذى نراه ونسمعه ولا نعرف أين هو بالضبط؟

قال: الوسيلة الوحيدة هى أن تسمع أو تتلو فتعرفه فى تدفق اللسان وفى جمال أصوات الحروف فى ترتيبها الموجودة فيه واختلاله باختلاله، وفى عذوبة المقطوعة الصوتية التى تبعثها بترتيبها هذا.

قلت: ولا طريقة أخرى!

قال: لا أظن ولكن يمكنك التأكد.

قلت: وكيف أتأكد؟

قال: افعل كما فعلت.

قلت: هيه! وماذا فعلت أيها المشاغب؟

قال: هات أى قطعة من النثر واختره بليغاً جميلاً ما شئت ثم حاول أن تتلوه كما تتلو القرآن.

قلت: كما أتلو القرآن؟!

قال: اقرأه بصوت عال بصفات الحروف ومخارجها كما هى فى القرآن وبالقواعد الصوتية لقراءة القرآن.

قلت: سأجرب. ولكن قل لى: ماذا وجدت أنت؟

قال: سخفاً وضيقاً فى اللسان، ونشازاً واختلالاً تمجه الأذن وتتجافى عنه النفس فلا تكمل فيه ولو سطراً واحداً.

قلت: وماذا يعنى هذا؟

قال: يعنى أن هذه الموسيقا الصوتية والنظم الخلاب الذى ينبعث من الحروف وأصواتها هى خصيصة القرآن وحده، وأن مصدره هو وجود الحروف فى رصفها وترتيبها القرآنى الذى به أنزلت لا مجرد قواعد قراءتها.

قلت: وإذاً؟!

قال: وإذاً فمصدر هذه الموسيقا ليس مجرد وجود حروف قد يتوهم ساذج وجودها الصوتى فى أماكنها وبترتيبها هذا مصادفة أو فقط لبيان المعنى، وإنما مصدرها هو صفات الحروف ومخارجها وما يحكم قراءتها من قواعد وأحكام فى هذا النسق وهذا النظام والرصف الذى رتبت فيه واختيرت له.

قلت: فأى اختلال أو تغيير فى صفات الحروف الصوتية أو فى نظمها التى هى فيه يذهب الموسيقا والعذوبة والإيقاع والتوقيع.

ابتسمت قائلاً: وهذا يعضد نظريتك المعقولة... جداً.

قال بابتسامة ماكرة: بدأت تفهمنى. القرآن سبيكة لغوية صوتية تمتزج فيها المعانى بالصوتيات، ولا تفسير لهذا الامتزاج إلا أن هذه السبيكة وجدت هى كما هى، لم تسبق فيها المعانى النظم والموسيقا، ولا النظم والموسيقا المعانى، وإنما هما معاً كما هما. وروعة هذه السبيكة وإعجازها وسرها هو فى وجودها كما هى تنساب معانيها فى نظمها وأصواتها.

توقف فجأة ثم نظر إلىَّ قائلاً: أراك شردت بعيداً عنى!

التفت إليه قائلاً: إنه لشىء عجيب! نظامٍ بغير نظام وموسيقا بلا أوزان، تعرف! وأنت تفيض فى نظريتك المعقولة جداً هذه أكاد لا أصدق أو أصدق وأكاد لا أستوعب.

قال مبتسماً: هيه! ستحرن!

قلت: تريد أن تقطع علىَّ الطريق؟

قال ضاحكاً: وما ذنبى؟ ألست أنت الذى علمتنى الرماية؟!

إنما أرد لك بعض ما جاءنى منك.

قلت: انتظر حتى أفهم وسأريك.

قال: سأحاول أن أفهمك وأجرى على الله.

إدراك واستيعاب هذا النظم وهذه الموسيقا مسألة شائكة صعبة عليك.

وسبب صعوبتها أنك تحاول أن تفهمها بعقلك!.

قلت: وهل هناك ما أفهم به غير عقلى؟! ومن الذى يقول هذا؟ أنت!!

قال: نعم أنا! فليس كل شىء يدرك بالعقل. وقد يدرك العقل شيئاً ولا تستوعبه إلا بغيره.

قلت: فما هذا الذى سوف أدرك به وأستوعب هذا النظم والموسيقا غير العقل؟

قال: أذنك.

قلت: أذنى؟!

قال: نعم أذنك! النظم والموسيقا أصوات ونغمات لن تستطيع أن تدركها بعقلك، وإن أدركتها فلن تستوعبها أبداً به وحده. والمعضلة أنك تفكر فى الأصوات، ولكى تدرك الأصوات ينبغى أن تسمعها بأذنك لا أن تفكر فيها بعقلك.

قلت: إذاً فإدراك هذا النظم الذى بلا نظام والموسيقا التى بلا أوزان لا يكون إلا بالآذان؟

قال: وبأثر هذا النظم وهذه الموسيقا فى أذنك على نفسك تعرفه منها وتحسه فيها.

قلت: السماع لا التفكر، الأذن لا العقل.

ابتسمت قائلاً: إذاً فهذا هو ما توصلت به إلى نظريتك المعقولة... جداً؟!

قال: اسخر ما شئت! فهذه هى الحقيقة ولن أتنازل عنها حتى تأتينى أنت بتفسير آخر أكثر إقناعاً للعقل!.

قلت: إذاً هو تحد وإنى...

قاطعنى قائلاً: أتريد برهاناً على أن التفسير العقلى لهذا النظم والموسيقا قاصر، وأنك لن تستطيع إدراك وجود هذا النظم وهذه الموسيقا إلا بالأذن والنفس فقط؟

قلت : برهان؟! وهل عندك برهان؟!

قال مبتسماً : عندى.

قلت : يالسكوتك هذا الممل!

قال : قد تجد الجملة أو الآية والآيات فى القرآن تعطيك نظماً خلاباً وموسيقا آسرة فى أذنك ونفسك، فتعمل فيها عقلك فتجد إيقاعاً منتظماً ونظاماً صوتياً متشابهاً ووزناً متكرراً يفسر لك جمال النظم فى الأذن وانسياب الموسيقا فى النفس وتحريكها لها..

قلت : يبدو أننا سنعود إلى البداية الأولى. وهل هذا دليل يشهد لنظريتك أم يشهد عليها؟ ثم انتظر! ألم تقل لى من قبل : إنه لا يوجد إيقاع منظم ولا وزن وإلا أمكن تقليده.

قال : يا قليل الصبر! واحدة واحدة. فإنك لا تمهلنى وأنا لم أتم كلامى بعد.

قلت : أتم كلامك.

قال : ما يشهد لى أيها العجول هو أنك لو أتيت بهذه الجملة أو الآية والآيات ووضعتها بين أخواتها قبلها وبعدها واستمعت لها جميعاً معاً لما أحست أذنك اختلافاً فى النظم والموسيقا، ولا فقدت نفسك الإيقاع الآسر لها المؤثر فيها.

قلت : لا أفهم شيئاً.

قال : فلو تفكرت فى الآيات بعقلك لوجدت الإيقاع المنتظم يوجد لجملة أو آية أو آيات، وما إن تضع عقلك عليه فيها حتى يختفى من أمامك ويتفلت من عقلك ولا تجد له أثراً.

قلت : فهمت الآن قليلاً. فالعقل يجد الإيقاع والوزن الذى يفسر جمال النظم والموسيقا، ثم يختفى هذا الإيقاع وهذا الوزن ويظل النظم خلاباً فى الأذن والموسيقا منسابة فى النفس.

قال : فلا تحس الأذن ولا النفس أنه كان ثَم إيقاع واختل أو نظم وذهب، وإنما انسياب وتدفق وجمال وراحة.

قلت : وإذاً فوضع العقل فى الحروف والكلمات وكَدّه فى الإيقاع لا يكفى لإدراك النظم والموسيقا ولا تفسيرها.

قال : تماماً.

قلت : فهذه عجيبة أعجب! الموسيقا والنظم بالإيقاع والوزن، وهى هى بدونهما!

قال : هذه هى الحقيقة ولن تدركها إلا بالأذن والنفس.

استمع إلى هذه الآية من سورة القصص :

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾

[القصص : ٣٨]

قلت : وأنا أستمع إليها أحس إيقاعاً جميلاً ونظماً عذباً.

قال : فلو تركت أذنك لتتأمل الآية بعقلك لوجدت فيها ما قد يفسر لك هذا الإيقاع والنظم.

قال : أين هو؟

قال : تأمل جملة ﴿ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا** ﴾، فستجد فيها إيقاعاً منظماً ومقاطع صوتية متكافئة الزمن ومتشابهة الوقع فى الأذن فى : ﴿ **يَا هَامَانُ** ﴾ تعطيك موسيقا وتوقيعاً تعرف نظامه فى أذنك، ويمكنك أن تنقر بأصابعك وتضبط النقر عليه.

قلت : سأجرب.. فأوقد لى يا هامان على الطين.. هذا صحيح.

قال : وستجد هذا النظم السريع فى وسط الجملة تشده جملة صوتية واحدة فى طرفيها تضبط الإيقاع ببادئة وخاتمة.

قلت: فأين هى هذه الجملة الصوتية؟

قال: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ﴾ فى أول النظم و﴿ فَاجْعَل لِّي ﴾ فى آخره. فهما جملتان لهما زمن صوتى واحد، وإيقاع ووزن واحد، وصفات صوتية واحدة.

قلت مترنماً: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي......... فَاجْعَل لِّي ﴾.

قال: ففى الآيات نوعان من الإيقاع والوزن يتداخل أحدهما بالآخر. الأول: هى المقاطع الصوتية القصيرة المتكررة فى وسط الآية فى يا وها وما، والتى تحدث إيقاعاً سريعاً واضحاً لا تخطئه الأذن.

والثانى: الجملة الصوتية الطويلة فى طرفيها، والتى تحدث إيقاعاً أبطأ بمثابة بداية تمهيدية ونهاية خاتمة.

قلت: والعجيب أن هذا الإيقاع السريع يختلط بذلك الإيقاع البطىء الذى يمسك بطرفى الجملة دون أن تحس الأذن اختلالاً ولا انتقالاً أو شذوذاً.

قال: والأعجب من ذلك، ثم ابتسم قائلاً: والذى يعضد نظريتى المعقولة جداً، أنك لو أكملت الآية لوجدت الإيقاع البطىء الذى يزن الجملة يكاد يكون مستمراً فى الآية فى: ﴿ لَّعَلِّي ﴾، ﴿ وَإِنِّي ﴾ دون الإيقاع السريع، ثم يتفلت هذا وذاك منك فى الآيات التالية. وأنت تسمع فلا تحس اختلالاً ولا نشازاً ولا تفتقد شئياً مهما كانت حساسية أذنك ونفسك للنظم والموسيقا.

قلت: وإذاً؟!

قال: وإذاً فعقلك غير كاف لإدراك سر جمال هذا النظم وروعة هذه الموسيقا، فهو يفسرها فى مواضع، وما يفسرها به يختفى من أمامه فى مواضع أخرى وهى هى فى الأذن والنفس لم تتغير.

قلت: إن نظريتك المعقولة جداً لتقوى شيئاً فشيئاً.

قال: وأدل من هذه الآية سور جزء ﴿ عَمَّ ﴾.

قلت: وما فيها؟

قال: تجد فى كثير منها إيقاعاً منتظماً تعرفه وتراه، ولكن ما إن تضع يدك

عليه حتى يتفلت منها ويختفى، والنظم هو هو، والموسيقا هى هى، فيعجزك بوجوده كما يعجزك بغيابه.

استمع إلى سورة النازعات:

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ١ - ٥].

لو شحذت أذنك لما أخطأت مقاطع كثيرة متساوية زمنياً متشابهة صوتياً تتكرر فى إيقاع منتظم لا يتغير.

قلت: كيف؟

قال: في كل آية أربع مقاطع صوتية وكل مقطع يتكرر فى كل آية هو هو ليعطيك وزناً واحداً يكاد لا يتغير.

والنَّـــا	زِعـاتِ	غَـــرْ	قــاً
والنَّـــا	شِطاتِ	نَـشْ	طـاً
والسَّـــا	بِحــاتِ	سَــبْ	حـاً
فالسَّـــا	بِقـــاتِ	ســبْ	قـاً
فالمدبـ	بِـــراتِ	أمْـــ	ر اً

قلت: هذا صحيح! فهناك أربع مقاطع صوتية فى كل آية، وكل مقطع منها يكاد يكون هو هو فى الآيات الخمس.

قال: فيعطيك ذلك توقيعاً ووزناً واحداً وإيقاعاً متكرراً لا تخطىء أذن فيه جمال النظم والموسيقا.

قلت: ربما كان ما يساعد على ذلك قصر المقاطع وسرعتها وتكرارها المتوالى، والأذن أقدر على تمييز الإيقاعات السريعة.

قال: أما العجيب حقاً فهو أنك حين تكمل سماع الآيات لا تحس أن إيقاعاً كان موجوداً ثُم تبدل، ولا أن ثَم وزناً كنت تسمعه ثُم اختفى. فالنظم مازال موجوداً والإيقاع متدفقاً جميلاً.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾

[النازعات: ٦ – ١٤]

قلت: فكأن هذا الإيقاع يراوغ السماع.

قال: بل يعجز بوجوده، يحسبه تفسيراً لما يسمعه، ثم يختفي ويتركه حيران لا يدرى كيف كان النظم والموسيقا فى وجوده، وكيف هما موجودان بعد اختفائه.

قلت: يبدو أننى حقاً سأقتنع بنظريتك المعقولة جداً هذه.

قال: فإذا كنت ستقتنع بنظريتى المعقولة جداً فقد وصلنا.

قلت: وصلنا؟! إلى ماذا؟ ماذا تفعل؟

قال: ألملم أوراقى.

قلت: أعتزمت فراقى؟

قال فى دعة: أما قلنا إنه لقاء فى فراق وفراق فى لقاء؟

قلت: فلن أراك ثانية؟

قال: هيهات!

ما هذه الدموع التى أراها تترقرق فى عينيك يا رجل؟

هيا هيا! فأنا لا أحب الوداع الطويل.

قلت: فإلى أين أنت ذاهب؟

اقترب منى فى خطى وئيدة ثم قال:

سأعود من حيث أتيت، وأستقر حيث كنت.

ثم ابتسم قائلاً:

إلى حين.

* * *

المصادر والمراجع

١ – التفسير البيانى : بنت الشاطىء.

٢ – تفسير القرآن العظيم : ابن كثير.

٣ – الجامع لأحكام القرآن : القرطبى.

٤ – روح المعانى : الألوسى.

٥ – فى ظلال القرآن : سيد قطب.

٦ – الكشاف : الزمخشرى.

٧ – مفاتيح الغيب : الفخر الرازى.

٨ – الاتقان فى علوم القرآن : السيوطى.

٩ – البرهان فى علوم القرآن : الزركشى.

١٠ – تاريخ القرآن : الزنجانى.

١١ – تاريخ القرآن : عبد الصبور شاهين.

١٢ – الجمع الصوتى الأول للقرآن : لبيب السعيد.

١٣ – نكت الانتصار لنقل القرآن : الباقلانى.

١٤ – الأحرف السبع : قضية علمية : عبد الفتاح شلبى إسماعيل.

١٥ – المقنع فى رسم مصاحف الأمصار : أبو عمرو الدانى.

١٦ – البدور الزاهرة : عبد الفتاح القاضى.

١٧ – النشر فى القراءات العشر : ابن الجزرى.

١٨ – الإعجاز البيانى : بنت الشاطىء.

١٩ – إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى.

٢٠ – بيان إعجاز القرآن : الخطابى.

٢١ – دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى.

٢٢ – الرسالة الشافية فى الإعجاز : الجرجانى.

٢٣ – الظاهرة القرآنية : مالك بن نبى .
٢٤ – المعجزة الكبرى القرآن : محمد أبو زهرة .
٢٥ – من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن : رؤوف أبو سعدة .
٢٦ – النكت فى إعجاز القرآن : الرمانى .
٢٧ – النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز .
٢٨ – إعراب القرآن : الزجاج .
٢٩ – ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان : ابن المرتضى اليمانى .
٣٠ – التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب .
٣١ – درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافى .
٣٢ – كشف المعانى عن مشابه المثانى : بدر الدين بن جماعة .
٣٣ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقى .
٣٤ – المفردات فى غريب القرآن : الراغب الأصفهانى .
٣٥ – من أسرار حروف الجر فى القرآن : محمد الأمين الخضرى .
٣٦ – سنن ابن ماجة .
٣٧ – سنن النسائى بشرح الحافظ السيوطى وحاشية السندى .
٣٨ – صحيح البخارى .
٣٩ – صحيح مسلم بشرح النووى .
٤٠ – مسند الإمام أحمد بن حنبل .
٤١ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث : ونسنك – محمد فؤاد عبد الباقى .
٤٢ – تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى .
٤٣ – الخصائص : ابن جنى .
٤٤ – شرح شذور الذهب لابن هشام : محمد محى الدين عبد الحميد .
٤٥ – فى شرف العربية : إبراهيم السامرائى .
٤٦ – لسان العرب : ابن منظور .
٤٧ – إبراهيم أبو الأنبياء : العقاد .

٤٨ – الأبطال : توماس كارليل .
٤٩ – تاريخ الإسلام : الذهبى .
٥٠ – حياة محمد : محمد حسين هيكل .
٥١ – السيرة النبوية : ابن هشام .
٥٢ – الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى : القاضى عياض .
٥٣ – محمد الرسالة والرسول : نظمى لوقا .
٥٤ – الوحى المحمدى : رشيد رضا .
٥٥ – الله : العقاد .
٥٦ – تفسير سورة الإخلاص : ابن تيمية .
٥٧ – شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية : محمد خليل هراس .
٥٨ – العقل والدين : وليم جيمس .
٥٩ – فصل المقال فى ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال : ابن رشد .
٦٠ – معيار العلم : أبو حامد الغزالى .
٦١ – صوت الشاعر القديم : مصطفى ناصف .
٦٢ – فى الشعر الجاهلى : طه حسين .
٦٣ – أصول الصابئة ومعتقداتهم : عزيز سباهى .
٦٤ – ديانة الساميين : روبرتسون سميث .
٦٥ – العقيدة والشريعة : جولد تسيهر .
٦٦ الكتاب المقدس : أسفار التوراة والأناجيل وأعمال الرسل .
٦٧ – محاضرات فى النصرانية : محمد أبو زهرة .
٦٨ – فجر الإسلام : أحمد أمين .
٦٩ – قصة الحضارة : ول ديورانت .
٧٠ – المقدمة : ابن خلدون .

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٩٦٠٩